أضواء على حياة البادية

الطبعة الأولى

2014-1435

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزءٍ منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

دمشق - القاهرة - الشارقة

دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب 31426

الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب 3309

Email: almaktabi@gmail.com

www.almaktabi.com

أضواء على حياة البادية

تأليف

صالح هواش المسلط

دار المكتبي

بسم الله الرحمن الرحيم

لا تسألوني

لا تسألوني ليه أنا عاشق خزامى مستهام
إذا عرفتوني أنا تدرون وش سر الغرام

* * *

أصلي أنا بيتي شَعَرْ والبرد هو ديرة هلي
فراشي ثرى وسقفي سما وترابها غالي عليّ

الأمير خالد الفيصل

أضواء على حياة البادية

يقول الشاعر العربي الكبير أحمد بن الحسين (أبو الطيب المتنبي):

خذوا الخلق الرفيع من الصحارى فإن النفس يفسدها الزحام
فكم فقدت جلالتها قصور وما فقدت مروءتها الخيام

* * *

وتقول الشاعرة ميسون الكلبية زوجة معاوية بن أبي سفيان؛ عن شوقها للبادية:

لَبيتٌ تخفق الأرياح فيه أحبُّ إليَّ من قصرٍ منيفِ
وأصوات الرياح بكل فجٍّ أحبُّ إليَّ من نقر الدفوفِ
وكلب ينبح الطرّاق دوني أحبُّ إليَّ من قطّ ألوفِ
ولبس عباءةٍ وتقرَّ عيني أحبُّ إليَّ من لبس الشفوفِ
وخرق من بني عمي نحيف أحبُّ إليَّ من عجلٍ عليفِ

فرد عليها معاوية قائلاً:

أما رضيتِ حتى جعلتيني عجلاً؟! فاذهبي إلى بيت أهلك فأنت طالق، فطلقها، وذهبت.

صفة البادية

البادية هي الأرض التي ليس فيها بناء من دور وقصور وغير ذلك ، وهي البدو أيضاً ، والنسبة إليها بدوي.

وفي الحديث النبوي الشريف يقول النبي ﷺ: «من بدا جفا» أي: من نزل البادية صار من جفاة الأعراب.

والبداوة: الإقامة في البادية ، وهي خلاف الحضارة.

والمبدي خلاف المحضر ، ولما كانت البادية ومساكنتها تقتضي صيانة العز والشرف؛ رجحها غالب العرب على الحضر، وكثر حنينهم إليها، وذكر وحشها وطيرها ورياضها ، ونبتها وشجرها وأغوارها ، وأنجادها ورياحها ومياهها[1].

وقد ذكر الأعراب في القرآن الكريم ، حيث يقول الله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2].

ويقصد بالأعراب هنا: سكان البادية من العرب ، جمع أعرابي ، وهو غير العربي الذي معناه: من كان جنسه عربياً. و(لما) هي بمعنى: قالت الأعراب آمنا قل لهم إنكم لم تؤمنوا بعد ، إذ إن الإيمان تصديق مع ثقة وطمأنينة ، ولم يحصل لكم ذلك، ولكن قولوا أسلمنا؛ لأن الإسلام انقياد، ودخول في السلم[3].

وفي سورة التوبة يطالعنا قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ

---

(١) انظر: الألوسي - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب- شرح وتصحيح وضبط: محمد بهجت الأثري - دار الكتب العلمية. بيروت - لبنان ج ٣ ص ٤٢٥.

(٢) سورة الحجرات: ١٤.

(٣) انظر: محمد فريد وجدي - المصحف المفسر- مؤسسة دار الشعب. القاهرة-ص ٦٨٧.

﴿أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[1] والمراد بالأعراب في الآية الكريمة أهل البوادي لا الجنس العربي ، ومعنى الآية : الأعراب أشد كفراً ونفاقاً ، وأخلق أن يجهلوا حدود ما أنزل الله على رسوله من الشرائع والأصول ، والله عليم حكيم[2]. أما في قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾[3] فيفسرها (محمد فريد وجدي) بقوله: الأعراب: أي أهل البادية ، واحده أعرابي ، وهذا غير العربي الذي معناه العرب أشد كفراً ، وإنما معناه: سكان البوادي الجفاة[4]؛ الذين يعيشون في البادية ذات السهوب الشاسعة الواسعة المترامية الأطراف ، والصحراوات الفسيحة المستوية كل الاستواء ، تتشابه فيها المناظر، وتتخللها في بعض الأماكن المرتفعات، والهضبات الترابية المنفردة.

إنها البادية المتموجة بآكامها الصخرية؛ التي تتقطع ، وتتسلسل ، حيث تقع بين هذه الآكام أودية ومسايل جافة في معظم أيام السنة[5].

وللبادية تاريخ ، وللتاريخ حكايا طوتها الصحراء حيناً وروتها حيناً آخر ، والبادية تطوي في أعماقها أسراراً وتكشف أخرى. وهي أشبه بالبحر الخضم ، امتدت أطرافه ، وتباعدت جوانبه ، فلا يدرك الناظر لها نهاية أو حداً.

ذكر المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)[6]:

(اعلم أن بين أقاليم العرب غير المغرب بادية ذات مياه وغدران ، وآبار وعيون وتلال ورمال وقرى ونخيل ، قليلة الجبال ، كثيرة العرب ، مخيفة السبل ، خفيفة الطرق ، طيبة الهواء ، رديئة الماء ، ليس بها بحيرة ولا نهر إلا الأزرق ، ولا مدينة إلا تيماء.

ومن الناس من يعدها من الجزيرة ، وليست منها.

---

(١) سورة التوبة: ٩٧.
(٢) انظر: المرجع السابق ص ٢٥٨.
(٣) سورة التوبة: ٩٠.
(٤) انظر: المرجع السابق ص ٢٥٨.
(٥) انظر: عبد الجبار الراوي- كتاب (البادية) ص ٣٨.
(٦) عبد الجبار الراوي- كتاب (البادية) ص ٢٤٨.

ومنهم من يجزئها على الأقاليم ، ومنهم من يجعلها من الشام ، وقد رأينا نحن أن نفرزها ونفرد صورتها؛ لأن أحداً من أهل الأقاليم الثلاثة عشر لا طريق له إلى مكة في البر إلا فيها ، ولا غنى له عن معرفتها ، وأيضاً فإن فيها مناهج[1] لا تعرف ، ومياهها قد تجهل ، وفي ذكرها فوائد لا تحصى ، وأجر وحسب لا يخفى).

وقد أطنب المسعودي في اختيار العرب سكنى البوادي ، قال: (ورأت العرب أن جولان الأرض وتخير بقائها على الأيام أشبه بالعز ، وأليق بذي الأنفة ، وقالوا: نكون محكمين في الأرض ، نسكن حيث نشاء ، وأصلح من غيره ، قال: ذكر آخرون أن القدماء من العرب لما ركبهم الله من سمو الأخطار ، ونيل الهمم والأقدار ، وشدة الأنفة والحمية من المعرة والهرب من العار ، بدأت بالتفكير في المنازل والتقدير للمواطن ، فتأملوا شأن المدن والأبنية؛ فوجدوا فيها معرة ونقصاً ، ومنهم من قال: إن الأرضين تمرض كما تمرض الأجسام ، وتلحقها الآفات ، والواجب تخير المواضع بحسب أحوالها من الصلاح.

إذ الهواء ربما قوي فأضرَّ بأجسام سكانه ، وأحال أمزجة قُطَّانه (أي: ساكنيه) ، ومنهم من قال: إن الأبنية والتحويط حصر عن التصرف في الأرض ، ومقطعه عن الجولان ، وتقييد للهمم ، وحبس للغرائز من المسابقة إلى الشرف ، ولا خير في اللبث على هذه الحالة)[2].

ويطول حديث المسعودي ، وهو حديث لا يملّ سامعه ، ينقلك عبر أجواء من الصفاء ، ويحلق بك في عالم (البادية) بين رمال الصحراء ، حيث لا أبنية تحصر الغذاء ، وتمنع اتساع الهواء ، وسكان (البادية) سكنوا من أجل ذلك البر الأفيح؛ الذي لا يخافون فيه من حصر ، ولا من منازلة ضر ، هذا مع ارتفاع الأفذاء ، وسماحة الأهواء ، واعتزال الوباء ، وتهذيب الحلال في هذه المواطن ، ونقاء القرائح في التنقل في المساكن ، وصحة الأمزجة ، وقوة

---

(١) مناهج: جمع منهج ، وهو الطريق المستقيم الواضح.

(٢) الألوسي - بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب- شرح وتصحيح وضبط: محمد بهجت الأثري -دار الكتب العلمية - لبنان ج ٣ ص ٤٣٢.

الفطنة ، وصفاء الألوان ، وصيانة الأجسام ، فإن العقول والآراء تتولد من حيث تولد الهواء ، وطبع الهواء الفضاء .

وفي هذا أمن من العاهات والأسقام ، والعلل والآلام ، فآثرت العرب سكنى البوادي ، والحلول في البيداء[1] .

ويوجد البدو الرعاة ، ذوو الدماء واللغة والثقافة العربية في شبه الجزيرة العربية عينها ، وفي بعض أرجاء إيران وتركستان السوفييتية وشمالي إفريقية والسودان .

وتختلف البداوة الرعوية عن الصيد وجمع الثمار عند البدائيين؛ في أنها نظام معقد لاستغلال الأرض غير الصالحة للزراعة ، فالرعي ينشأ بعد الزراعة ، ومن ثم ينتفع بالحيوانات المستأنسة، وهي الأغنام والماعز والبقر التي استأنسها الناس في العصور الحجرية الحديثة؛ باعتبارها عنصراً في المزيج بين الرعي والزراعة بغربي آسيا، والحمار الذي استؤنس للنقل في مستهل العصر البرونزي، والجمل والحصان والجاموسة التي استخدمت لأول مرة إبان العصور التاريخية[2] .

والمجتمع البدائي: قبائل تجمعها آصرة القربى ، والكل فيها أحرار في استغلال المصادر الطبيعية ، فيها القليل من التمايز الاجتماعي والتخصص ، ولكن هناك درجة عالية من المساواة الاجتماعية؛ لأن الدولة هي ما يميز المدينة عن المجتمع (القبلي) ، ولم يكن ظهور المدينة سوى التحول الكيفي؛ الذي طرأ على النظام الاجتماعي ، ولذا فإن التضاد بينها وبين القبيلة لا يتضح إذا اكتفينا بالإشارة إلى إحدى السمات البسيطة ، أو إلى عدد قليل منها ، فمن العبث أن نبحث عن اختراع حاسم يقع على الخط التطوري الفاصل بينهما . فالكتابة لا تصنع المدينة . صحيح أن البدائيين يُعْرَفُون عادة (بالشعوب قبل

---

(١) المرجع السابق (ملخص ما ذكره المسعودي).

(٢) انظر: مونكومري وات (البدو) ، دائرة المعارف الإسلامية ، ترجمة: لجنة دائرة المعارف الإسلامية ، إبراهيم خورشيد ، د. عبد الحميد يونس ، حسن عثمان - دار الكتاب اللبناني - بيروت - الطبعة الأولى ١٩٨١م- الكتاب رقم ٣ ص٩ و١٠ .

الكتابية) لكن الافتقار إلى الكتابة وحده ليس هو ما يميزهم[1].

وتمارس في الجزيرة العربية عدة (ضروب من البداوة)، ففي جبال القرى في ظفار على المحيط الهندي شعوب تتحدث بلغات سامية من مجموعة اللغات المهرية السقطرية، ترعى أنعاماً من ذوات الأسنام على الكلأ؛ الذي ينبت ويترعرع من سقوط الأمطار الغزيرة؛ التي تهطل بفعل الرياح الموسمية؛ التي تهب صيفاً.

وفي المناطق المزروعة من جنوبي العراق عائلات بعينها من الرعاة تربي قطعاناً من الجاموس، وتطلقها لترعى في الحقول بعد حصاد المحصول، أو في الأرض المراحة، ويعيش هؤلاء الناس في بيوت شبه أسطوانية تقام من حصير يشد على قوائم، ويمكنهم نقلها في المواسم إلى مسافات قصيرة.

وعلى أطراف الصحراء ـ وخاصة في المنطقة المجاورة للكويت ـ عشائر وقبائل بأسرها من رعاة الأغنام، يسوقون أنعامهم وماعزهم من مرعى إلى مرعى. وخارج هذه المنطقة في وسط الصحراء يرعى البدو الخلص[2] قطعانهم من الجمال، ظاعنين بها[3] إلى المناطق التي سقطت عليها الأمطار حديثاً في فصل الشتاء والربيع، ويحلون قرب ينابيع الماء الدائم في فصل الصيف.

وتعتمد هذه الضروب الأربعة من البداوة على الاحتياجات الوظيفية للجسم، والطاقات المختلفة للأنعام؛ التي ترعى الكلأ: فالماشية ذات الأسنام تحتاج إلى كلأ أخضر وماء كل يوم، أما قطعان الجاموس فتحتاج إلى جداول أو مصارف للرعي تتمرغ فيها وتنعم، وأما الأغنام والماعز فترعى الكلأ الذي جف جانباً من العام، وهي تسعى وئيداً، ولا تطيق أن يمنع عنها الماء أكثر من يوم

---

(١) انظر: أشلي مونتاغيور: البدائية، ترجمة: د. محمد عصفور - سلسلة عالم المعرفة - مايو ١٩٨٢ م ـ الكويت ـ ص ٢٩٤.

(٢) بدا: بَدْواً وبداء وبُدُوّاً وبَداءة له في أمر: خطر له فيه رأي. وبدا بَداوة وتبدى: خرج إلى البادية وأقام فيها فصار بدوياً. وتبادى: تشبه بأهل البادية. والبدو: سكان البادية من القبائل العربية الرحل، وهم ينقسمون إلى عدة قبائل. والنسبة إلى البدو: بدوي، والأنثى بدوية، والجمع بداوى.

(٣) ظعن: سار ورحل، ظعنوا عن ديارهم: أي: رحلوا عنها.

أو يومين)[1]. والقبائل العربية الأصيلة متجانسة متحدة، مثل: أرومة[2] واحدة، وبين أفرادها علاقات قوية. ويمكن لنا أن نقسم القبائل إلى هذه التصنيفات:

١ـ قبائل عربية ذات عصبية، ترجع إلى قحطان وعدنان.

٢ـ قبائل عربية ذات عصبية، لكنها لا ترجع إلى جد واحد.

٣ـ قبائل مجهولة النسب، والبعض يطلق عليها القبائل المتحيرة.

والنوع الأول: يفتخر بأصالته، وطيب محتده، ونبله، ولهم طباعهم المميزة، وعاداتهم الأصيلة.

أما النوع الثاني: فهي من القبائل الأصيلة، لكن الأب لهذه القبائل ليس واحداً، فهي مجموعة من العشائر المتحالفة؛ نظراً للظروف التي مرت بها هذه القبائل؛ مما دعاها إلى التكتل والاتحاد.

والنوع الثالث: لا يمكن أن نقطع في حقيقة نسبهم؛ لكونه غير معروف، فلا يمكن أن نرجعهم إلى قحطان وعدنان.

و القبائل ذات الأصل الواحد تتباين تبايناً كبيراً من حيث احتساب الأصل المشترك؛ الذي قد يكون من جهة الذكور فقط، أو من كلتا الجهتين معاً[3].

وهذه النظرة عابرة على تصنيف القبائل لم نتعرض لها تفصيلاً، فأبناء البادية[4] يعرفون مثل هذه الأمور، ويفهمونها عن ظهر قلب.

ويجدر بنا الإشارة هنا إلى أن القبائل؛ التي تحالفت قد تكون من أفخاذ اجتمعت وتضافرت، وتعاونت واتحدت؛ لتكون حلفاً واحداً، يطلق عليهم

---

(١) انظر: مونكومري وات (البدو)، دار الكتاب اللبناني. بيروت ص ١٢ وما بعدها.

(٢) الأرومة: أصل الشيء، والحسب.

(٣) انظر: أشلي مونتاغيور: البدائية - سلسلة عالم المعرفة - ترجمة: الدكتور محمد عصفور- الكويت - مايو - ١٩٨٢ م ص ٣٠٦.

(٤) البادية والبداوة: جمعها باديات، وبواد، أي: الصحراء، وهي خلاف الحضارة. والصحراء: جمعها: صحارى وصحارٍ وصحاري وصحراوات: الفضاء الواسع لا نبات فيه، ويسكن البدو الصحراء رغم قسوة مناخها، وصعوبة الحياة فيها.

ـ على سبيل المعرفة ـ اسم واحد يشتهر ، ويعرف ، ويتنادى الناس به .

والبدو في الصحراء لهم ثقافة محدودة ، وحياة رحبة ممدودة. وتدور الثقافة المادية للبدو على التنقل ، فالخيمة السوداء المصنوعة من شعر الماعز ذات نسيج فضفاض ، يسمح للهواء بأن يتخللها ، ومع ذلك فإن أليافها تنتفخ عندما تبتل؛ فتمنع المطر من اختراق جدران الخيمة .

وفي الصيف توفر لمن يقيم بها حماية من الظل المرغوب كثيراً ، وتفتح الخيمة من الجوانب لكي يتخللها النسيم. وفي الشتاء تكون دافئة بسبب إغلاق جانبيها ومؤخرتها .

وما لم تكن الخيمة من ذلك النوع الخاص من الخيام؛ التي تستعمل (دواوين) أو قاعات استقبال؛ فإنها تقسم بستارٍ إلى قسم للأسرة تشغله النساء والأولاد، وقسم للضيوف يستقبل فيه رب الأسرة أصدقاءه من الرجال .

وتصنع أدوات المطبخ من المعدن والخشب ، وإن كانت كل أسرة تمتلك عادة طَقْماً من أقداح القهوة الصغيرة المصنوعة من الصيني ، توضع في صندوق خشبي مُقَسَّم إلى خانات[1] .

ولقد أصبحت دراسة بيئة البادية من الأمور المهمة؛ التي تعنى بها الدراسات الحديثة؛ ذلك لأن دراسة البادية تتعلق بمشكلة (التصحر)[2]، وهي مشكلة من أخطر المشكلات البيئية، ولما كان التصحر مشكلة بيئية اقتصادية اجتماعية معقدة ومتداخلة؛ فإنه يمكن القول: إن هناك جملة عوامل طبيعية، وأخرى بشرية تتداخل وتتشابك في صنع هذه الظاهرة داخل المناطق الجافة ، وشبه الجافة .

المرجع : كتاب البدو والبادية

للباحث : خلف بن حديد

---

(١) انظر: مونكومري وات البدو ، دائرة المعارف الإسلامية رقم ٣ - ص ١٧٢١٦ .

(٢) انظر: د. زين عبد المقصود: مشكلة التصحر في العالم الإسلامي - سبتمبر ١٩٨٠ م - نشرة دورية محكمة تعنى بالبحوث الجغرافية ، يصدرها قسم الجغرافيا بجامعة الكويت رقم ٢١ ، والجمعية الجغرافية الكويتية ص ١٣ .

البدو في السعودية و مصر وسورية والأردن والإمارات والكويت و الحضر

البدو لفظ مشتق من البادية ، يطلق على سكان البادية الذين يسكنون الخيام ، ويعيشون على الرعي والتنقل من مكان لآخر طلباً للماء والكلأ .

الحياة:

يعيش البدو على الرعي بشكل أساسي ، وتجارة المواشي ، والمؤن ، ويربي البدو في شبه الجزيرة العربية الجمال وبعض الأغنام. والبدو منتشرون في أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية والصحراء السورية ، وغرب العراق وسيناء والأردن ، وفي الصحراء الشرقية والصحراء الغربية من شمال إفريقية. والحياة في الصحراء تتيح للبدو ممارسة نمط حياتهم التقليدي بعيداً عن مؤثرات التمدن .

تقاليد البدو:

استمد البدو عاداتهم وتقاليدهم وخصالهم من البيئة والظروف المحيطة بهم. ومن أهم هذه الخصال هي الشجاعة والكرم ، فطبيعة الصحراء الشاسعة القاحلة ، وما تكبده المسافر في رحلاته الطويلة ، وما يستدعيه ذلك من حمل ما يلزمه من الطعام والمياه ، خاصة إذا كان ترحُّله بدون راحلة مما يضطره إلى ارتياد أي نجع من النجوع ، عند نفاد الطعام أو الماء ، فيحلّ عليهم ضيفاً ، حيث يستقبلونه بكل الترحاب؛ إذ الكرم هو شيمة البدو .

إكرام الضيف:

يشتهر البدو بالكرم ، شأنهم في ذلك شأن باقي أهل البادية. وهم يتنافسون ، ويتسابقون في إكرام الضيف إذا حلّ بمجلسهم. وقد تصل المنافسة

إلى حد المشاجرة الكلامية للفوز بإقراء الضيف. وقد يصل بهم الأمر إلى حد اللجوء إلى (قاضي المجلس) ، وهو عادة ما يكون آخر من قام بإقراء الضيف السابق. فإذا حلَّ بمجلسهم ضيف يقدِّمون إليه القهوة واللبن أولاً ، ثم يلي ذلك تقديم الطعام. وتتناوب الخيام تقديم الطعام بعد ذلك ، كل في دوره حسب ترتيب البيوت. وإذا حدث أن كان رب البيت غائباً حينئذ تنوب عنه زوجته في تقديم واجب الضيافة. ويقيم الضيف طوال فترة تواجده في مجلس القبيلة أو العائلة المعدّ خصيصاً لذلك.

قص الأثر:

يشتهر البدو بقدرتهم الفائقة على قصّ الأثر ، كما هو شأن أهل البادية. وهم يجيدون قص الأثر سواء كان لرجل ، أو امرأة ، أو الإبل. ومنهم من ذاعت شهرته ، فيتم اللجوء إليه في الحالات المُلحة ، وبعضهم يتمكن بسهولة من تمييز ما يستدل من الأثر ، وهل كان يحمل شيئاً ثقيلاً أم خفيفاً أو لا يحمل شيئاً على الإطلاق ، وإذا كانت المرأة حاملاً أم غير حامل... إلخ. كما يستطيع العديد من أبناء سيناء اقتفاء أثر الحيوانات الضالة ، حتى يتمكنوا من العثور عليها، وقد ساعدت هذه المهارات في منع السرقات، واستتباب الأمن.

الصيد:

يعتبر الصيد من هوايات البدوي المحببة ، فمعظم أهل البادية مغرمون بالصيد ، وهم يخرجون في رحلات صيد قد تطول لعدة أيام ، يتوغلون فيها في جوف الصحراء ، وبعضهم له مهارات فائقة في صيد الغزلان ، والأرانب البرية ، وطيور الحبارى ، والسمان الذي يتوافد في فصل الخريف.

الزواج عند البدو:

يفضل البدو الزواج المبكر ، وعادة ما يتم الزواج من الأقارب. وأقرب قريبات الرجل التي يحل له الزواج منها هي ابنة عمه ، أو إحدى فتيات القبيلة ، وإذا رغب في غير ذلك ، فيتخير فتاته من الأنساب الكبيرة.

رمي الوجه:

هو الاستنجاد برجل من الوجهاء أو الشيوخ لمنع شر ، أو درء خطر ، أو خصومة بين شخص وآخر أو قبيلة وأخرى. فإذا هب رجلان أو قبيلتان للقتال ، وقال أحد الحضور: (رميت وجهي ، أو وجه فلان ، بينكما) كفّ الفريقان عن القتال فوراً.

لأن للوجه حرمة كبيرة عند عربنا. فإذا استمر الفريقان أو الشخصان في القتال بعد (رمي الوجه) قال صاحب الوجه: (فلان قطع وجهي) ودعاه إلى (المنشد) (القاضي). فإذا رفض ، أشهد عليه أربعة شهود ، وشرع في أخذ (الوثاقة) من إبله حتى يقبل الذهاب إلى (المنشد). ولابد للمنشد في هذه الحالة من فرض عقوبة على (قاطع الوجه). وتختلف هذه العقوبة حسب درجة ومكانة الشخص المقطوع وجهه.

القرآن الكريم:

في لغة البدو كلمة (عرب) تعني: قوماً. وفي القرآن الكريم يتم ذكر البدو باسم (الأعراب) أي: أقوام البوادي والصحارى، أو عرب البوادي والصحارى.

﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة: ٩٨].

يقول تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ ﴾ وهم سكان البادية ﴿ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ﴾ أي: يتخذون ما ينفقون في سبيل الله قربة يتقربون بها عند الله ، ويبتغون بذلك دعاء الرسول لهم ﴿ أَلَآ إِنَّهَا ﴾ أي: نفقاتهم ﴿ قُرْبَةٌ لَّهُمْ ﴾ تقربهم إلى حضرة ربهم ، ﴿ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ﴾ وعد من الله لهم بإحاطة الرحمة بهم ، وسيدخلهم في جنته التي هي محل رحمته ، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

* * *

الطفل والمرأة والعادات

منذ أن بدأ (الهجوم الريفي) على المدن العربية التي تضخمت ، وضاقت بساكنيها؛ بقيت البادية أسيرة التقاليد القديمة ، الجيد منها والطريف المفيد والضار ، وكلما حاولت التقدم غرزت أقدامها في رمال الصحراء ، وما أوسعها ، وكان لا بد هنا أن تمتد يد المدن إلى البادية ، تأخذ بيدها ، وتساعدها على التخلص من أساليب الحياة الصعبة ، وفي الوقت نفسه على تثبيت الخصال الجيدة في أرض الجذور العربية .

*** يقسم علماء المجتمع السكان إلى ثلاثة أقسام :**

ـ القسم الأول: سكان المدن ، وهم من ذوي التحضر ، والاستقرار ، والتجمعات الثابتة .

ـ أما القسم الثاني: فهم سكان القرى والأرياف ، وهم من القبائل نصف المتحضرة .

ـ أما القسم الثالث: فهم سكان الصحارى والبوادي والوهاد ، وهم من القبائل غير المتحضرة وغير المستقرة . ومن هذه الأخيرة (البادية) أجتزئ صوراً من عوالم الطفولة والأمومة التي عشتها ، وعايشتها شخصياً ، عساني أسوق لكم بعض مجاهل الطفولة والأمومة في البادية لما فيها من الطرافة .

تلد نساء البادية أطفالهن ، هكذا كيفما اتفق زمانياً ومكانياً ، حيث لا مستقر للبدو ، إلا بموقع معشب وفير المياه ، فالبدوية لا تحصي فترة حملها بالشهور بقدر ما تحصيه بالمواقع والمنازل ، أو بمواسم القطيع من جز الصوف ، وموسم السمن والجبن ، أو موسم توالد القطيع ، وما إلى ذلك .

ومن الطريف ذكره أنه حين تمحل الأرض، ويعم الجفاف يأتون بأربعة من النوق (الإبل) ، فينخونها إلى الأرض ، كل واحدة في اتجاه من الاتجاهات الأربع ، فيأتون إليها صباحاً يتحسسون جباهها؛ فإذا ما وجدوا على جبين

إحداها طلاً أو ندى؛ فإنهم يتوجهون نحو تلك الوجهة بقطعانهم طلباً للعشب والمياه.

عمل المرأة مضاعف:

وحينذاك تقوم النسوة بمشاركة الرجل في كل ما يمت للقطيع بصلة ، إضافة لواجباتها تجاه البيت والأطفال ، فتكون مهامها مضاعفة. فهي تستيقظ مع الفجر لتخضّ المشكاة ، ثم لتضع الصاج على النار لتجهيز خبز الإفطار بعدها تذهب لجمع أحطاب الشيح والقيصوم والسلماس والعرار. وما إلى ذلك فتعود بعدها لوقت (حلبة الضحى) حيث من المفترض أن تعدّ الغداء لمن يرعون القطيع من الرجال. وغالباً ما يكون الطعام من اللبن والتمر أو الدبس (العسل الأسود) ، وإذا كان الطعام ما يطهى على النار؛ فغالباً ما يكون من اللحم ، أو بعض نباتات وأعشاب البرية التي تؤكل نيئة ومطبوخة كالفطر والكمأة ، أو بعض الشوكيات والحشائش كالخبيزة مثلاً.

وأذكر ذات مرة أننا أكلنا بطون الجراد بعد طبخها بالسمن ، وكذلك لبيض القطا موسمه المشهود. وعلى المرأة أيضاً أن تقوم بجلب الماء من أماكن بعيدة على ظهور الدواب بالقِرَب ، أو بصفائح التنك من الغدران أو الينابيع أو الأنهار ، إضافة إلى هذا كله فهي مطالبة باستقبال الضيوف ، في أي وقت كان؛ إذا لم يكن صاحب البيت موجوداً.

مأساة الولادة:

والمرأة البدوية تعاني ما تعانيه حين الولادة ، حيث تقوم عجائز البادية بدور الطبيبة والقابلة والممرضة ، وما يرافق ذلك من عدم تعقيم أدوات الولادة ، والأساليب البدائية ، فبعد أن تقطع القابلة حبل سرة الطفل؛ تداوي الأم برماد الموقد.

كما أن البعض من نساء البادية يأتيهن الطلق والمخاض وهن في البرية وحدها ، ترعى القطيع ، أو تجمع الأحطاب؛ مما يضطرها إلى قطع حبل سرة طفلها بالفأس ، أو السكين ، أو بأي آلة حادة ، وكذلك يأبى البعض منهن إلا

أن يعدن إلى بيوتهن بحزمة الأحطاب التي جمعتها ، فتأتي حاملة احتطابها على ظهرها وطفلها بحضنها؛ مما يضطرها أحياناً إلى تمزيق أحد ثيابها لتلف به طفلها، وتربط حبل سرة طفلها بخيط الصوف ، أو خيط شعر الماعز ، وحين وصولها إلى بيتها حيث تستقبلها النسوة بالزغاريد والتبريك ، كما أنها مطالبة أن ترعى طفلها وبيتها بكل صمت وأناة دون أن تهجع إلى فترة النفاس أو الحضانة .

أما عن رضاعة الطفل في البداية فهي قائمة على الحليب الطبيعي ، حليب الأم الذي لا بديل سواه لدى أهل البادية ، وإن لم يكن في ثدي أمه الحليب الكافي ، ترضعه قريباتها أو جارتها أو إحدى نسوة الحي ، حيث تتجلى الرحمة الإنسانية بأجلى صورها ، وذلك بحكم مظاهر الطبيعة القاسية التي يتعرضون لها ، كما أن من عادة البداوة حين تكون المرأة في أيام النفاس أن تأتي كل نساء الحي للتبريك ، وكل يوم تحضر إحداهن صحناً مليئاً بالطعام يسمى (التقول) ، وغالباً ما يكون من اللحم ، أو البرغل ، أو اللحم الثريد ، أو حتى صحن من السمن والبيض تبعاً لحالة البدوي المادية .

تأثير الصحراء على الطفل:

وللبيئة الصحراوية تأثير إيجابي على نشأة الطفل فكرياً ومعنوياً رغم مساوئها ، فبعد أن يترعرع الطفل منطلقاً على سجيته يتلقى الفصاحة من مصادرها الأساسية ، وهي الصحراء ، حيث رحابة المكان ، وسعة الأفق ، والطبيعة البكر ، ومضارب القبيلة ، ووحوش البادية ، ومجالسة الرجال ، والاستماع إلى أحاديثهم وسيرهم وغزواتهم ، وشعراء البادية ، وما يتناقلون من أخبار الشعراء الجوالين ، والذين يحملون آلة العزف الوحيدة ، وهي الربابة ، وما يكتسبونه في مدح وجهاء القبائل وأخبارهم .

ولها أيضاً تأثير على المكونات الجسمانية للطفل حيث الإرضاع الطبيعي ، ومشتقات اللبن اللحم والتمر والسير مشياً على الأقدام مع قطعان الماشية ليلاً ونهاراً ، وهناك بعض الرياضات كسباق الخيل أو الحمير بالنسبة للأطفال ، ولعبة الحورة أو الكورة ، وسباق الإبل ، وكذلك بعض المصارعة الحرة بين طفلين أمام رجال القبيلة (المباطحة) أيضاً مواجهة طقس البادية وتقلباته ، وجهاً

لوجه بكل رحابة صدر ، حيث يتحمل الطفل هواء الطبيعة القاسية لا تقيه عوادي الطقس سوى خيمة مهلهلة مصنوعة من شعر الماعز ، أو صوف الأغنام .

تسمية الطفل:

لا يسمي أهل البادية أطفالهم إلا بعد مضي أسبوع من ولادتهم ، حيث يختلف الأمر تبعاً لتقاليد أسرية ، فمنهم من يطلق على الطفل اسم أكبر الأسرة سناً (الجد والجدة) ، وهناك من يرى مناماً فيسميه وفق ما رأى بالمنام ، وهناك من يسمون أولادهم على أسرة تمتاز بالحظوة والجاه والبعض بأسماء الأنبياء والأولياء والصالحين ، كما تلجأ أغلب قبائل البدو إلى اتباع حديث رسول الله ﷺ (خير الأسماء ما عبِّد وحمِّد) مثل أحمد ـ محمد ـ محمود ـ حامد ، وما إلى ذلك .

بيد أن أحب الأسماء إلى البداوة : تلك التي تنتهي بالألف والنون ، مثل : شعلان ـ حمدان ـ مليحان ـ بطيحان ، وما إلى ذلك .

تلجأ بعض الأمهات اللواتي لا ينجبن سوى البنات إلى تسمية مولودها الذكر على أسماء الحيوانات الضارية كالكلاب والوحوش ، مثل : ذيبان ـ ملحان ـ ضبعان ـ جروان . . . إلخ ، وما إلى ذلك لاعتقادهم بخرافات وتقاليد بالية ليس لها أساس من الصحة ، وحين تسألهم عن سبب تسمية أولادهم على أسماء الحيوانات ؛ فإنهم يجيبونك على الفور : (حتى يعيش) ويكون من أبناء السلامة !

أفراح الطهور:

وعند الطهور يجتمع أقارب الطفل وأهل الحي ، ويعمدون إلى جعل هذا الحفل متميزاً ، حيث يذبح أهل الطفل الخراف ، وتعقد الدبكة أو الدحة ، وتنطلق زغاريد النسوة ، بينما أهل الطفل داخل البيت مع المطهر ؛ أو ما يسمى بالعباسي ، وهو الرجل الذي احترف هذه المهنة عن جداته ، وعلى الأغلب يكون من سلالة العباس بن أبي طالب ؛ فيضعون طفلهم في حضن أحد الأتقياء أو ذوي الحظوة والجاه تيمناً أو تبريكاً ، فيرددون الصلاة على النبي ، بينما العباسي يردد مدائح دينية على الأغلب لا أحد يفهم ما يقول ، لكنهم يرددون

بين الفينة والأخرى الصلاة على الرسول ﷺ ، وخارج الخيمة تستمر الأفراح عامرة تمتد إلى بضعة أيام ، وبعض الأحيان يقام فيها سباق خيول إذا كان ابن أحد الوجهاء ، أما لهذا المناسبة من أثر كذلك يلجأ البعض إلى تعليق قماشة بيضاء أو خضراء فوق الخيمة؛ دلالة على طهور أو نذر .

النذور وقص الشعر:

بالنسبة للنذور فهي كثيرة ، ويستدل الناس على أن البيت الفلاني لديهم نذر أو طهور ، ولذلك يعمد أهل الطفل إلى رفع عمود فوق الخيمة تعلق بأعلاه قطعة قماش خضراء أو بيضاء نذراً لوجه الله ، أو لأحد الأولياء ، وذلك لشفاء ولدهم من مرض لا يعرفون سببه ، أو لحسد لكثرة الأولاد ، أو لعين أصابته لجماله ، وما شابه ذلك من المعتقدات حيث يلجؤون إلى الأتقياء والصالحين ، حيث يضعون القرآن الكريم قربه؛ فيبدأ الرجل الصالح ، ويدعى (السيد) فيبدأ يتمتم بالآيات والأحاديث والمدائح ، أو كأن يقرأ له أدعية على طاسة ماء فيشربها الطفل ، عند ذلك تصبح قناعة أكيدة عند أهل الطفل أن ولدهم سوف يشفى من بكائه المستمر ، أو من أحد الأمراض المذكورة آنفاً ، كذلك الرقى والتمائم والأحجية التي يصنعها له السيد أو يلجؤون لمعالجة الطفل بالطب العربي ، والبعض ينذر ما يسمى بعيش فاطمة ، وهو عبارة عن البرغل المغطى بالسمن ، فيطعم منه كل أهل الحي .

نأتي بعد ذلك إلى عادة قص الشعر للطفل ، وتكون عادة بعد ظهور الهلال ، فيقال: هللوه ، أي: قصوا شعره ، فاليوم بداية ظهور الهلال ، وبعد أن يقص الشعر يرمى على وبر الناقة؛ ظناً منهم أن سيطول بسرعة ، ثم يعرضون رؤوس الأطفال المحلوقة على شكل قرعة إلى المطر حتى تطول شعورهم ، وهم يغنون:

طلعت الشميسة على قرعة عيسى عيسى بالمدينة يأكل جبنة وتينة

وبالنسبة للغسل: ففي نهاية الأسبوع الأول يغسل جسم الطفل بالماء والملح ، بعد أن يكون قد دهن كل يوم تقريباً منذ ولاته حتى نهاية اليوم السابع بالزيت ، وحينما يكبر الطفل فيغسل بالشنان ، وهو من الشجر البري ، يضاف

إليه نوع من التراب ، فيعجن به ، ويقطع على شكل ألواح يغسل بها جسم الطفل وشعره ، كذلك هناك من يغسلون رؤوس أطفالهم بزيت الكاز لقتل جرثومة القمل وفق معلوماتهم ، أو كأن يوضع على شعره وجسمه من بودرة قتل جراثيم الأغنام ، ولطالما أودت هاتان المادتان السامتان بحياة العديد من أطفال البدو . مع الأسف الشديد .

كما أن القبيلة في البادية تهتم بتربية أطفالها تربية قاسية منذ بلوغهم العاشرة من العمر تقريباً ، فيتم تدريبهم على ركوب الخيل والمصارعة ، ولعبة الحورة ، والتي تشبه لعبة فريق كرة القدم ، لكن الكرة مصنوعة من خشب السنديان المتين ، وتلعب بواسطة العصي ، كذلك يعلمونهم منذ الطفولة على فن إطلاق النار ، وسباق الخيل .

أما عن لعبة الحورة هذه؛ فلها تقاليد صارمة ، حيث إن من يصاب بتلك الكرة الخشبية المتينة ، فتكسر رجله ، أو تقع عينه ، فلا يطالب أهله بتعويض؛ إلا إذا اتضح أن الإصابة مقصودة بين أحد الفريقين ، حيث يكون ملعبها المسافة التي تصل المضارب هذه من تلك؛ حتى ولو امتدت بضعة كيلو مترات في الصحراء ، وخاصة في فصل الربيع ، فحين يصل أحد الفريقين بالكرة إلى مضارب الفريق الثاني ، يتحقق الفوز . ويجدون لهذه اللعبة في البادية متعة؛ خاصة جيل الشباب في فصل الربيع .

بقي أن أقول : إن البادية بقيت حتى وقت متأخر منطقة شبه معزولة ، وذلك لأسباب عديدة ، أهمها : وعورة المسالك ، وترامي أطرافها ، واتساع مساحاتها ، لكن هناك اهتمام وسعي حثيث من الحكومات وبعض مجاهل البوادي ، فعقدت مؤتمرات هامة ، أهمها مؤتمر وقف التصحر ، وأقيمت ندوات هامة تخص البادية ، وتحريجها ، وتخصيص قسم منها كمناطق رعوية ، وعدم فلاحتها ومدهم بالآبار الارتوازية ، وشق الطرق ، وتوطين بعض قبائل البادية ، وإيصال المياه الحلوة إليهم بواسطة صهاريج ضخمة ، وإنشاء المدارس المتنقلة ، وما إلى ذلك من الجهود التي من شأنها رفع الستار السميك من على البوادي؛ بهدف إبراز الإيجابيات ، والقضاء على السلبيات .

سالفة وقصيدة عن حب البدو وحياة البادية

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمه الله وبركاته

اليوم جبت لكم سالفة وقصيـدة منقولة ، أتمنى أنها تعجبكم.

يقولون: كان فيه واحد حضري (من أبناء المدن) معطيه الله من الخير الشيء الكثير ، ويعمل بالتجارة ، ويتعامل مع البدو (سكان البادية الرحل) ، وكان يديّنهم ، وأحياناً يسافر للبادية يبيع بضاعته ، ويجمع ماله من ديون عند بعضهم. وفي أحد المرات شاف بنت من بنات البدو ، وعشقها ، وتعلق قلبه بها. ولأنه ابن أصل ، وعزيز عليهم ، وصاحب مال وكرم؛ زوجوه عندما خطبها ، وبذل لها النفس والنفيس ، وأسكنها بقصر جميل ، وأكرمها كرماً بالغاً. ووفر لها كل ما تحلم به امرأة من طيب العيش والمسكن. ولكن هيهات أن يطيب العيش بالمدن والقصور لمن ألفت الصحراء وجوّها.

وصارت هالبدويـة تحن لعيشتها قبل؛ حيث إنها ترى أن حياه البادية هي الحياة الحقيقية ، وإن ماسواها ليست بحياة. وما عادت تصبر على هالجدران والأبواب المسكرة ، وهي اللي متعودة على بيت الشعر. والشوف على مد النظر.

ومرة من المرات هاضت عبايرها ، وقالت هالقصيـدة:

يـامـن لقلـب كـن فـي داخلـه نـار ... نـار لهـا بمصلفقـات الهبـايـب

عسـى وطنهـم مـا تسقيـه الأمطـار ... حطـون فيهـا والـراس شـايـب

صكـو عليـه بيـن ضلعـان وجـدار ... مثـل الـربيـط اللـي بعيـد القـرايـب

يامن يدني لي من الزمل مذعار ... اشقـح مـن القعـدان مشيـه نهـايـب

أبـا انحـر دار شبـابـة النـار ... عمـي وابـويـه نـاطحيـن النـوايـب

طبعاً زوجها يوم سمع بالقصيدة والأبيات. أيقن أنها لن تطيق صبراً عن البادية وعن أهلها وربعها ، فاشترى لها المطية التي تتمناها ، وكل ما ترغب من حلي وكسوة ، ورحل بها معيدها لأهلها معززة مكرمة.

* * *

البدانة والنحافة في الموروث الشعبي

الناقة والغزالة والنظرة الحسية نحوهما

كان الناس في الماضي يميلون إلى الضخامة في كل عضو من أعضاء المرأة. يفضلون ذوات الأرداف الكبيرة، ويقيمون في الأسواق مباريات لاختيار ما نطلق عليه اليوم اسم: ملكات الجمال.

وكانت الفائزة هي التي تملك ردفين أكبر وأضخم من سواها، حتى ليقال عنها: (فلانة بزت نساء العالمين بالسبب) والسبب: هو الحبل الذي كانت المتباريات يلففنه حول أردافهن. فمن كان حبلها أطول كان قياس ردفيها أوسع، فكانت بالتالي في نظرهم أجمل، وكذلك كانت الحال في فرنسا في القرن الخامس العاشر، والسر في ذلك هو الرغبة في إيجاد تناسب واتساق مع باقي أعضاء الجسم؛ التي كانت الأكثرية تفضلها ضخمة وكبيرة، وكذلك تبارى الشعراء العرب في وصف الأرداف الكبيرة والتغزل بها، كقول الشاعر:

إذا تمشي تأود جانباها ... وكاد الخصر ينخزل انخزالا
تنوه بها روادفها إذا ما ... وشاحها على المتنين جالا

وكقول أعشى همذان:

ثقلت روادفها ومال بخصرها ... كفل كما مال النقا المتقصف

حتى إن العرب كانوا يشبهون المرأة البدينة بالناقة، وخاصة الناقة ذات السنامين، مع العلم أن العرب لم يعرفوا هذا النوع من النياق، إلا في فترة متأخرة (عصر الفتوحات الإسلامية).

الناقة ذات السنامين: نوع من أنواع الإبل، موطنها الأصلي آسيا الصغرى (تركستان)، وتمتاز عن إبل إفريقية والجزيرة العربية بأن لها سنامين، كما تمتاز بقصر القوائم، والوبر الكثيف، بيد أن إبل إفريقية والجزيرة لها سنام

واحد ، ووبر قصير يغطي جلودها ، وكأن الله ـ سبحانه تعالى ـ جعل من هذه سفينة الصحراء ، وتلك سفينة الجبال ، واجتياز وعورة المسالك الجبلية .

دخل هذا الحيوان الأرض العربية عن طريق بعض الغزوات ، أو في عصور ازدهار التجارة العربية عبر التخوم الشمالية والشرقية للوطن العربي ، ويكاد يكون أول من اقتناها من زعماء القبائل العربية؛ أولئك الذين يقطنون الثغور والتخوم العربية في الشمال والشرق كقبائل قيس وتغلب ووائل وطيئ وغيرها من القبائل العربية المتواجدة هناك ، حيث يقتنيها هؤلاء الزعماء للمباهاة والزينة وراحة المركب ، لوجود سنامين لها ، كذلك لسهولة تركيب الهوادج التي تحمل نساء زعماء القبائل عليها ، ويطلق على الناقة ذات السنامين بالعامية تسمية (المايَة) ، وهنا جاء تشبيه البداوة للمرأة البدينة بالمايَة ، والمرأة النحيفة إن لم تثقل بالرقيقة الرشيقة بالغزالة .

أما موضوع تشبيه الإنسان بالحيوان فهو أمر ممجوج لدى الحضر؛ بيد أنه مستساغ وارد لدى البداوة ، وأغلبنا يذكر قصة الأعرابي الذي مدح أحد الأمراء؛ إذ شبهه بالتيس في قراعة الأحداث ، وبالحمار في الصبر والجلد ، وما هنالك من أوصاف للحيوانات ، فقام أحد حراس الأمير ليضرب عنقه؛ إذ اعتبره يشتم أميره ، وهنا اعترض الأمير قائـلاً لحارسه: إنه مدحني بأفضل ما في بيئته الصحراوية ، من هنا جاء وصف البداوة ، وتشبيههم للإنسان بالحيوان .

وكذلك حين يشبه البدوي المرأة البدينة بالناقة ذات السنامين ، والمرأة الرقيقة الرشيقة بالغزالة ، فهو أمر وارد أيضاً ، وإنه من وجهة نظر نفسية حسية بحتة بالنسبة لتشبيه البدوي المرأة بالناقة لضخامة منكبها وردفيها ، وهذه النظرة الفطرية في السيكولوجية الحسية لدى البدوي هي تبعاً لموجودات البيئة أولاً ، وفطرية ثانياً ، حيث لم يرتق سلوكه الحسي إلى أن يشبه الأنثى بالوردة ، أو بعود البان ، أو بعود الريحان ، إنما هذه التشبيهات موجودة لدى الحضر تبعاً لبيئتهم: حدائق ـ بساتين ـ ورود ـ زهور . . . . إلخ .

ولعل نساء البادية أغلبهن نحيفات العود ، ممشوقات القوام ، ولسن سماناً بدينات ، وهذا يعود إلى البيئة الصحراوية؛ حرارة لاهبة ، وشظف عيش ، وكذلك تبعاً للغذاء الذي أغلبه التمر واللبن.

بيد أن رجال البادية هم أميل للنساء البدينات منهن إلى النحيفات ذوات القدّ الممشوق؛ لأنهم هم أيضاً نحاف العود سمر الوجوه ، وهذا ما وجدناه من ميل العرب في عصر الفتوحات، وما تلاه إلى التزاوج مع الشعوب الأخرى، وخاصة المجاورة كالفرس مثلاً، وهذا شأنهم في الحضر والبادية، وهذا بالنسبة لرجال البادية والحضر على حد سواء في الأرض العربية. وأنطلق من مقولتين:

* **الأولى**: (كل ممنوع مرغوب) حيث كانت هناك موانع الطبيعة ، وتباعد المسافات تمنع من تزاوج العرب مع غيرهم من الشعوب ، وخاصة البادية ، ويكاد يكون هناك سبب آخر هو استعلاء وعرقية وعنصرية الشعوب المجاورة الأخرى عليهم ، حتى جاء الإسلام لتسود التقوى على الألوان والأجناس.

* **المقولة الثانية**: (فاقد الشيء لا يعطيه) فالعربي هو من حيث اللون أسمر حنطي ، فهو أي: الإنسان الحضري أو البدوي العربي أميل إلى البيضاوات؛ إن لم نقل الشقراوات اللدنات ، أي: الممتلئات شحماً ولحماً؛ لأنه لا يتهيأ له في بيئته سوى السمراوات النحيفات؛ إن لم نقل هيفاوات القد ، ممشوقات القوام ، بيد أن بعضهم أميل لهذه الأخيرة ، حيث يشبهها بالغزالة ، تلك الهيفاء الفرعاء ، فهي أشبه بالغزالة: (هيفاءُ فرعاءُ مصقول ترائبها).

الغزال ذلك الحيوان الناعم الرقيق الرشيق ، ولطالما استحوذ هذا النوع من الجمال على الكثير منهم ، وله أمثلة كثيرة في شعر الشعراء العرب في الحواضر والبوادي في الشعر النبطي والفصيح ، ولا أدري فالمفارقات بين هذين الحيوانين: الناقة ذات السنامين والغزالة كبيرة ، فالأولى تمتاز بضخامة الجسم ، بينما الغزالة تمتاز بنحافة العود؛ إن لم نقل رشاقة وحيوية ، فالأولى دخلت إلى بلاد العرب ـ أي: الناقة ذات السنامين ـ من بلاد فارس وآسيا الصغرى (تركستان) وهضبة التبت عن طريق الحروب والغزوات أو التجارة مع القوافل ، أما الغزالة فهي حيوان المنطقة العربية ، حيث تصطاد اصطياداً

واقتناصاً ، وتستخدم للطعام والزينة ، حيث توضع بمكان يتمتع الناس فيه بمنظرها الجميل ، برشاقة جسمها ، وتقاطيع وجهها ، وفي حفيظة أنفسهم يستذكرون بمرآها حسان القبائل وجميلاتها ، وكل واحد منهم يستذكر من خلالها صورة حبيبته . هذا إن كانت مياسة القد ، موردة الخد ، كحيلة العينين ، أما من حيث نحافة العود ، فهذا شاعر بدوي يصف حبيبته (منسية) بقوله :

يا منسية كيف أوصف على طولك عـود حـور نـابـت بطـرف الـزويـة

ويأتي آخر يصف حبيبته (صالحة) بعيون الغزال قائلاً :

يـــا صـــالحـــة يـــا أم دواره عيـــن الغـــزيّـــل ليـــا سجـــي
أنـــت مـــن البيـــض قمـــاره قهـــارة الـــذود ليـــا هجـــي

ومنها قولهم الغناء :

يـــا ريـــم وادي ثقيـــف لطيـــف جسمـــك لطيـــف
ما شفت أنا لك وصيف . . . إلخ (الأغنية)

أما حينما يرى البدوي الناقة ذات السنامين؛ فإنه يستحضر صورة امرأة سمينة بدينة تروي له عطشه الجنسي ، مع أن الإسلام أجاز للمسلم الزواج بأكثر من واحدة؛ كيلا تصبح المرأة هاجسه المكبوت .

ودخل اسم الناقة ذات السنامين المنطقة الشمالية الشرقية من الوطن العربي ، حيث سمي هذا الحيوان بالماية ، والماية هذه دخلت التغزل في الغناء الشعبي ، حيث يقول مطلع إحدى الأغنيات :

عـــل المـــايـــة عـــل المـــايـــة عـــل عيـــن يـــا مـــلايـــة
يـــا حلـــوة بـــالله اسقينـــي عطشـــان أعطينـــي مـــايـــة

وراحت الماية (بتضخيم الميم) مضرباً للأمثال : فلانة مثل ماية شيخ طيئ ، بمعنى أنها بدينة المنكبين والأرداف ، وهذه من الصفات المحببة والمرغوبة لدى رجال البادية ، وما زال البدوي حتى يومنا أميل للنساء البدينات ، وأقصد بالذكر ـ على سبيل المثال وليس الحصر ـ بدو الجزيرة العربية والخليج؛ إذ إنهم ، بل أغلبهم لا يميلون إلى النساء ذوات الأجسام الرقيقة الرشيقة ، كما هي الحال عند الحضر ، أو بمعنى أدق إلى ذوات الجسم (السامبتيك) وفق

المصطلح الأجنبي والدارج لدى عامية الحضر ، ولا أدري إن كانت هي حالة نفسية بحتة ، بمعنى أن الرجل النحيف يرغب بالمرأة السمينة (البدينة) لإرضاء نزواته الغريزية الحسية ، والعكس صحيح بالنسبة للرجل البدين ، وخاصة في سيكولوجيا البدوي ، وغريزته الحسية .

أما عن النساء السمان والنحاف؛ فهذا الشاعر توفيق زياد يقول في قصيدة له استقاها من التراث الغنائي الشعبي الفلسطيني ، حيث يقول :

اسمعوا زوج الطويلة ما حكى عنها وقال :
هي كالرمح الرديني في يدي عنتر مال
اسمعوا زوج السمينة ما حكى عنها وقال :
كيفما ملت ليونة أو عصرت الدهن سال

أما عن الزوجة النحيفة ، فيقول :

اسمعوا زوج النحيفة ما حكى عنها وقال :
هبة الريح الخفيفة حملتها نصف ميل

* * *

السليل (قصة مذكرات)

الإهداء: إلى: (عمرو بن معدي كرب الزبيدي) سليل المجد، والنخوة العربية.

كان من عادة وجهاء القبائل في البادية أن يرسلوا أطفالهم إلى المراضع بعد الأسبوع الأول من أعمارهم، وذلك كيلا يعانوا مع أطفالهم هموم الطفولة ومتاعبها، ولكيلا تشيخ نساؤهم باكراً، فتترهل أجسادهن ووجوههن، وعادة يكون أجر المراضع بعض المؤونة من قمح ودقيق وبعض الثياب مقابل رضاعة وخدمة الوليد بضع سنين، قد تمتد عشر أو اثنتي عشرة سنة؛ بعدها يعتاد الطفل على بيئة متناقضة تماماً فيها المفارقات الكبيرة، أهمها أنه يعود إلى بيت الوجاهة والدسم.

وحكايتي تبدأ: منذ ولادتي ولا أدري إن كان سوء حظي، أو حسن طالعي أن أكون أحد أولئك الذين أوكِلَ أمرهم منذ الساعات الأولى للولادة إلى المراضع، حيث بقيت عشرة أعوام عشت خلالها شظف العيش، وقساوة الحياة في خيمة مهلهلة، مصنوعة من شعر الماعز وسط البرية بين الأودية والشعاب، مع بعض النعاج الهزيلة، حيث كنت أرعى الحملان (الخراف الصغيرة)، لكني ما زلت أذكر ولا أنسى ما عشت حياً، ذلك الحنان الدفاق، والفيض الحليبي الصافي.

هذا وإنني إزاء ذلك كله ما زال حنيني إلى نوم هادئ وعميق على سرير من أحطاب الشيح والقيصوم والسلماس[1]... وسلام على فراش السلماس الناعم والمصنوع من خِرَقٍ وأسمال بالية ووسادة محشوة بنخالة البرغل، ومازال ثغاء الخراف الصغيرة المربوطة بحبل صغير تؤنسني بثغائها كسمفونية

(١) السلماس: إحدى نباتات البرية في الجزيرة السورية.

منقطعة النظير. كذلك مازال حنيني إلى صحن نبات الخبيز الأخضر؛ حيث كانت مرضعتي تضع نصفه على دملة في قدمي؛ إثر كزاز أصابها، حيث يستعمل على شكل طب عربي يسمى (اللبيخة)[1]، فكان نصفها لقدمي والنصف الآخر لخواء معدتي الجائعة، بيد أن أهلي لا يعلمون عني شيئاً، فالصحون الكبيرة، أو ما يسمى (المناسف) تمتد على امتداد تسع شقق متصل بعضها ببعض، تسمى المضافة؛ التي تبلغ تسعاً من الشقق، ويسمى هذا البيت من الشعر (المتوسع) لتواصل تسع شقق بعضها ببعض، وكل صينية كان يحملها من ستة إلى اثني عشر رجلاً مملوءة بالأرز واللحم، بحيث إنك لا ترى من هو أمامك، وكأن أمامك تلة من الأرز واللحم الضأن، حتى إنه وبعد أن يشبع فقراء القبيلة تعافها حتى الكلاب من الشبع.

كل الذي أذكره أن مرضعتي كانت تقول لي: اذهب يا صغيري واجلب لنا بعض اللحم؛ إلا أن حبي وولائي كان لمرضعتي أشد وأقوى؛ لذلك كنت أتحايل عليها بأن (نبات الخبيز) أشهى طعاماً من الأرز واللحم.

كل ذلك لأنني أخشى أن يبقوني عندهم في مضاربهم؛ رغم النعيم والنعومة والنظافة والوجاهة والدسم الدائم؛ إلا أن كل هذا كان مثار كره لي، بل كنت أردد لمرضعتي: اعلمي يا أمي أن طعامك ومهما كان خشناً وقليلاً أحب إلى قلبي ومعدتي من كل خيرات، ونِعَم الشيوخ وولائمهم.

بعد كل هذا العناء والجوع والشقاء كنت أؤثر وأفضل البقاء بين هؤلاء الناس البسطاء الطيبين حتى آخر يوم في عمري، حيث فطرت على تلك الحياة التي كانت بالنسبة لي رمزاً للحرية والانعتاق، وتدريجياً بدأت أشعر بالخوف، كما بدأت أشعر بتقرب مجتمع المشيخة مني عسى أن أعود إلى مضارب الغنى والجاه والحظوة، تاركاً ورائي الخيمة المهلهلة، والطعام اليسير، وبدأت أشعر بالخوف من هذه البيئة الغريبة عني شكلاً ومضموناً.

عند هذا الوعي بدأ عودي يذوي وينحل جسمي، وبدأت بثور ودمامل تطفح

---

(١) اللبيخة: هي كمادات من عشبة الخبيز المطبوخ.

على وجهي غيظاً وحنقاً وكمداً على مفارقة أهلي ، ومرضعتي ، وأصدقاء طفولتي.

وأذكر أنهم حاولوا إعادتي بواسطة الحجب والرقى والتمائم عندما يسمى (بالسياد) ، أو رجال الدين (المشايخ) ، والذين يسمون بالملالي آنذاك ، ولكن إبعادي عن مرضعتي إنما هو نفي لي ، وحكم بالإعدام عليّ؛ لأني ومهما بلغت من العمر ، والمال ، والجاه؛ فلن أستطيع أن أرد لها سهرها وتعبها عليَّ طيلة سنوات تسع أو عشر ، وخاصة حين مرضت في أذني ، فكانت تقوم بعصر ماء الفجل كطب عربي لتقطره في أذني ، ووضع بعض الزيوت ، فكم كان ألماً مبرحاً وقيحاً وصديداً يخرج من أذني طيلة أسبوع كامل بعد هذه السنوات التسع أو العشر؛ حدثت تطورات كبيرة ، حيث في الصيف يحملون بيتهم باتجاه نهر الخابور على ظهر الدواب ، وذلك لاستقرار شكلي ، بل هو موسمي مرتبط بموسم الذرة البيضاء والقمح على ضفاف نهر الخابور ، حيث من الذرة البيضاء تصنع أكلة شهية ومعروفة لدى أهل المنطقة عموماً ، تدعى بـ (القرصة) أو (العصيدة) توصف للمرضى بعض الأحيان آنذاك؛ إذ إنهم حين استقرارهم يبنون بيوتاً من الطين ، وتسقف بالقش والصفصاف وعيدان القصب والزل تسمى (السيباط)[1].

لطالما حدثت لي تحولات شخصية وتبدلات نفسية على نشاطي المدرسي ، وخصوصاً في الصفوف الابتدائية؛ فبعد أن كنت من المتفوقين ، ولكن بعد شعوري بأن أهلي الشيوخ يريدون استرجاعي واسترضائي بأي شكل كان؛ كي أتقبل العودة إليهم إلى بيئتهم المترفة جاهدين في إقناعي بعد ذلك بدأ نشاطي المدرسي يتراجع إثر محاولتهم التحايل عليّ ، وهنا تكمن المحنة الأعظم في سيرة طفولتي. وذات ظهيرة قيظ لاهبة ، وبينما الناس الريفيون البسطاء من أهلي بالرضاعة يشتغلون بزراعة القطن في بداياته بالجزيرة السورية ، بينما البيوت الطينية خالية من أهلها والفلاحون في بدايات استقرارهم من حالة الصحراء والبداوة إلى الاشتغال بالفلاحة؛ بينما أنا في هذا

---

(١) السيباط: منزل مبني من الطين (اللبن) وسقفه أغصان الأشجار والقصب أو الزل.

الحال كنت وحدي في البيت ، وإذ برجل أعرابي يمتطي فرساً شقراء ، فربط الفرس قرب بيت أهلي بالرضاعة. دخل وسألني وكأنه يعرفني منذ زمنٍ بعيد؛ ففهمت أنه واحد من رجال الشيوخ جاء ليأخذني عندها توجست منه خيفةً. حاول تهدئتي مقنعاً إياي بأن أهلك اشتروا لك ألبسة زاهية وحذاءً لماعاً فيه ضوء يشتعل. وكذا وكذا ، بل صور لي بيئة الشيوخ هي الجنة الفردوسية بحد ذاتها ، وبينما هو يسرد لي القصص المزوقة والمنمقة حاولت الهرب باتجاه حقل أهلي من الرضاعة؛ لكنه أمسك بي ، ولفني بعباءته الحمراء ، وأردفني الفرس وأنا أبكي بكاءً مراً ومسموعاً ، ولكن بلا جدوى ، وبعد أن ابتعد قليلاً عن القرية أسرع في هرولة الفرس؛ مما جعلني أحسُّ بأن أمعائي تتقطع ، ومع ذلك حاولت أن أنظر من فتحة أكمام العباءة كي أستدل على الطريق؛ لأني مُصر ومصمم على العودة مهما كانت الظروف والأحوال أنه خطف مريع بالنسبة لي ، حيث لم يراني أحد من القرية ، فكلهم في الحقول ، وبعد مدة أكاد أحصيها بالأيام بالشهور بالليالي. هي مسافة الطريق بين القريتين ، وحين وصولي استقبلتني أمي الحقيقية (والدتي) ، وبعض الأطفال وهم يستغربون من هيئتي ولباسي كيف أكون قريبهم ، بيد أني بهيئتي ولباسي أشبه بأبناء الفلاحين ، ولو كان على وجهي مسحة من البياض وعلى شعري لمسة من الاشقرار ، وسرعان ما بادرت أمي ، وألبستني حذاءً جديداً لماعاً أشبه بما حدثني عنه الرجل؛ الذي خطفني ، حيث روى لي قصة عن هذا الحذاء أشبه بحكايات الخرافات والأساطير أدخلوني بعد ذلك إلى غرفة من طين مصبوغة بالكلس الأبيض ، ومطلية بالجص المصنوع من روث الحيوانات المحروق ، ثم ألبسوني ثياباً نظيفة.

يا الله. يا للغرف الكثيرة ، والأطعمة الوفيرة ، والوجوه النظيفة ، والخدم والحشم ، ولكنه جو مهيب لا يوحي لي بالحرية والانعتاق. إن كل هذه الأجواء لا تعجبني فالاحترام الشديد والوقار المهيب لا تستطيع النسوة أن يأكلن أمام الأقارب من الرجال ، عالم متداخل من الأبهة تشبه التعظيم ، فأين أنت يا أمي؟ أعني: مرضعتي أيام مليئة بالبساطة خالية من التعقيد ، كانت الأيام التي

عشتها بين هؤلاء جواً من الوجاهة والرسميات القبلية أشبه بتقديس الأصنام كانت الحياة عندهم تمشي بكل بطء عليّ؛ مما يسبب الشقاء لي أنا في ديار النعمة؛ مما سبب لي بعض الإرهاقات النفسية ، وبثوراً على وجهي وجسمي (دمامل)؛ لدرجة أنهم حاولوا أن ينسوني مراضعي بسبب الرقى والحجب والتعويذات عند رجال الدين ، لكن عبثاً يحاولون. ولكني لم أنس حنان وعطف مرضعتي وانعتاقي وحريتي ولهفتي واشتياقي لعالم طفولتي بعد خيمة الشعر؛ ذلك القبر الطيني ، ووسادة محشوة بنخالة البرغل ، وسرير من نبات السلماس.

نعم أنا الآن محاط بالعبيد والخدم والحشم؛ المكلفين بمراقبتي؛ لئلا أهرب فأعود إلى مراضعي. إزاء ذلك وبكل ذكاء فطري دِستُ على عواطفي مقنعاً إياهم بعدم عودتي ، وما هي إلا أيام حتى خفت المراقبة عليَّ. وبعد أيام جاء يوم شديد القيظ ، وبينما الناس في الحصاد كان شيوخ القبيلة ووجهاؤها ينامون أثناء القيلولة ، فتجولت حول المضافة ، وحول الغرف الطينية لبقية مجمع أسرة الوجاهة عدة جولات للاطمئنان عند ذلك اعترتني سعادة غامرة ، فعضضت طرف ثوبي من الأمام ، ونزعت حذائي ، وأطلقت ساقي للريح نحو قرية أهلي للرضاعة؛ حيث كنت قد وضعت لنفسي شبه نقاط علام؛ كيلا أتوه عن الطريق إلى قريتهم التي اختطفني منها ذاك الرجل يوماً ما.

أهم نقطة علام كانت مئذنة لجامع تتوسط هاتين القريتين ، وبعد فترة أكاد أحصيها بنصف ساعة تقريباً وصلت إلى ذلك الجامع ، وأنا ألهث من شدة العطش ، والعرق يتصبب ، وكان في ظله جرة ماء يشرب منها عابرو السبيل ، حيث شربت منها حتى ارتويت ، وبعد لحظات أطلت عجوز من بيت ملاصق للجامع ، فأقبلت نحوي ، وكأنها تعرفني من أمد بعيد ، فسألتني: ألست ابن فلان؟! فقلت: بلى ، وكان التعب والإرهاق بادياً على وجهي. ضمتني إلى صدرها ، وتقول: يا بن الغالية ، وكانت من أخوال والدتي الحقيقية ، وحين رأيت شيئاً من الحنان ، قلت لها: إن أمي أرسلتني إليكم كي توصلوني بسيارتكم إلى مراضعي في القرية المجاورة ، وسرعان ما جاءت سيارة ذات

لون أصفر (وانيت) وهي تنهب الأرض نهباً؛ فوقفت بالقرب من الطريق ، وأشارت للسيارة ، وكانت لمزارعهم ، فتوقفت السيارة ، وأوصت السائق بإيصالي إلى القرية بالذات ، وفعلاً ركبت ، وانطلق أسرع وأسرع ، وكنت أظن أنه يمشي ببطء ، وكنت أنظر خلفي حيث كنت أتصور أن خيولاً غائرة وفرسان يطاردوني ببنادقهم من شخص خطفني منهم ، وما هي إلا لحظات حتى كنت في وسط القرية فنزلت ، وكأن الأرض لا تسعني من شدة الفرح ، وحين رأتني امرأة كانت قرب التنور تخبز خبزاً ، فصاحت مزغردة بأعلى صوتها بشروا فلانة بعودة ولدها. وبعد مدة وجيزة تراكض أهل القرية من أطفال ونساء يهنئون مرضعتي بعودتي إليها بالسلامة.

وحين استقبلتني مرضعتي وهي تبكي بأعلى صوتها من شدة الفرح أخبرتني ، وهي قائلة: كيف اختطفوك مني يا صغيري حيث آنذاك عَفّرت وجهها ورأسها برماد الموقد ، وجاءت إليها كل نساء القرية يهنئونها بعودتي من أهلي الحقيقيين ، ويا له من اختطاف هو أشبه بالخطف على الطريقة القوقازية ، بينما مرضعتي تزغرد تارة ، وتبكي تارة أخرى مرددة: خطفوك مني يا ولدي.

تسعة أعوام وأنا أربيك كل شبر بنذر. ويا لفرحتي كم كانت عظيمة حين عدت إلى أترابي ، وملاعب صباي ، كنت أصنع من وحل الساقية تماثيلاً صغيرة لخِراف وحيوانات أخرى أنا وصديق طفولتي ذاك الزنجي أحمد ، الملقب بمرجان الأسود ، كم كان حميماً على نفسي ، أمضيت بضعة أيام عند مراضعي ، وأنا يساورني شيء من القلق والخوف حول مصيري ، وكم تمنيت لو عشت بقية عمري عند هؤلاء الفقراء البسطاء ، رافضاً هذا النعيم والوجاهة والخدم والحشم ، حيث إن الطبع يغلب التطبع لقد فطرت على حب تلك الأجواء المتواضعة بين هؤلاء الناس البسطاء من الفلاحين.

لكني عرفت كيف أجد مخبئي حين يفاجئونني أثناء غياب مراضعي في حقول القطن ، حيث أقفز إلى سياج بين موضع الفراش ، وجدار الطين ، أو كنت أذهب معهم أحتمل حرارة الشمس اللاهبة ، خشية أن يختطفونني اختطاف الطيور من أعشاشها.

وجاء اليوم الذي كنت خائفاً منه حيث فوجئت بسيارة فارهةٍ ذات لون أحمر تنهب الأرض نهباً ، فتثير غباراً كثيفاً حينها لجأت لا شعورياً إلى حضن مرضعتي ، ودفنت رأسي في صدرها ، وأجهشت بالبكاء ، وأجهشت هي كذلك نادبة حظها العاثر ، وأنا أندب حظي أكثر . يا للمفارقات العجيبة كيف أن أهلي يريدون استرجاعي إلى مضارب الوجاهة والنعيم ، وأنا أهرب إلى الجحيم ، ثم قامت مرضعتي إلى السائق ، وقبلت رأسه ويديه ، وهي ترجوه رجاءً حاراً بأن يتركوني عندها ولو بضعة أيام أخرى ، وقبل طلبها مطمئناً إياها أنه سوف يعود إليها .

وبعد عدة أيام وبالفعل جاء اليوم المشؤوم ، ولكن هذه المرة أقنعتني مرضعتي بأنها سوف تذهب معي ونعود أنا وهي ، وكنت مقتنعاً أنها ذاهبة للمفاوضات معهم كي أبقى عندهم . ألستُ أحبهم أكثر من أهلي الحقيقيين؟! لكن ذلك كله كان يزيدني قلقاً وخوفاً من المستقبل ، وما هي إلا أيام قلائل ، حيث فوجئت بعدم وجود مرضعتي إلى جانبي ، لقد تركتني على حين غرة وغادرت ، وهذه مطالبهم ، ويا لحزني العميق حين شعرت بأنها تركتني مُكرهة ، وبدأت أذوي من جديد ، حيث إن وجهي يصفر ، وعودي ينحل ، وبدأت الدمامل والحبوب تتناثر في جسدي وعلى وجهي ورأسي ووجنتي ألماً وحرقة ، وأخذوني إلى الطبيب ، وتمت معالجتي لكن الطفح في وجهي لم يندمل بعد، فلجؤوا إلى الرقى والحجب والتمائم عسى أن تهدأ نفسي وروحي ، وتستقر في مضارب أهلي؛ لكني كنت كاظماً غيظي وحزني الدفين .

وبعد مرور أكثر من شهرين على هذه الحالة عزمت ، بل وصممت على الهروب من جديد بعد أن تعرفت على معالم الطريق ، وفعلاً هربت ، وبينما أنا وسط أرض الحصيد والرعاة في قطعانهم يملؤون الأرض إثر الحصاد؛ نزلت وادياً ، ويا للمفاجأة المذهلة . شاهدت حيواناً أشبه بحمار صغير ومزركش بالخرز والأجراس الصغيرة ، ويركض نحوي رأيته ، وركضت بسرعة خاطفة نحو الرعاة ، وسرعان ما انصرف عني . لا أعلم إلى أين .

وبعد سنين عديدة كان الناس يتحدثون عن هذا الحيوان ، والذي كان عبارة

عن دب لشخص من بلاد بعيدة يُرقصه بين مضارب العربان؛ ليجمع المال من المشاهدين ووجهاء القبائل ، وأعود إلى قصتي مع الحيوان ، حيث عدت من حيث أتيت إلى مضـارب أهلي ، وقـلبي مضطرب أشد الاضطراب ، ولم أحدِّث أحداً من هول ما شاهدت ، وبعد أيام قلائل كاد الشوق يقضي عليَّ حُزنـاً ولهفة إلى مرضعتي ، حيث صممت أكثر على العودة إليهم؛ حتى ولو أكلني ذلك الحيوان ، والذي هرب من صاحبـه دون لجام .

لكني عدت بكل عزم وثبات ، حيث إنه فعلاً تمثلته على شكل حمار ورأس كلب ، ولو ضحيت بنفسي لابد من رؤية وجه مرضعتي وأترابي وملاعب صباي ، وهكذا سلكت طريقاً أطول إلى أن وصلت دون أن يعترض سبيلي أحد ، فوصلت ، ولكن الماسات ماثلة دائماً أمام عيني ، وهكذا بقيت على هذه الحالة موزعاً بين أهلي ومراضعي ، حتى أنهيت المرحلة الابتدائية ، حيث نقلت إلى الإعدادية بمدينة (الحسكة) ، وقبلها كنت موزعاً بين مدرستي طارق بن زياد في قرية عجاجة ومدرسة (طابان) الابتدائية ، ولطالما تجرعت دسمهم سماً أنقص من نشاطي المدرسي ، وذلك لعدم تآلفي مع الجو الجديد عليَّ جملةً وتفصيلاً ، حيث كانت والدتي تعاملني بقسوة حين رأت أن ميولي نحو مرضعتي أشد وأقوى ، وتحملت ما هو أقسى حين نقلت من مدرسة (المشنكة) إلى طابان؛ حيث كنت برعاية زوجة والدي ، والذي كان يقلقها تفوقي الدراسي ، حيث تنظر لي أنني سوف أكون ذا شأن؛ ولهذا عانيت الأمرّين ، ولكم تجرّعت سماً لا طاقة لي عليه مرغماً؟؟! حيث طقوس الوجاهة وتقاليد أهل الجاه والثراء .

ويا لها من أيام كانت وما زالت ، وستبقى محفورة في أعماق ذاكرتي ، لا تمحوها الظروف ولا الأزمان ، وإلى حلقة أخرى من قصة السليل .

* * *

المربية (المرضعة)

وثيقة اجتماعية لعادة سائبة ، كانت مستفحلة

أرجو أن لا تتكرر

إن من بين العادات والتقاليد السائبة أن بعض مشايخ العشائر ووجهائها والمقتدرين منهم يرسلون أطفالهم إلى المراضع من اليوم الأول أو الشهر الأول؛ وذلك حفاظاً على رشاقة أبدان نسائهم كيلا تترهل أجسادهن ، أو لمرضٍ أصابهن ، حيث إن رضاعة ورعاية الطفل أمر مرهق بالنسبة لهن؛ لذا فهم يرسلون أطفالهم إلى المراضع ، ومن الطبيعي أن تكون المرضعة فقيرة الحال ، حيث تحصل مقابل حضانة ورعاية الطفل على بضع أكياس من الحنطة والكساء السنوي في المناسبات والأعياد ، وقد تدوم رعاية الطفل إلى عدة سنوات يكون خلالها الطفل متنقلاً مع خيمة مرضعته تبعاً للبحث عن العشب والماء مع شويهاتهم ، وعلى الأغلب يكون بيت المرضعة قرب مضارب أهل الرضيع ، أما إذا لم يكن قريباً منهم؛ فتأتي به مرضعته إلى أهله كل بضعة أشهر لزيارتهم طمعاً ببعض المؤونة والكساء له ولها ، كما أن على الطفل أن يعيش هذه الحياة القاسية بكل ما فيها من صعاب .

إن أهله منشغلون بمشاغل عدة ، أهمها شؤون العشيرة ، ناسين أو متناسين طفلهم ، وما يعانيه من تنقل بين حل وترحال وخشونة في العيش؛ لن أطيل عليكم ، لا أدري إن كان سوء حظي ، أو حسن طالعي؟ ، أن أكون واحداً من أولئك الذين مروا بهذه التجربة المريرة؟ ، حيث أوكل أهلي أمر رضاعتي لبدوية هزيلة عجفاء كنت ومازلت ، وسأبقى مديناً لها بعمري وحياتي. كان نصيبي أنني لم أرضع من حليب والدتي نقطة حليب واحدة؛ وذلك لمعذرة مرضية آنذاك ، كما أني لا أبالغ إذا قلت: إني تخطيت الثماني سنوات ، حيث

لا أنسى ولن أنسى وسادة طفولتي؛ التي كانت محشوة بنخالة البرغل ، كما أني لا أنسى ولن أنسى لحافي المهرّس من كل قماش قطعة أنا سريري ، فيالله لقد كان من أحطاب الشيح والقيصوم والسلماس.

يا لها من حياة ناعمة متقشفة وبائسة في آن واحد معاً. ويا لأهلٍ مشغولين ومنشغلين بشؤون العشيرة وشجونها ، ناسين ومتناسين أن لهم طفلاً يعاني ما يعانيه من شظف العيش وخشونة الحياة ، مع أولئك البؤساء.

ويا لذاك الحليب الذي أمدني بعمر استمر حتى كتابة هذه السطور ثلاثين عاماً بالتمام والكمال ، سامح الله أهل الجاه والثراء ، وجزى الله المراضع كل العرفان والوفاء.

أما اليوم ـعهد الثراءـ ففي الخليج تكورت الأجيال وتكرشت ذهنياً وجسدياً؛ بفعل الدهون والنشويات والراحة المطلقة والمكيفات والسيارات الفارهة في الخليج وما جاورها ، أما المربيات الأجنبيات من سيلانيات وفلبينيات وهنديات ، فحدث ولا حرج. إنها على مبدأ: (وما خفي كان أعظم) فالزمن كفيل بأن يُولد جيلاً إن لم نقل أجيالاً هي مزيج فكري ، ورضاعي صناعي من شعوب وتقاليد وطقوس تدخل في نفسية وسيكولوجية الطفل بشكل مباشر ، هي بين الطقوس الكونفوشوسية والبوذية والوثنية ، ولا تمت لديننا الإسلامي الحنيف ، ولا لعروبتنا الأصيلة؛ بأي صلة.

اللهم فاشهد أني قد بلغت. . . اللهم فاشهد أني قد بلغت.

* * *

الخطف بالرضا عند البدو

وهذا يكون نتيجة التعارف بين الرجل والمرأة ، وتبادل الحب بينهما وتقرير كيفية الزواج؛ إذا رفض أولياء المرأة السماح لهم بالزواج من بعضهما ، فعندئذ يقرر العاشقان الخطة التي يجب السير عليها ، ويضربان موعداً للملاقاة ، حيث يكون برفقتهما شخصان من الأصدقاء ، فيذهبون معاً إلى أقرب العشائر ، وينـزلون عند شيخها ، ويعرضون عليه أمرهم ، فيقوم الشيخ أولاً باستجواب المخطوفة ، وعندما يتأكد من رضائها بالزواج من خاطفها ، ويتحقق من الصديقين أن لا زوج لها ، يستدعي بالحال إمام العشيرة ، ويكلفه بعقد نكاحها.

وإذا لم يكن للعشيرة إمام ، يجري العقد بذبح رأس غنم ، يذبحه الخاطف قائلاً: (اللهم حلل لي هذه الأنثى ، كما حللت لنا هذه الشاة) ، وبعد ذلك يخلي لهم الشيخ خيمة من مضارب العشيرة ، ويزفهما فيها كعروسين ، وبعد ذلك يقوم الشيخ بجميع الوسائل لعقد الصلح بين الخاطف وأولياء العروس ، وحتى ولو اقتضى الحال إلى أن يدفع بدل الصلح من جيبه الخاص ، باعتبار أن عمله هذا من نوع البر والإحسان الممتاز.

نعم إن أولياء المخطوفة وعشيرتها يثورون فور علمهم بخطف ابنتهم ، ويطاردون أقارب الخاطف ، ويعتدون على أموالهم وأملاكهم في غضون الثلاثة أيام وثلث اليوم؛ إن لم يحل بعض العشائر الحيادية دون أعمالهم ، إلا أنهم عندما يتحققون أن الخطف وقع برضاء ابنتهم ، يسكن غليانهم ، ويتدخل العقلاء بالصلح بين الطرفين ، ويكون بدلُ الصلح غالباً مقداراً من المال أكثر من المهر المعتاد ، فإذا كانت المخطوفة طموحاً (أي: ناشزة) يعطى منه إلى زوجها مقدار المهر الذي دفعه ، وما زاد عن ذلك يكون من حق أوليائها.

وإذا تعنت أولياء المخطوفة عن المصالحة ، فللشيخ الذي التجأ إليه

الخاطف أن يستدعيهم إلى القضاء ، وله أن يستعمل جميع الوسائل لإرغامهم على المقاضاة ، وغالباً ما يكون حق القضاء عبارة عن إلزام الخاطف لدفع مبلغ يزيد عن المهر المعتاد بعض الزيادة .

إن هذه العادة المنكرة إن كانت مغفورة وخفيفة الوقع في صدد البنات المخطوفات؛ اللواتي يخطفن برضائهن ، ولأجل أن يتزوجن ويتسترن بحكم غلو آبائهن بالمهور ، أو لتمنع هؤلاء الآباء عن الإعطاء تمنعاً لا مبرر له ، فإنها ـ أي : هذه العادة ـ منكرة مرذولة إذا جرت في النساء المتزوجات ، مما هو واقع بكثرة يا للأسف في بلاد حوران الباقية على جاهليتها الجهلاء .

وقد نشر الشيخ محمد صالح الحلبي إمام بلدة درعا الجديدة ـ أجزل الله ثوابه ـ رسالة خاصة في هذا الموضوع ، دعاها (صرخة الإيمان لأهل حوران) طبعها في سنة ١٣٥٥ هـ ، فمما قال فيها :

((إن هذه العادة تعدت من البنات إلى النساء المحصنات ذات الأزواج والأولاد ، فكم من امرأة خطفت ، أو خطفت وهي في حجر أبيها ، أو دار زوجها وبين أولادها ، وكم من امرأة تواطأت مع رجل على ارتكاب هذا العيب الفاضح ، كأنها لم تك بغياً ، ولم تأت شيئاً فرياً ، فهذه مصيبة أخلاقية ، وويلات عائلية ، لم تألفها الجاهلية ، ولم تجر عليها الأمم الوحشية ، وهي عادة لا تتلاءم وكرامة العرب ، ولا تتوافق مع شرف الإسلام. كما سببت للأبدان جروحاً ، وعن الأوطان نزوحاً ، وكم حمل المخطوفات (أو الخاطفات) أولاداً (أبناء زنى) بطريقة السفاح الممقوت؛ الذي يرذله الإسلام ، وينهى عنه رب الأنام ، وكم سبَّب خطف النساء من شهادة زور وكذب وفجور وإماتة حق ، وإحياء باطل ، فبينما المرأة ترتكب هذه الرذيلة ، يتخذ وليها أو زوجها عملها هذا ذريعة لاقتناص المال من الخاطف بصورة بعيدة عن الرحمة والمروءة ، وبهذه الطريقة الوسخة يتمثل الطمع بأفظع مظاهره ، فإن دفع الرجل ـ خاطفاً كان أو مخطوفاً ـ ما يفرضه عليه ذوو المرأة تحسن الحال ، وزال الإشكال ، فعادت المخطوفة (أو الخاطفة) إلى حجر أبيها أو دار زوجها كأنها لم تأت خطيئة ، وعندها يغض الطرف عن تلك المدة التي قضتها بالزنى

مع ذلك الرجل ، وعظم الويل ، وانزعج الأنام ، وسلبت راحة الحكام ، كل ذلك لا انتصاراً للشرف ، ولا دفاعاً عن العرض ، ولكن طمعاً في المال الذي أصبح معبود الجميع)).

وقال عن أسباب هذه العادة المرذولة أنها:

١ـ عدم مراعاة أحكام الإسلام في التزويج مثل التكافؤ بين الزوجين ، والتساوي في السن والتجانس في الأسرة ، والتقارب في السوية النفسية والأخلاقية.

٢ـ إكراه ولي المرأة على التزوج بمن يريد هو لا بمن تريد هي ، وذلك طمعاً بالمال.

٣ـ إكراه ولي الفتاة ذات العمر ١٨ عاماً على الزواج بكبير السن ذي العمر ستين فأكثر ، وذلك طمعاً بالمال أيضاً.

٤ـ جعل المرأة سلعة في المزايدة العلنية ، فأي خاطب يزيد في مهرها لوليها فهي له ، سواء يريد قلبها ، أو لا.

٥ـ إفساح المجال للمرأة بأن تتصل بالرجال في أي واد ومكان ، فتجد الرجل قابعاً في داره خوراً منه وكسلاً ، وتجد المرأة مجبورة على القيام بالأعمال البيتية ، والأعمال الخارجية العائدة على الرجل بجميع فروعها.

٦ـ غلاء المهور ، فلو اعتدل أهل البنت بمهرها ، وتساهلوا به؛ لما حصل شيء من هذه القبائح.

٧ـ إيواء بعض من الشيوخ والمتنفذين للخاطفين ، وحمايتهم إياهما ، طمعاً بنوال المال من الفريقين ، لكي ينصبوا أنفسهم بصفة حكام لحل ما ينجم عن هذا الخطف من المشاكل بين عشيرتي الخاطف والمخطوف ، توصلاً لمنفعتهم المادية ، وربما وسعوا شقة الخلاف من وراء ستار ، توصلاً لهذه الغاية الخسيسة ، والأغرب أن يزعم هؤلاء الشيوخ والمتزعمين أن عملهم هذا مكرمة؛ لأن فيه حماية الدخلاء واللاجئين ، وقد فاتهم أن حماية الخاطفين طعنة في كبد الشرف ، وإيواء للرذيلة ، وحماية للفحش ، وتنشيط للزنى)).

العرس:

بعد أن تتم استعدادات العرس يعلنون في أول الأسبوع ، أي: يوم الأحد ، مباشرة الأفراح ، فيجتمع في كل مساء الرجال والنساء يغنون ويدبكون معاً حتى يوم الثلاثاء. وتؤلف قافلة من رجال ونساء راكبين على خيولهم وبعضهم مشاة ، والنساء على هوادجهن من الإبل ، فيذهب هذا الموكل إلى منـزل أهل العروس ، وهم يمرحون على ظهور الخيل والنساء يغنين ، ويطلقون الرصاص في الفضاء.

وقبل أن ينـزلوا في بيت والد العروس يقابلهم أول من يصادفهم ، ويدعوهم إلى ضيافتهم، وبعد إكرامهم وإطعامهم يذهب النساء بنشيد إلى بيت أهل العروس ، ويدخلن إليه ، فيستقبلهن أهل البيت بالترحيب ، ومن ثم يأتون بالعروس التي تكون اختفت من الوجه خجلاً ، يحملنها ، ويلبسنها أثواب العرس ، ويعطرنها ، كما هو المعتاد ، وهن يغنين وينشدن ، ويذبح أحد أقارب العريس لهن ذبيحة خاصة ، ويعدّ لهن الطعام ، ويكرم كل من كان موجوداً هناك من النساء ، وفي مساء ذلك اليوم يأتي النساء من محارم العروس ـ أعني: والدتها وشقيقتها وخالاتها وعماتها ومن يدلي إليها بقرابة ـ ويحممنها ، ويزينها بأجمل ما أمكن من أنواع الزينة، ويسمين ذلك (تنميق الحبايب).

وفي الصباح يأخذن العروس ومعها أمها وإحدى خالاتها ، ويذهبن بها بالنشيد والأغاني ، وبين رمح الخيول وإطلاق الرصاص ، إلى بيت العريس ، ويسمون هذه القافلة (قطار العرس) ويدخلون رأساً إلى بيت العريس؛ الذي يكون دعاه أحد الأصدقاء من الشبان ، ودعا معه أقرانه ولدانه للاستحمام والطعام وزينهم وأكرمهم ، وهناك يزفونه إلى العروس في خيمة أحدثت خصيصاً في مكان منفرد متوسط يسمونه: برزة ، ومن المعتاد أن يقدم العريس في الليلة الأولى هدية للعروس ، أو شيئاً من النقود تسمى: نقوطاً ، وصباح اليوم الثاني يتوارد الأصدقاء لتهنئة العريسين ، وتقديم الهدايا.

وأهل العريس يهتمون بذبح الذبائح ، وإعداد الطعام ، ودعوة الأصدقاء والخلان ، وبعد أسبوع تذهب العروس لزيارة أهلها ، وتأخذ معها من عند عريسها شيئاً تقدمه إلى الأهل ، وبعد أن تصرف المدة التي ترغبها تعود مزودة بالهدايا .

وهذه الأعراس أكثر مما يعنى بها ، ويتغالى ، هم أهل القسم الثاني (أعراب الديرة والشوايا) وبعض الرؤساء الأغنياء من أهل القسم الأول ، وعلى كل حال لا تجري هذه الأعراس إلا لدى من يتزوج للمرة الأولى ، أما في المرة الثانية وما بعدها ، وفي زواج الأرامل والمطلقات ، فلا يجرون شيئاً في ذلك ، وعند أعراب القسم الأول ، أي : البدو ، تكون الأعراس بسيطة جداً ، فهم يكتفون يوم الزواج بغداء ، يطعمون فيه الأصدقاء والأنسباء ، وكفى ، وربما غنوا ورقصوا ، وأظهروا فرحاً وابتهاجاً .

وحينئذ يدخل العريس إلى المحرم ، وهو المكان المخصص للنساء ، ويكون قد هيئ وأخلي لأجله ، وبينما تكون الضوضاء وطلقات الرصاص صاعدة من بنادق بعض الأصدقاء ، بقصد إظهار الفرح ، أو إحداث جلبة خاصة ، يفترع العريس عروسه ، وينتهي .

* * *

أعمال البدو
الرعي ، الصيد ، الغزو ، التجارة

إن الأعمال التي يعتبرها البدو جديرة بهم ، هي: الرعي ، أو تربية الماشية ، والصيد ، والغزو ، والتجارة.

أما **الصناعة** فإنهم يأنفونها ، كما يأنفون الأعمال اليدوية ، وقد شاهدنا بعض أعيانهم المتحضرين لايزوجون بناتهم من أرباب الصناعات والحرف ، مهما نبه قدر هؤلاء ، وتضخمت ثروتهم .

أما **الزراعة** فقد كانوا أيضاً يزدرونها ، ويمتهنون أهلها ، ويدعونهم: فلاليح ، جمع: فلاح؛ لأنها ـ فيما زعموا ـ تربطهم بالأرض ، وتجرهم إلى الخنوع والذل ، وتفقدهم الحرية والانطلاق؛ اللذين هما غاية مناهم ، ومن أقوالهم في ازدراء الزراعة: (الذل بالحرث والمهانة بالبقر) ، ويقابلون هذه الأقوال بكلمة: (العز بالإبل ، والشجاعة بالخيل).

إلا أنهم منذ أن انقطعت سبل الغزو ، ونضب معين السلب والنهب ، وتوالت سنو المحل والجدب ، وكثر موت الحلال (الماشية) ، أكرهوا على الميل نحو الزراعة ، وشرع رؤساؤهم وكبراؤهم ـ منذ عشرين سنة ـ يقتنون الأرضين، ويتوسعون بالمساحات، ويتنازعون على الحدود ، ويعنون بالحرث والزرع والري ، ومن ثم صاروا يعتبرون الزراعة ، ويعتبرون أهلها إلى حد ما ، ولو أنهم لم يوفقوا بعد لتعويد أعرابهم على أعمالها وأتعابها ، فاعتمدوا في الغالب على سواعد الحضر من أرباب القرى ، ويرجى أن يوفقوا إلى هذا التعويد ، وأن يسري إلى صغارهم الميل والهوى ، واللذان نشأا في كبارهم.

الرعي:

إن أكثر عناية أهل البادية وهواهم هو في الرعي ، أي: تربية الماشية من الإبل والغنم والماعز والخيل؛ لأن معيشتهم في الأساس متوقفة عليها ،

وبداوتهم ناشئة منها ، ولولاها لما كانوا ، ولولاهم لما كانت. وهم يربونها إما لحسابهم الخاص ، أو لحساب شركائهم من أهل المدن؛ لقاء قسمة معينة من النتاج ، وهم يستخرجون من حليب الماشية اللبن والزبدة والسمن والقشطة ، أما صنع الجبن فغير معروف عندهم ، ومن العناية بالماشية يحصل للبدوي صوف من الغنم ، وأنسجة من شعر المعزى ، أو من وبر الجمال ، فيذهب بها إلى المدينة ليبيعها مع الزبدة والسمن ، وقد يبيع شيئاً من ماشيته إذا رباها ، إذا كان يحسن تربية الخيل ، فهو يبيع من ذكورها ، بقدر ما يحتاج إليه من نقود ، ويشتري بدلها تمراً وحباً وثياباً وأدواتٍ للبيت.

الغنـم:

إن أكثر الأغنام التي يستثمرها هي للحضر ، أي: لأهل المدن الشامية ، ولهؤلاء طرق عديدة في الاتفاق مع البدو ، وعقد شركات متنوعة؛ للاستفادة من نواتج هذه الأغنام.

والشركة على شكلين ، الشركة الأولى (الغنومية) ، وهي أن يشتري الحضري الأغنام ويسلمها للبدوي ، فيتنقل هذا بها بين المعمورة والبادية؛ حسب الفصول والمواسم.

وتقوم أسرة هذا البدوي بكل ما تطلبه الأغنام من عناية وخدمة وحلب نعاجها الرغوث ، وتحويل ألبانها إلى زبد وسمن وخاثر ، ويتناول الحضري عن كل نعجة رطلاً من السمن ، علاوة على حملها الصغير ، ويأخذ البدوي ما زاد عن الرطل ، والنعجة الواحدة قد تعطي في سنة الخصب من الرطل إلى الرطل والنصف إلى الرطلين من السمن ، أما الصوف فيرجع كله للبدوي لقاء تعبه ، وأما الرسوم الأميرية المتحتم دفعها عن الأغنام ، فالحضري يدفع رسوم الأغنام الرغوث ، والبدوي يدفع رسوم الحائل ، وعلى البدوي أن يدفع أيضاً كل النفقات من ضمان الماء ، وضمان الحقول المحصودة مما يسمونه (فراز) وخلاف ذلك ، والبدوي مسؤول أيضاً عن إدارة الغنم وجلب الماء إليها من الأماكن البعيدة ، وإذا ما أراد الحضري إبدال هذا الشريك؛ فإن ذلك يكون في موسم (الفراز) أي: زمن نضوب اللبن أو قبيله.

ويقدر أن ربع البدو لا يقومون بأمانة في هذه الشركات ، إذ يعبثون بما عهد إليهم من الغنم ، ويدَّعون أن الذئب أكلها ، أو أن البرد أو المرض انتابها ، إلى ما هنالك من الأعذار الملفقة ، لكن الحضري لا يتقيد بذلك ، فيتلطف بتدبير يرد به غنمه ، ويودعه إلى بدوي آخر.

والشركة الثانية (شركة العظم، أو الشركة الحلبية)، هذه تكون على شكلين:

الأول: يبتاع كل من البدوي والحضري عدداً متساوياً من الأغنام ، فيأخذ البدوي بتربيتها واستثمارها ، وفاقاً لما ذكرناه في الشكل السابق ، وتقسم الخسائر والأرباح مناصفة ، كما تقسم النفقات بينهما على السواء ، إلا أن هذه الشركة قد أصبحت نادرة جداً ، ولا تزيد نسبتها على ٥٪ بين الشركات.

الثاني: يشتري الحضري مثلاً مئة نعجة بمئتي ليرة ، ويسلمها للبدوي بعد أن يأخذ عليه سنداً بالقيمة ، وتعهداً بوفاء أثمانها من نواتجها ، فيبدأ البدوي بأداء جانب من أثمانها كل سنة ، فلا تمضي سنتان أو ثلاث حتى يكون قد أدى القيمة بتمامها ، فتصبح الغنم متناصفة بين البدوي والحضري ، فإما أن تبقى الشركة شركة عظم ، أو أن تستغل كل منها على حدة.

الخيل:

أما الخيل فمفخرة البدو ، ومبعث مجدهم ، عليها يقطعون السباسب ، ويهاجمون العدو ، ويردون صدمات الغزو ، وفيها يعودون كاسبين. وللخيل إكرام كبير ، ومنزلة رفيعة في المضارب ، تراها مربوطة في أكرم أرض أمام البيوت كأنها من أفراد الأسرة ، يحيطها كبيرهم وصغيرهم بكل رعاية ، وقد يؤثرونها على أنفسهم في الماء والغذاء والتدفئة ، وإذا أنتجت الفرس مهرة حل الهناء في الخيام ، وعم السرور ، وذبحوا ذبيحة ، ونضحوا بدمها بطن الفرس والمهرة وقوائمها وناصيتها ، وإذا ابتاعوا فرساً ، أو كسبوها في الغزو ، يذبحون لها نعجة قبل إدخالها إلى البيت.

هذا ، والبدوي قلما يحب الاحتفاظ بذكور الخيل ، فهو يسعى إلى بيعها وهي صغيرة ، وبهذا البيع الباكر يوفر على نفسه مشاقَّ ونفقات. وهو يفضل

اقتناء إناث الخيل للولادة والربح ، ومن النادر أن يبيع البدوي الفرسَ صفقة واحدة إلا إذا أطمع بالمال الكثير ، وكان بحاجة إليه ، والعادة أنه يرضى ببيع النصف فقط؛ ليكون له في نتاج الفرس حصة. فإذا ما أتت الفرس بمهرة جميلة ، وأراد أحد الشريكين فسخ الشركة حق له ذلك ، فتثمن الأم ومهرتها؛ بمعرفة أهل الخبرة والاطلاع. ويتقاصرا ، أي: يستقل أحدهما حسب الاتفاق بالمهرة ، أو بالفرس الولود.

وللبدو في بيع الخيل طريقتان:

الأولى: (المثاني) يأخذ البائع ثمن الفرس المتفق عليه كاملاً ، وله حق في نتاج الفرس ، وهو مهرتان، الأولى منهما وهي المهرة الأولى التي تضعها الفرس ، يأخذ غب مضي أربعين من الولادة ، وإذا تأخر عن ذلك فالمصروف عليه ، والمهرة الثانية يأخذها إما من نتاج الأم ، أو من نتاج المهرة الثانية التي تكون أنتجتها الفرس ، وتدعى الثانية التي يأخذها البائع: فلو العامود ، أما الأحصنة فكلها للشاري .

والطريقة الثانية: هي (المناصفة) يأخذ البائع نصف ثمن الفرس ، وهذه الطريقة أكثر شيوعاً من الأولى بين البدو ، ويقدم البائع للشاري إذا شاء الأخير حجَّة خطية تثبت أصل الفرس ، ممهورة من وجوه العشيرة وشيوخها ، وتكون الحجَّة سنداً صحيحاً في رسن الفرس وأصلها؛ لأن كل فرس لا يثبت انتسابها لإحدى سلائل الخيل المعروفة ، لا يعتبرونها أصيلة ، بل يدعونها (كديشة) مهما كانت مستوفية الأوصاف الممدوحة في الخيل ، وعندما يصادف وجود فرس جيدة كهذه نسبها مجهول يدعونها (شمالية) ، فينكحونها (يشبونها) من حصان أصيل ، ويستمرون على تلقيحها ، وتلقيح نسلها من الحصن الأصيلة إلى أن يبلغ البطن الخامس ، وعندها يحق لهم أن يعتبروا ذلك البطن أصيلاً ، وأن يسموا هذه الفصيلة الحصان الذي لقحوا منه أول فرس من هذه الفصيلة.

وللعرب عامة من بدو وحضر عناية كبرى في تربية الخيل، وحفظ أنسابها (أرسانها) ، وأشهر السلائل المعروفة هي: الكحايل ، والصقلاويات ، وأم

عرقوب ، والهدب ، والعبيات ، والشويمات ، والمعنكيات ، والجدرانيات ، والنواقيات ، والشراقيات.

والبدو يفوقون الحضر في ترويض أفراسهم ، وتعويدها العادات المفيدة في العدو والكر والفر؛ ولهذا تنشأ الأفراس عندهم أكثر جمالاً وجلداً وعدواً وفعلاً في الحرب، خاصة وهي تعيش في الهواء الطلق، والفضاء الفسيح دائماً.

ويوجد لدى عشائر عنزة وشمر وبعض عربان الديرة أكثر سلائل ، وتعنى عنزة بصورة خاصة في تربية الكحائل أكثر من غيرها ، والكحيلة يضرب المثل بعراقة أصلها ، فإذا وصفوا امرأة بنجابتها قالوا (كحيلة) ، وهي ذات أثواب مختلفة الألوان ، ويذكر أنه عند الأسبعة البطينات كحيلة الأخرس والنواقيات الشقر والعبيات ، وعند الأسبعة المواجبة الصقلاويات ، وأغلب أثوابها صفر ، وعند الأسبعة الأمسكة أمهات عرقوب الشقر ، وعند ابن سبيل من الرسالين المعنكيات الحدرجية والسبيلية فرس صالح المسلط من الجبور. وعند الفدعان الأخرصة الكحلية الحدرجية والكحلية المضبة والكحلية الأخدلية الدنيسيات والشيخات والصقلاويات.

أما الأرولة فعندهم أجمل عتاق الخيل من كحايل وصقلاويات وجدرانيات ومعنكيات وشراقيات وشويمات أم عرقوب، مثلهم بني صخر في شرقي الأردن، وقد اشتهرت عشيرة طيئ بالمليحيات، وعشير الموالي بالصقلاويات والمعنكيات والسبيليات، وبني خالد بالمعنكيات الحمر، وشمر بالشنينة وبهدبة انزحى بالجدرانيات ، وهي عند حسن العامود ، قالوا: وصلت إليه من الفرجة من الأرولة ، وعنده الصقلاويات أيضاً ، وعنده غيرهم غير ذلك من المرابط والسلائل المختلفة الطيبة ما يضيق نطاق بحثنا عنه ، فاكتفينا بما ذكرناه.

هذا ، وقد كان للخيل دولة واعتزاز لمضي ٢٠ ـ ٢٥ سنة في البادية والحاضرة ، إلى أن حظرت الحكومات الغزو ، وقطعت مورد السطو والسلب على البدو ، وانتشرت السيارات في كل دانية وقاصية ، واقتناها رؤساء البادية لسرعتها ، وحسن بلغتها ، وغالوا بها ، فدالت دولة الخيل ، وقلت العناية والرغبة بها ، حتى لم يعد يركبها إلا القليل ، والفروسية التي كانت إحدى

مفاخر البلاد العربية أوشكت أن تضمحل ، والبيوتات القديمة في مدن الشام المعتادة على اقتناء الصافنات الجياد ، قد أقفرت إصطبلاتها ، وصارت مرائب للسيارات ، ولم يبق للخيل قيمة إلا فيما كان منها صالحاً للسباقات الدولية ، وعقد المراهنة ، والمقامرة ، كما يجري في ميادين السباق في بيروت وبغداد وأمثالها؛ مما فيه خراب كثير من البيوت ، وانحطاط كثير من أرسان الخيل الأصلية؛ يا للأسف.

الإبـل:

وأما الإبل فهي صديقة البدوي الحميمة ، ولولاها لزالت البداوة ، وهي كما قال الأستاذ عباس العزاوي في كتابه (عشائر العراق): قوام حياة البدوي ، ووسيلة بقائها. فمنها لبنه ، ومنها وبره ، ومنها لحمه ، وجلدها نافع له ، وهي واسطة نقله من مكان إلى آخر ، وحمل أثقاله ، فهي في نظره (سفن البر) ، ولولاها لكانت حياته منغصة ، وعيشته مرة ، وآماله ضيقة ، وهذه فيها غناؤه وثراؤه ، بل من أعظم ثروة له ، ومن أهم تجارته، لا تعيش للبدوي أغنام وهو في حالة غزو وتنقل سريع من مكان إلى مكان ، إلا إذا كانت كهذه الإبل تتحمل المشاق ، وتتقبل الصعوبات والأراضي الوعرة ، والفيافي البعيدة عن العمران ، فهي بحق تعد أعظم نعمة ناسبت أوضاعه ، فكأنها خلقت لأجله ، وقدرت له في أصل الخلقة.

وفي آية ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ دليل الامتنان بهذه النعمة ، ولولا الإبل لما تمكنوا البدوي أن يبلغ المكان الذي يريده إلا بشق الأنفس وصعوبتها ، والعرب في آثارهم الكثيرة من الكتب والأدب واللغة تعرضوا للكلام عليها ، وأوسعوا المباحث ، كما عمل الأصمعي في رسائله ، وابن سيده في مخصصه ، فمما قالوه: الإبل مراكب العرب وطعامهم ، وهي أكثر البهائم شحوماً ، وأطيبها لحوماً ، وأرقها لبناً ، وأقلها غائلة ، وأحلاها مضغة ، وهي من أرخص وسائل النقل في الأسفار ، وتحمل الأثقال ، وأكوام الزروع من الحقول إلى البيادر ، وإن كانت بطيئة.

والإبل أنواع كثيرة ، وأشهر المعروف منها؛ مما ينتفع منها الحليب

وللحمل ويسمى (البعير) ، فمنها (الخوارير) وأحدها الخوار ، وهي أباعر عنزة وشمر وغالب البدو بصورة عامة ، وهذه إبل بادية الشام تصبر على العطش ، وتستخدم للغزو ، وتعيش خارج المياه في البادية الجرداء ، والمعروف منها (بنات وضيحان) التي أصلها من إبل الشرارات ، وقد سميت بذلك؛ لأن لون قوائمها الأربع وأسفل بطنها أبيض وضاح ، وباقي الجسم أصفر مشرب حمرة كلون الغزال ، و(بنات عبجلي) و(البجانيات) ، وهناك قسم آخر يستفاد منه للركوب غالباً ، ويقال له (الذلول) ، ومن أنواعه (التيهية) وهذه صغيرة ، ولها رسن تفيد للسرعة وللمغازي ، وتقطع مسافات بعيدة ، وهي عند الشرارات والحويطات في جنوبي بلاد الأردن ، وهذه تطرح النعام والغزال ، وهي للركوب خاصة ، ويقال: إن أضلاعها سبعة في كل جانب ، (والحرة) تعيش في البادية تصبر على الماء ، وهي عند شمر وعنزة وعند الشرارات والحويطات ، وبها يتمكنون من اللحاق بالخيل ، و(العمانية) وهي جميلة ووافية ، وغالباً ما تكون عند عشيرة المنتفق في العراق ، وقليلة في سائر الأنحاء ، ومواطنها على سائر الخليج العربي.

ويذكر أن إبل الحرة تتحمل أخفافها الأرض المحصاة ، وتعرف ببروز قصبة أنفها ، أما الإبل التيهية فإن أصلها من السودان ، وهي ترد فلسطين والبلقاء مع القوافل الآتية من مصر ، وقد كانت إبل الجيش الإنكليزي في الشام من هذا الصنف خلال الحرب الكبرى الماضية.

أما الإبل العمانيات فأصلها من عمان (مسقط) ، وهي ذوات رأس نحيف ، وقدّ أهيف ، ومزاج عصبي ، ووبر دقيق.

ومنها الصبورة على العدو في الفلوات ، والحساسة كالخيل العراب ، وكان الجيش الهندي في الحرب الكبرى المذكورة يبتاع منها ما يلزمه ، أما في الحرب الكبرى الثانية ، فقد استعاضت الجيوش عن الإبل بالدبابات والسيارات المصنوعة خاصة للصحارى ، فزالت دولة الإبل ، كما زالت دولة الخيل.

هذا ، وللإبل عند كل عشيرة ، أو فرع من فروعها ، علامة يسمونها بها لتعرف ، وهذه تختلف أشكالها بالنظر لما تتخذه العشائر ، ولا تجد تقارباً في

الوسم إلا قليلاً ، وكذا يقال للشاهد ، وهو من نوع الوسم ، إلا أنه لا يعول عليه في التفريق، وإنما هو أشبه بالإشارة الخاصة، والوسم يكون على اليمين ، أو على اليسار ، أو على الرقبة ، والشاهد يكون على يمين الوسم ، أو يساره ، وقد يكون الوسم على اليد اليمنى ، أو اليسرى ، والشاهد على الرقبة ، ويكون قريب الخشم ، ويصير محاذياً للعين ، أو نازلاً إلى الفك ، وعلى كل لا يعول على الشاهد ، ومن الوسم ما هو بشكلX أو كحرفT أو غير ذلك .

والبدو يطلقون إبلهم في البرية ، فتقتات من نباتها كالشيح والروثة وغيرهما ، ويوردونها الماء مرتين في الأسبوع في الصيف ، أما في الشتاء فهي تظل أياماً عديدة دون أن تعطش ، أما الحضر فيسقون الإبل التي يستعملونها مرة في كل يوم من أيام الصيف ، والحضر في بلادنا يسيئون تغذية الإبل ، فلا يطعمونها أكثر من ثمنية (أي: نحو اثنين كيلو غرام) من الحب في اليوم من (الشعير ، أو الكرسنة ، أو الجلبان ، أو الفول ، أو البيقية) على أن تكون مجروشة ومنقوعة في الماء؛ لأنه ليس للبعير قواطع في فكه الأعلى ، ويضاف إلى ذلك مقدار كاف من التبن ، هذا إذا كان يشتغل ، وإلا فيقصرون غذاءه على التبن وعلى ما يصادفه من الأعشاب .

والإبل إذا كانت بالغة وطعامها كافياً تحمل ٢٠٠ ـ ٢٥٠ كيلو غراماً في اليوم ، أما إذا كان طعامها سيئاً؛ فهي لا تحمل أكثر من ١٠٠ ـ ١٥٠ كيلو غراماً ، هذا ووبر الجمل أنعم من صوف الضأن ، وتصنع منه عباءات الوبر العراقية الشهيرة ، كما ينسج الفرنج منه أنسجة رقيقة غالية الثمن ، ويحشو البدو لحفهم ووساداتهم به ، ومتوسط ما ينتف من الجمل في كل ربيع ٢ ـ ٣ كيلو غراماً من الوبر ، وقد يبلغ ذلك خمسة كيلو غرام ، ويصنعون من جلده قرباً عظاماً ، ومنها التي تتسع ٢٠٠ ليتر من الماء كما يصنعون من عظم يديه أمشاطاً ، ويعمدون إلى جلد ركبته وغيرها من أعضائه التي تحتك بالأرض وهو جالس ، فيصنعون منها نعالاً غاية في المتانة .

ولحم الإبل لا يقل عن لحم البقر ، بل إن لحم سنامه ألذ من لحم البقر ، لكن البعير متى كبر يصير لحمه قليل اللذة ، لا يأكله إلا الفقراء ، ونسبة لحمه

الصافي إلى نسبة مجموع وزنه ٥٥٪ تقريباً. هذا وركوب الهجن الأصايل المروَّضة على الجري يفضل على ركوب أي دابة كانت؛ لأنه مريح للغاية، خصوصاً في البوادي القفراء.

ولا يصفو الأصل عند البدو إلا في الجيل الخامس، وذلك بأن تلقح ناقة من هجين أصيل؛ فإذا أنتجت ناقة ولقح هذه هجين أصيل، ثم تكرر هذا التلقيح إلى الجيل الخامس؛ فهو الأصل الصافي، ونتاجه أصيل، ومنهم من يؤصلون إبلهم إلى الجيل السابع، أو الجيل العاشر.

ولإبل عنزة خاصة صبر عجيب على العطش، ففي أيام الربيع تبقى شهرين أو أكثر بلا ماء، أما في أيام الصيف فالتي تشتغل منها تطلب الشرب كل يوم أو يومين، وقد تصير إلى اليوم الثالث والرابع، وهم يردون بها الآبار أذواداً، كل ذود في حوض، ويروونها على نغم الحدو، ولطيف الأشعار.

ومصطلحات الإبل في بلاد نجد على ما جاء في كتاب (قلب جزيرة العرب) هي ما يلي: (الجمال) تفيد النوع مطلقاً (الإبل) تطلق على الإناث التي لا تركب، وهي التي تلد وترضع صغارها، ولكنها لا تحلب.

(الناقة) واحدة من الإبل سواء أكانت تحلب أم لا.

(المسح) الإبل التي يستدر حليبها، وهي غير التي يرضعها ولدها.

(الجيش) أنثى الجمل التي تستعمل للركوب فقط.

(الذلول) واحدة من الجمل.

(الزمل) الذكور من الجمل إجمالاً.

(البعير) لا يستعمل إلا للذكور.

(الهجين) لا تستعمل في نجد، ولكنها تعني: الذلول، وتسمى الناقة الحبلى.

(اللقحاء) والتي تجرّ وراءها ولدها.

(الخلفة) والتي يسحبها ولدها؛ الذي لا يزيد عمره عن عشرة أشهر (عشرة).

وقال: ولصغار الإبل أسماء مختلفة بحسب السن التي تبلغها ، فيقال للذي عمره أقل من سنة ، وقبل أن يفطم (الحوار) ، وتمام السنة بعد الفطام (المفرود) أو (الفصيل) ، وفي السنة الثانية (لبني) ، وفي السنة الثالثة (مربوط) ، وفي السنة الرابعة (حق) ، وفي السنة الخامسة (جذع) ، وفي السنة السادسة (رباع) ، وفي السابعة (سداس) ، فإن كبرت من الرباع فصاعداً فهي (ناقة) ، والذكر (جمل) .

قلت: إن أسماء صغار الإبل بحسب السن تختلف في كتب اللغة قليلاً عما ذكر ، فهي تقوم: إن ولد الإبل يسمى في السنة الأولى إلى أن يفطم (حوار) ، وفي السنة الثانية (ابن مخاض)؛ لأن أمه تكون حاملاً ، وفي السنة الثالثة (ابن لبون) لأن أمه تكون ذات لبن ، أي: ترضع أخاه ، وفي الرابعة يسمى (الحق) لاستحقاقه أن يحمل عليه، ومتى دخل الخامسة يسمى (جذع) ، وفي السادسة (ثني) ، وفي السابعة (رباع) ، وفي الثامنة (سداس) ، وفي التاسعة (بازل) ، وفي تلك السن يكون البعير قد بلغ أشده ، وصار صالحاً للشراء ، ومدة الحمل في الإبل ١٢ شهراً ، ومن النادر أن تكون ١٣ أو ١٤ شهراً ، ومدة الرضاع تختلف من خمسة إلى ثمانية أشهر ، قالوا: إن ولد الناقة يقف في اليوم الأول من ولادته ، ويمشي في اليوم الثالث ، ويرافق أمه للمرعى في اليوم السابع .

إن انقطاع الغزو ، وشيوع سيارات الركوب السريعة؛ التي صارت تطوي البيد طياً ، يكاد يبيد الخيل ، كما أن السكك الحديدية ، وسيارات النقل الضخمة أبادت قوافل الإبل العظيمة؛ التي كانت تنقل نواتج الهند والعجم والعراق من بغداد إلى دمشق ومصر ، ومصر التي كانت أكبر سوق للإبل المعدة للذبح قل فيها عدد آكلي لحمها ، فلم تعد تربية الإبل رابحة كما كانت من قبل ، مما اضطر العشائر الكبرى إلى الإقلال منها ، فبعد أن كان عدد ما يباع منها مثلاً عند الروالة حين اصطيافها في الجولان ٣٠ ـ ٣٥ ألفاً في سنة ١٩٢٢م ، هبط عدد المبيع إلى ١٢ألفاً في سنة ١٩٢٧م ، وإلى أقل من ثمانية آلاف في سنة ١٩٢٨م .

وبينما كانت هذه العشائر لا تربي نعجة واحدة صار عدد الغنم لدى الروالة

٣٠ ألف رأس في سنة ١٩٢٩م ، ولدى الأسبعة ٥٠ ألفاً ، ولدى الفدعان ٦٥ ألفاً ، وهكذا.

وعلى كل حال، فالإبل كما قلنا في بحث التحضير من أرخص وسائل النقل وإن كانت بطيئة ، وهي ثروة لا يُستهان بها ، فإهمالها دون العناية بأمرها غير صحيح ، ومن أهم ما يعرض للبدوي قلة المراعي لها ، ومن الوسائل الفعالة إفساح المجال له للسرح بها في برارٍ وصحارٍ لا يستفيد منها سواه ، وفي هذا تخفيف لشظف عيشه، وترفيه لحالته، وربح لتجارة البلاد، ومواد لخزينة الدولة.

الصيد:

وأما الصيد وإن كانوا مغرمين به ، إلا أنهم لا يميلون إليه إلا في أيام الربيع بقصد اللهو واللعب ، ولبعض شيوخ البدو ولع في قنص الغزلان والأرانب والحبارى والحجل والقطا وأمثالها، يخرجون إليها فرساً بالبازي والشاهين على أيديهم وفق أكف من الجلد؛ لئلا تؤذيهم المخالب ، وتتبعهم الكلاب السلوقية ، فإذا تراءت الحبارى للبازي ـ وهو يلمحها قبل الناس ـ طلب الانفلات من يد صاحبه ، فيطلقه ويغير وراءه حتى يدركه فوق الحبارى ، يمتصّ من دمها ، ويأكل من لحمها ، فينزل عن فرسه ، ويأخذه ويأخذ الحبارى ، ويستأنف المسير أمام الأرنب ، فتقتصنها الكلاب والطيور معاً ، فينطلق عليها الطير ينقرها في رؤوسها وعيونها ، حتى يعمي أبصارها ، وتتأثرها الكلاب ، وتبطش بها ، ولهم طريقة أخرى في قنص الغزال لا يطيقها غيرهم ، وهو إذا قلّ الماء في البر في الصيف حفروا حفراً عميقة عند موارد المياه ، واستكنوا فيها ببنادقهم دون أن يستروها بشيء من حرارة الشمس؛ لئلا تنفر الظباء ، فإذا قاربت الشمس الهاجرة ، واشتد القيظ طلبت الظباء الموارد لتروي ظمأها ، وأتتها أفواجاً فيرمونها ، وقد يطرحون منها عدة بطلق واحدة ، وغالب صيد البدو الغزال ، وباقي الصيد لا قيمة له عندهم ، وقد صاروا بعد انتشار السيارات يطاردونه بها؛ بمنتهى القسوة والجور ، ويرهقون هذا الحيوان المسكين ، وهم يكادون يقرضونه رغم وجود قرارات بمنع ذلك؛ لعدم إمكان تنفيذها في الفيافي الشاسعة.

وقد يصطادون النعام والوعول والوضيحي والأروية والمها ، أو بقر الوحش وحمر الوحش أو الفرا ، وهذه الحيوانات أيضاً تلاحق بالسيارات ، وترهق بالمطاردات ، وطلقات الأسلحة النارية السريعة ، وتتعرض للانقراض ، وربما جاء يوم تقفر بادية الشام منها ، فهل يلحقها راغبوها إلى النفوذ في وسط الجزيرة العربية ، أو إلى الربع الخالي في جنوبها؟

وبدو الصليب وأبناء عمومتهم الهتم والشرارات قد اتخذوا لهم الصيد حرفة يصطادون بالأفخاخ، أو ببنادقهم الششخانة القديمة، أنواع الطيور والحيوانات الوحشية التي ذكرناها ، وفوقها اليرابيع والضباب والوبر الذي يشبه الأرانب.

وعلى ذكر القطا نقول: إن هذا الطير يقيم في البراري والقفار ، وهو شديد الطيران ، يبعد إلى مسافات شاسعة في طلب الغذاء والماء ، والعرب قديماً أحبوه ، وأكثروا من ذكره في أقوالهم وأشعارهم ، ووصفوا جثومه على بيضه في عشه ، ونهوضه من مجثمه ، ووصفوا سراه ليلاً ، وورودوه الماء وسيره إليها متدافعاً ، وصدوره عنها ، وعقدوا لوصفه المجالس والمباريات ، وقد حكمت في إحداها الشاعرة ليلى الأخيلية ، وضربوا بصفاته الأمثال ، وجعلوا تركه طيب المنام دليلاً على مزعجات الليالي ، وجعلوه شريك المحب في حبه ، والغريب النازح في غربته ورحلته ، وقد رأى مجنون ليلى سرباً منه ، فهاجت شجونه ، وقال:

أسرب القطا هل من يعير جناحه لعلّي إلى مَنْ قد هويتُ أطيرُ

والقطا من فصيلة الحمام ، وهو يشبه الحجل بلونه ومشيه ، وله أربعة أنواع (الكدري) ذو البطن الأسود والظهر الأرقش الأشهب ، ومنه ضرب يدعى الجوني يكون بحجم الحجل ، والنوع الثاني (الحر) وهو غير حر الصيد بطن القطاة منه بني فاتح وظهرها بني مرقط ، والثالث (المطوق) وهو مخطط بخطوط هلالية الشكل بعضها سوداء أو رمادية وبعضها كستنائية ، والرابع (الصياح) أو (القطقاط) يصيح قطا قطا ، يشبه الحجل في لونه غير أن لون بطنه بني ، وهو كثير البادية يهاجر بالملايين في سني المحل إلى القرى الشرقية الواقعة في طرف المعمورة ، وبعض عشائر البادية وأهل القرى يعيشون مدة من

الزمن على بيضه المنتشر في البادية ، وترى الصبيان يطوفون في البراري والآكام يلتقطون بيوضه ، وكثيراً ما ترى الآكام وقد حط عليها القطا ، وهي تكاد تحجب الشمس ، وتسمع صوت أجنحتها فوق رأسك كأزيز الطائرات ، والقطا تبيض مرة في السنة بيضتين، وقد تبيض ثلاثاً، وهي ولوعة بشرب الماء، وإذا لم تجده في البادية تهاجر هي وفراخها إلى القرى التي في شرقي المعمورة ، حيث ترد الماء أسراباً أسراباً، وهي لا تغشى المعمورة إلا في سنين المحل ، ومن ثم يقول الفلاحون: (سنة القطا بيع الغطا) دليل المحل والفاقة.

وطريقة صيد القطا هي: أن الصيادين يحفرون عند مصب الأودية أو الغدران ، بحيث يكون قطر الحفرة نحو متر ، وعمقها نحو نصف متر ، ثم يبنون حولها حائطاً من الحجارة في ارتفاع نصف متر ، يسد من ثقوبها بالطين عدا ٣ـ٤ ثقوب في كل جهة ، يتركونها كمزاغل يسددون بنادقهم منها نحو القطا ، حين وروده الماء ، ويسمون هذه الحفر (نوجة). ويرتدي الصياد ثياباً صفراء أو غبراء؛ ليختفي عن القطا المار.

التجارة:

أما التجارة فلم يكون للبدو عناية خاصة بها ، وإما كانت عنايتهم من باب المعاونة لأصحابها، بمعنى أنهم كانوا ينقلون البضائع والأموال على أباعرهم، ويحامون عن القوافل التي كانت تنقل تلك البياعات ، وهذا دأبهم منذ أقدم الأزمان إلى أن ظهرت سيارات النقل الضخمة، واكتسحت الصحارى والبراري بسرعتها وسهولتها وسلامة منقولاتها ، فانقطع رزق البدو ، من هذه الناحية.

وقد كان أصحاب القوافل فيما مضى يدفعون على حماة القوافل المدعوين بـ (المبزرقة) أجرة يسمونها (الخفارة) ، وهذه العادة كانت جارية إلى نصف قرن عند العشائر النازلة على طرق النقل ، ولا سيما طريق الحج ، فإنهم كانوا يتقاضون مبالغ من الحكومة العثمانية تعرف باسم (الصرة). وإذا أراد أهل الحضر أن يمروا بأرض عشيرة يجبرون على دفع بدل المرور ما يسمى (بالخفرة) ، والموضوع يتبع بالغزو.

* * *

بيوت البدو

كلما تجول المرء في البادية ، وضرب آفاقها في فصلي الخريف والربيع ، لمح عن بُعدٍ ، قُرْبَ التلال ، وبين الأودية ، لطخات سود تشبه شامات ذوات القدود ، وهي تبدل أحياناً منظر السراب ، وتهدي التائه ، وتنعش السائر بمرآها ، وأمل وجود المأوى والقرى فيها. وهذه اللطخات هي بيوت البدو المصنوعة من شَعر المعز. واجتماع هذه البيوت يؤلف: الحواء أو الحلة أو النجع أو الدوار ، وفي اصطلاح الإفرنج: المخيم ، وكلها بمعنى قرية البدو أو منـزل البدو ، إلا أن هذه القرية مؤقتة متنقلة ، ومعدة إلى أن تزول بسرعة كما نشأت بسرعة ، والحلة لا تحوي العشيرة كلها ، بل تحوي في الغالب رهطاً أو فرقةً من العشيرة ، وأهل الحواضر إذا رأوا جمعاً من بيوت البدو قالوا رأينا: فريق عرب ، أو نجع عرب ، ويندر جداً أن تجتمع العشيرة كلها في حلة واحدة ، والبدو لا يستعملون كلمة خيمة ولا مضرب ولا فسطاط ولا غيرها مما جاء في كتب اللغة ، بل كلمة: بيت ، أو بيت شَعر فقط. وقد ورد في الكتاب العزيز وصف مساكن البدو وأثاثهم وأمتعتهم بعبارة في منتهى الرقة والجزالة ، وهي: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمْ مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَـٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَـٰثًا وَمَتَـٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

وبيوت الشَّعر حارة في الصيف ، باردة في الشتاء ، ولا تقي من الرطوبة والمطر كما ينبغي ، تخفق فيها الرياح وتهزها ، وقد تسقطها العواصف على رؤوس أصحابها ، لكن هذه البيوت على علاتها المذكورة ما برحت منذ آلاف السنين مأوى البدو ومسكنهم ، يطوونها وينشرون ، ويقوضونها وينصبون ، ويهيمون بها ويمدحون ، فمن المادحين لها: ميسون بنت بحدل الكلبية زوجة معاوية بن أبي سفيان ، وذلك رغم الترف والنعيم؛ اللذين غمرها بهما زوجها في قصرها المشرف على غوطة دمشق ورياضها ، فقد دخل عليها يوماً؛ فسمعها

تترنم في خدرها ، فأنصت إليها ، فإذا هي تقول :

لبيت تخفق الأرواح فيه ... أحب إليّ من قصر منيف
ولبس عباءة وتقر عيني ... أحب إليّ من لبس الشفوف
وكلب ينبح الطراقَ دوني ... أحب إليّ من قطّ ألوف
وأكل كسيرة في كسر بيتي ... أحب إليّ من أكل الرغيف
وأصوات الرياح بكل فجّ ... أحب إليّ من نقر الدفوف
وبكر يتبع الأظعانَ صعب ... أحب إليّ من بغل زفوف
وخرق من بني عمي نحيف ... أحب إليّ من عِلْج عنيف
خشونة عيشتي في البدو أشهى ... إلى نفسي من العيش الظريف
فما أبغي سوى وطني بديلاً ... فحسبي ذاك من وطن شريف

فلما سمع معاوية ذلك منها قال : ما رضيت بنت بحدل حتى جعلتني علجاً عنيفاً . ثم ردها إلى أهلها .

وتُنسج بيوت البدو من شعر المعزى ؛ الذي يجعل لها هذا اللون الأسود مع تموجات كستنوية غامقة . وهي تتألف من مستطيل كبير مؤلف من قطع طويلة تدعى : شقق ، جمع : شقة ، تخيط الواحدة بجانب الأخرى ، ويتكون منها : السقف ، ونساء البدو يصنعن الشقاق بأيديهن . وقد تشترى من بعض بلاد الشام ؛ التي اختصت بصنعها كقرية الشغر القديمة غربي حلب ويبرود شمالي دمشق ، والكرك في شرقي الأردن وغيرها . وللبيوت حبال ـ مرس ـ من القنب ، وأطناب : جمع طنب .

ويقوم السقف على أعمدة ؛ جمع عمود ، علوها يتراوح من المتر الواحد في الخربوش إلى الثلاثة أو الأربعة أمتار في بيوت الرؤساء الكبار ، وهي توضع في الخط المتوسط بامتداد الطول الأعظم للبيت . ويتألف البيت أيضاً من الرواق ، وهو قطعة طويلة من نسيج شعر المعزى ، أو وبر الحمل ، وعندهم أسياخ كبيرة من الحديد الخلال شكلها كحرف S الإفرنسي ، يربطون الرواق بها بطرفي السقف ، أو بطرف واحد منه حسب هبوب الرياح ، أو ورود أشعة الشمس ، ومنه كان لابد أن يظل بيت البدوي مفتوحاً من إحدى الجهات .

والشقق تكون من شَعر المعزى؛ لأن هذا الشَّعر لا يمتص الماء ، وإذا كان بيت الشَّعر ثقيلاً في الأصل؛ فلو ابتل نسيجه يصبح غير ممكن الحمل والنقل لو أنه من غير شَعر المعزى ، ونسيج هذا الشَّعر في لحمته وسداه ذو خيوط غليظة ، يؤلف حزماً متراصة جداً ، ويزداد تراصها حين هطول المطر حتى تصبح غير قابلة للنفوذ والرشح ، بيد أنه ممر للنور ، وحين سطوع الشمس بشدة يظهر للأشباح ظلال؛ ولذا يتعذر حسر الرأس تحته ، وهذا مما دعا بعض البدو أنصاف الحضر أن يتخذوا بيوتاً بيض من نسيج القطن الخاص بالخيام ، وهي أقل حرارة ، إلا أنها لا يمكن اتخاذها في الشتاء ، وتترك في المعمورة إلى حين العودة من نجعة الشتاء.

وبيوت التجار والباعة الملتحقين بالبدو ، وتكون من نسيج القطن الأبيض ومخروطية السقف وعمودية الجوانب ، وهي التي يسمونها (خيام) جمع خيمة ، وهم يضربونها في الغالب قرب بيت الشيخ ، ومن ثم كانت من علامات الاستهداء إليه ، وللأعمدة قيمة عظيمة لدى البدو ، وهي تعد روح البيت في البادية وقوامه.

ومنها قولهم: فلان عماد بيتنا ، وهي أيضاً كلمة طالت وكثرت دلت على الثروة ، والرفعة ، وعلى أن صاحبها طلبة الأضياف والزائرين ، وفي اللغة: فلان طويل العماد ، أي: بيته معلم لزائريه.

وفلان رفيع العماد ، أي: شريف لرفعة عماد بيته ، وأهل العماد أصحاب البيوت العالية الرفيعة ، ومن فوائد الأعمدة أن الرجل في البادية إذا أجرم وطورد ، فدخل بيتاً ، وقبض على عموده ، سَلِمَ ، وصار في حمى هذا البيت.

وأصغر البيوت ما ليس لها سوى عمود واحد ، وهذه هي بيوت الأرامل والطاعنين في السن الوحيدين ، والمنقطعين ، وبيوت الدخلاء والمستجيرين.

وأكثر ما تضرب هذه البيوت الصغيرة في جوار بيت الشيخ؛ لتبقى في كنفه ، وعلى مقربة من إحسانه.

ويكون لكل أسرة بيت واحد ، إلا كبار الرؤساء ، فإن لهم عدة بيوت

عظيمة ، وينتج مما ذكر أن مكانة البدوي وسعة حاله تعرف من عظمة بيته .

فإذا أقبلت على منزلة من منازل البدو ، وقصدت أعظم بيت فيه ، وقعت حتماً على بيت الشيخ ، أو على بيت كبير يماثل الشيخ .

وعدد الأعمدة يكون بحسب كبر البيت ، ولا يدخل على كل حال في الحساب العمودان اللذان في طرفي البيت ، وهما قلما يستعملان؛ لأن الطرفين يكونان في الغالب مائلين نحو الأرض بالأطناب ، بينما أعراب الديرة أنصاف الحضر يجعلونها مرفوعين والسقف ممتد باستقامة ، وهذا ما يجعلك أن تعين أصحاب هذه البيوت إن كانوا بدواً أم من أعراب الديرة ، وثمة علامة لتمييز البدو الرحل عن أولئك هي أن بيوت أعراب الديرة تكون أكبر وأوسع ، وأكثر أعمدة وأقساماً .

ثم إن بيوت البدو ذات أروقة؛ لأن البدو لا يبيعون أوبار إبلهم ، بل يستعملونها لنسج الأروقة . ونسيج وبر الإبل يكون أوسع خلايا منه في نسيج شَعر المعزى ، فوجود هذه الأروقة علامة أن البيوت بيوت بدو أقحاح . وقد امتازت عشيرة الأسبعة بأن أروقتها من وبر الإبل ، وذات خطوط بيض في الغالب .

وعلامة أخرى هي أن أعراب الديرة يتخذون لتفريق خدور النساء عن مكان الضيوف نسيجاً من القصب اسمه (زرب) ، وهذا لا يوجد عند البدو ، إلا لدى بيوت الكبراء ، وعيدان القصب تربط ببعضها بخيوط من الصوف ملونة ، وتجعل عالية ، والمسافات بين الأعمدة هي أطول منها لدى أعراب الديرة .

وبيت البدوي المتوسط الحال ذو عمودين ، وبيت الفقير والضعيف منهم ذو عمود واحد ، يستثنى من ذلك عشيرة الأرولة؛ التي أكثر بيوتها ذات عمود واحد؛ مما يجعل لحللهم منظراً كئيباً . وليس ذلك لقصر ذات يدهم ، فهم أغنياء يملكون عشرات الألوف من الإبل ، بل لأنهم لا يعنون بتربية الغنم إلا قليلاً ، واتساع بيوت البدو في شمال الشام من علائم تمايلهم نحو الحضارة ، وتدرجهم لتقليد أعراب الديرة؛ الذين يربون الغنم ، وهي تدرّ ريعاً أكثر من

ريع الإبل ، لاسيما بعد أن شاعت السيارات ، وزاد الإعراض عن أكل لحم الإبل في مصر.

وأكثر رؤساء عشائر الفرات تكون بيوتهم أوسع وأطول من بيوت كبار رؤساء البادية ، وليس ذلك لأنهم أغنى وأرفه حالاً ، بل لأنهم لا يؤوون إلى بيوت الشَّعر إلا في الشتاء ، أما في الصيف فإنهم يطوونها ، ويقيمون قرب الفرات في السبابيط ، جمع سيباط ، المصنوعة من سوق الأشجار وأغصانها ، لاسيما وأن نجعة هؤلاء وترحالهم قليل وغير ذي بال.

أما الحالة عند البدو الرحل فهي مختلفة جداً ، فالبيت لابد من تجزئته إلى قطع عديدة كلما قوّض ، ومن إعادة تركيبه كلما بني ، والبيت إذا صارت أعمدته أكثر من ثلاثة يغدو نقله متعذراً على بعير واحد.

وهذا الحل والربط يحتاجان ـ كما لا يخفى ـ لعدة أيادٍ عاملة لا يستطيع جَلْبها إلا الرؤساء والكبراء في العشيرة ، وهذا ما جعل وجود البيوت التي يتجاوز عدد أعمدتها الثلاثة في حكم النادر ، ويحتاج كل بيت ذي الأعمدة الثلاثة إلى اثني عشر حبلاً ، طولها ثلاثمئة متر بست أو سبع ليرات؛ مما يبلغ مجموعه خمساً وأربعين ليرة ذهبية.

وتختلف أسماء البيوت باختلاف عدد الأعمدة وقلتها وكثرتها ، فالبيت ذو العمود الواحد باستثناء العمودين الجانبيين يدعى: قطبة ، وإذا كان صغيراً ورثّاً ، وبدون عمود متوسط يدعى: خربوشاً ، كما هو لدى الأرولة وأمثالهم ، ذو العمودين يدعى: مقورن ، وفي بعض العشائر: جرنين أو مدوبل ، ودوبل الشيء بمعنى: كبره ، وزاد حجمه ، وإذا كان له ثلاثة أعمدة: مثولث ، أو خمسة: مخومس ، وهكذا مسوبع ، ومتوسع ، وأكثر رؤساء العشائر الكبيرة بيوتهم من صنف المسوبع ، ويبدو أن هذا العدد هو الحد الأقصى لدى عشائر الشام طراً ، وبيوت الذين يلونهم من الكبراء من صنف المخومس ، أو المثولث ، وهكذا. ومساحة هذه البيوت من ٦٠ ـ ١٠٠ متر مربع.

وقيل: إنه كان لإبراهيم باشا الكردي رئيس عشيرة الملي بيت ذو ستة عشر عموداً ، لا يزال ابنه محمد باشا يتخذه أحياناً ، وازدياد عدد الأعمدة أو نقصها

يدل على تبدل حال صاحب البيت من العسر إلى اليسر ، أو بالعكس ، ويلحظ الناظرون ذلك فوراً.

وللبيوت أوتاد ، ويغلق البيت من ورائه بالرواق ، وفي الأماكن الباردة في شمال الجزيرة ، وخاصة عند العشائر الكردية ، يكون للبيت رواقان ، وفي الجهة اليمنى واليسرى في البيت لا يكون رواق ، بل أطراف تدعى: الرفة ، وتجمع على: رفاف مؤلفة من قطع قديمة من مختلف الشقق ، أو من الأقمشة المتنوعة مخيط بعضها بجانب بعض ، وفي القطبة ، أي: البيت ذي العمود الواحد يدعى هذا العمود بالواسط ، وفيه عمود الإمام أو المقدم ، وعمود آخر من الخلف يسمى: منيحر.

وهم إذا أرادوا أن يبنوا بيت الشَّعر يمدون شقق السقف على الأرض ، ثم يغرزون الأوتاد على بعد ١٠ ـ ١٥ متر عنها ، وذلك لأجل أن يصلوا بينها وبين البيت بالحبال الممدودة ، فإذا تم ذلك يدخلون تحت شقق السقف ، ويرفعونها بالأعمدة ، وهذه الأعمدة تبقى مطلقة من دون ربط ، ثم يعلقون الأروقة الجانبية بالسقف.

أما هدم بيت الشَّعر أو تقويضه؛ فيجري على العكس مما عددناه.

وتركيب بيت الشَّعر على هذا النحو لا يحتمل أكثر من بضع دقائق ، ثم يقسم إذا كان صغيراً إلى قسمين: الربعة والمحرم ، وإذا كان كبيراً يقسم المحرم إلى عدة أقسام ، لكل من الزوجات قسم ، إذا كان صاحب البيت ذا عدة زوجات ، أو له أم أو أخوات يرى لزوماً التفريق بينهن ، وهذا التقسيم يكون بواسطة الحواجز المصنوعة من القصب ، أو المنسوجة من الشَّعر ، وهي المسماة بالقطع أو الساحة.

وجملة القول: إن للبدو كل الحق في المباهاة ببيوتهم ، والتعلق بحبها ، وأن يقولوا:

لبيـــتٌ تخفـــقُ الأرواحُ فيـــه أحـــبّ إلـــي مـــن قَصْـــرٍ منيـــفِ

لأنها أنسبُ مكان في البادية العاتية القاسية ، وأصلح مأوى للعيش القلق

الذي يقضيه البدو؛ لأن الحبال إذا شدت يبقى السقف ممتداً مهما بلغ علوه ، والبرد إذا قسا يميلون الأعمدة فيهبط السقف ، ويقترب من الأرض ، والحر إذا طغى يوقفون الأعمدة بانتصاب ، ويرفعون الشقة الجانبية (الرواق) ، وحينئذ تهب الريح ، ويحدث جريان ينعش الأنفاس.

والقاعدة العامة أن يوجه البيت نحو الشمس المشرقة ، وإذا كان هذا الاتجاه رديئاً بسبب الرياح مثلاً يسدون الشرق برواقه ، ويفتحون جهة الغرب ، وإذا شعروا بهبوب عاصفة رملية يدقون الأوتاد ، ويقوّونها ، ويضعون جميع الأثقال فوق الحبال؛ ليزداد وزنها ، فلا تعد العاصفة قادرة على العبث بشيء.

داخل البيت:

وينقسم داخل البيت إلى قسمين: الربعة أو الشق للرجال ، والمحرم أو الخدر للنساء ، ويفصل بين هذين القسمين حاجز من القصب اسمه: زرب ، وفي بعض بيوت الكبار يسدل فوق الزرب قطعة كبيرة اسمها: خدرة ، أو ساحة منسوجة من الصوف الملون ، أو الشَّعر الأسود النظيف ، ويتخللها نقوش بيضاء من القطن ، وتتفنن النساء في نسج هذه الحاجزة تفنناً غريباً ، والزرب الذي يفصل بين الربعة والمحرم يكون علوه قدر قامة إنسان ، وهو يحول دون رؤية الضيوف لنساء البيت ، وعند البدو الرحل يفصل هذين القسمين: النضيد ، وهو حاجز يعمل بأمتعة البيت. وهذه الأمتعة إذا كانت حين تنزيلها عن ظهور الإبل غير مرتبة تدعى: حلة ، وإذا رتبت وجعلت كحاجز تدعى: نضيداً ، وهي تتألف من العدول (الأكياس) المحتوية على المؤنة من الحب والطحين والسمن والبصل والتمر وأمثالها ، وعلى الفرش كاللحف والأغطية والغفول ، جمع: غفلة ، والبسط ، والقطيفات وهي ضرب من السجاد ، ومن الشف وهو غطاء ظهر الفرس ، ويكون من الصوف الرقيق ، والمخدات ، أي: الوسائد وغيرها.

وفي بيت الشيخ يكون الحاجز بين الربعة والمحرم جداراً من الوبر يدعى: القطع ، وفي منتهى قسم النساء ، وهو القسم الأيسر في الغالب يوضع الحوض والضروف ، وأحياناً يوضع القتاب ، وبين العمودين تعلق الهزازة ، وهي

أرجوحة الطفل ، وأمام البيت تحفر حفرة النار ، وعلى جانبها يكوم الرماد.

وفي قسم الرجال وأمامه تحفر حفرة القهوة ويدعونها: النقرة ، وتمد في داخله البسط واللحف للضيوف ، وتوضع المخدات والرحال للاستناد والاتكاء.

هذا؛ ويمتد تحت شقاق البيت على رأس الأعمدة شقة يبلغ عرضها اثني عشر سنتمتراً ، وتعرف تلك بالطريقة يربط في أطرافها حلقات موصولة بحبال ثخينة وطويلة من المرس ، وهذه الحبال تشد إلى أوتاد من الخشب الصلب تثبت البيت من جميع أطرافه في الأرض.

وعندهم القرب ، وهي آنية الماء المشهورة ، وتُصنع من جلود المعزى ، وهي أفضل آنية لتبريد الماء ، والمجارب: جمع مجربة ، وهي أكياسُ التبغ تصنع من جلود الغزلان وجداء المعز والغلاويين لشرب الدخان ، أما عودها فيصنع من شجر الأثل ، وهم يعلقون في الغليون سلسلة ، وفيها مبرد يدعى الإبرة؛ لتنظيف الحجر ، وملقط صغير لالتقاط الجمر ، وقد قل استعمال الغلايين عما قبل.

أما أسرجة الإبل والخيل والحمير فسرج الفرس يعرف عندهم بالسرج ، أو المرشحة ، أو المعركة. وسرج الحمار بالبردعة ، وسرج بعير الحمل بالوتر أو الحوية ، وسرج بعير الركوب بالغبيط أو الشداد ، وللغبيط حزامان من الشَّعر ، وهما البطان ، ويحزم بطن البعير والحق ، ويحزم مؤخر بطنه.

وعندهم الخراج: جمع خرج ، وهي أهم أثاثهم ، ولابد لهم منها في أسفارهم ، يصنعونها من الصوف الأبيض والملون أخضر وأصفر وأحمر ، ويصنعون لها شراشيب من الصوف الشَّعر ، والمزاود: جمع مزاودة تشبه فروة الخرج ، وتصنع مما يصنع منه الخرج ، وتستخدم في السفر لحمل الدقيق ، والمخالي: جمع مخلاة ، تصنع من الصوف أو الوبر ، وكل هذه الأنسجة الصوفية تحاك عندهم بأنوال بيضاء ، يشتغل بها الناس ، أو يشترونها من المدن.

* * *

حلال البدو أو منازلهم

الحلال: جمع حلة ، والحلَّة في اللغة العربية جماعة بيوت الناس ، والمنزلة موضوع النزول ، وهما تقابلان كلمة (مخيم أو معسكر) المستعملة في الجيوش. وهي تنصبّ عادة في صفين ، وإذا كانت كبيرة في صفوف متعددة ، ويسمى الصف الواحد سماطاً ، وقد اعتادوا نصب بيت الشيخ في الصف الغربي أو الصف الأوسط ، ويمتاز برفع شارعته عن بقية البيوت.

والشارعة هي العمود الأمامي من الربعة؛ لهذا يستطيع الضيوف أن يهتدوا إلى الربعة دون دليل؛ لأن الشارعة هي الدليل ، أما بقية أفراد العشيرة فتنصب بيوتها على جانبي بيت الشيخ ، وإذا كان بينهم غريب أو طنيب ـ كما هو معروف عندهم ـ فإن أحد أفراد العشيرة يتنازل له عن موقع بيته ، فيقيم ذلك الطنيب قرب بيت الشيخ معززاً مكرماً ، وتسمي بعض العشائر مضرب البيوت: الدوار ، والفسحة التي بين صفوف البيوت ، المراح ، حيث تمرح مواشيهم وفي الحل والترحال لا تنصب بيوت كبار رؤساء بتمامها في كل مرحلة ، وفي حالة الاستعجال في السير لا تنصب العشيرة بيوتها بتاتاً.

هذا ، ولا يستعمل البدو مصابيح وفوانيس للاستنارة إلا ما ندر عند بعض كبار الشيوخ والرؤساء ، وذلك لعجزهم عن حمل هذه الأدوات السريعة العطب ، وعن حمل صفائح النفط التي تحتاجها ، وهم يكادون يعجزون عما هو أهم من ذلك ، فما لهم ولزيادة الثقل ، ومن ناحية أخرى إن المكوث في الظلام أدعى للاستنارة عن أعين الرقباء والأعداء في الليل ، ولحفظ النظر ورؤية الأشباح في الظلام عن بعد. وهم إذا أحوجتهم الضرورة كورود رسالة هامة في الليل لابد من قراءتها ـ هذا إذا وجد من يقرأ ـ وضعوا قليلاً من السمن في إناء ، وأغمسوا فيه خرقة كالفتيل ، وأشعلوها ، فتشع نوراً ضئيلاً قد يكفي للتلمس ، والعثور على شيء صغير.

كذلك هم لا يستعملون وقوداً للتدفئة ، فالنساء يدفئن أنفسهن نهاراً بالحركة ، وليلاً بنار الطعام الذي يطبخنه ، أما الرجال فلا يرون الدفء إلا عندما يعمد طابخ القهوة إلى قبضة من الشوك ، أو القش ، أو الحشيش اليابس ، فيلقيها فوق الضرم؛ الذي قد يكون تحت المفورة من قبل. لكن هذه النار سريعة الهبوب والزوال لا تدفئ ولا تغني من برد.

وإذا كنت عندهم ضيفاً مكرماً؛ يستمرون على تغذية الضرم بهذا العشب ، ويقولون لك: (النار فاكهة الشتاء ، ومن لم يصدق يصطلي) ، ولكنك لا تستفيد سوى الدخان الذي يعمي الأبصار ، وقد يُحمى وجهك ويحمر ، ويبقى ظهرك متجلداً إذا لم تكن متدثراً بمعطف سميك ، أو بفروة ثقيلة ، ووقود البدو لا يتعدى الأغصان والفروع اليابسة؛ التي يلتقطها النساء ، وجذور بعض الجنبات والأنجم الصغيرة؛ التي يقتلعنها بالفؤوس ، ويجلبنها على رؤوسهن باسم حطب ، وإذا طال مكوث العشيرة في مكان ما ، يوقدون بعر الإبل ، وهو وقود جيد ، ومستمر ، وعديم الرائحة ، وقليل الدخان.

لباس رجال البدو:

البساطة غالبة على لباس البدو ، وخاصة أهل الطبقة الأولى كعنزة وشمر ، ولا فرق عندهم بين لبس الصيف والشتاء ، إلا أن الغني منهم يلبس عباءة رقيقة في الصيف اسمها (مزوية ، أو حسوية ، أو شالة عند الديرة) ، وفي الشتاء يزيد عليها كساء مبطناً ، أو جلداً من جلود الغنم المدبوغة ، يسمونه: (فروة ، أو صديرية).

ويتدارك البدوي لباسه مخيطاً خالصاً من البائع الشامي ، أو الكبيسي (نسبة إلى بلدة الكبيسة في العراق) ، وهؤلاء الباعة يلتحقون بالعشائر ، ويبيعونها أكثر من حاجاتهم المجلوبة من المدن.

يتألف لباس البدو من قميص واسع وطويل ، ثم فوقه قميص أطول وأوسع حتى القدم اسمه الثوب ، وهو ثوب أبيض ، أو ثوب مردون ، ذو أكمام عريضة طويلة ، فضفاضة مشقوقة تدعى الردون ، جمع: ردن ، ولون الثوب أبيض أو ترابي ، مدبوغ بقشر الرمان في مدن الشام أو عندهم ، ونسيجه من القطن ،

وكل حواشيه مكفوفة ، وكلما كانت الردون طويلة دلت على عراقة لابسها في البداوة ، فردون العنزي أطول منها عند عربان الديرة ، وإذا وقف لابسها ، وألقى يديه على جنبيه؛ يكاد ردنا ثوبه يمسّان الأرض ، ولكنهما في الغالب يعقدان وراء الظهر ، والسروال هو سروال فضفاض ، مما يلبسه كل القرويين وبعض عربان الديرة ، أما البدو الأقحاح فلا يلبسُون سراويل قط ، وربما عابوا لابسيها ، رجالهم ونساءهم في ذلك سواء ، ويزعمون أنها تحبس الهواء ، والبدوي لا يغسل ثيابه إلا كل شهرين أو ثلاثة مرة؛ إذ ليس لديه غيرها ، وقد يكون ذلك من ندرة وجود الماء عنده في أغلب الأحيان ، وقد يلبس البدوي فوق الثوب (الصاية أو الزبون) ، وهو عبارة عن قنباز من القماش الرقيق اللماع ، ويكون مفتوحاً من الأمام ، ومشقوقاً من أسفل الجانبين ، وأكمامه أو ردونه أقصر منها في الثوب.

وله في كل جانب جيوب تدعى مخبأ ، ويلبس البدوي فوق الصاية زناراً ، وهو حزام من الصوف عرضه نحو عشرة سنتيمترات ، وطوله بقدر ما يلف الخصر مرتين أو ثلاث ، وهو أبيض أو أحمر ، وإذا كان مزدوجاً ويسمح بوضع النقود ، وحفظها فاسمه كمر. ويلبس أيضاً فوق الصاية (محازم أو جنادات) تمر من فوق الأكتاف ، وهي من الجلد ، وفيها بيوت لوضع خرطوش البنادق أو المسدسات ، وهم لا يرفعون هذه الجنادات عنهم ، حتى حين النوم ، ومن عادة البدو نساءً ورجالاً أن يناموا بثيابهم كلها.

أما غطاء الرأس فيدعى: قضاضة أو كوفية وتجمع على قضايض ، وهي قطعة مربعة من نسيج القطن الأبيض تطوى ، وتوضع على الرأس تحت العقال ، وقد يكون تحتها طاقية ، والقضاضة تقابل الكوفية المعروفة والمعمولة من الحرير ذات الشراريب الطويلة المستعملة لدى أعراب الديرة ، والقيطية كلمة تدل على غطاء الرأس ، وجمعها: قياطي ، وهي تصنع من القطن السميك ذي اللون الأصفر أو الأسمر ، ويستعملها أعراب الديرة كثيراً والرحَّل ، ولاسيما الأسبعة منهم نادراً.

وغطاء الرأس يختلف عند كل عشيرة بلونه ونقشه واسمه العقال ،

ويدعون: (المعصب والبريم)، وهو ضفيرة ضخمة قليلاً أو كثيراً، سوداء اللون في الغالب توضع على الرأس فوق القضاضة لتمسكها، ويكون للعقال ذوائب من خلفه منتهية بهدبات، وطريقة لبسه ووضعه على الرأس مستقيماً، أو مائلاً إلى جنب تدل على معاني الرزانة والبغض، أو الحب أو عدم الاكتراث. والعقال يكون عند عربان الديرة غليظاً، بينما هو عند عنزة رفيعاً[1].

هذا ومعظم البدو يمشون حفاة، وبعضهم ينتعل الحدوة أو الكلاش، ويتمنطقون بالحقو وهو سير من الجلد مضفور، ويلبسون العباءة التي تنفعهم دثاراً ولباساً وفراشاً، ولوضع الحطب وعلف الدواب؛ ولغير ذلك.

وفي الشتاء يلبسون الفروة، وبعض الرؤساء والأغنياء يلبسون تحت الفروة (الدامر، أو القطشية)، وفي الشتاء، وحين ركوب الخيل، أو حضور الحفلات.

والدامر معطف قصير واسع من الجوخ الأزرق أو الأسود ليس له رقبة، أكمامه واسعة ومتدلية، وفي بطانته جيب لوضع كيس النقود أو ما ماثله، وأجمله ما صنع في مدينة حماة، وقد يكون مطرزاً، أو مزركشاً بخيوط ذهبية أو فضية، والنساء يلبسن ما يشبهه، ويدعونه: دراعة جوخ.

لباس النساء:

أما النساء فلهن عبي وفروات كالرجال، ولكن لا يستعملنها إلا في فصل الشتاء، وهن يلبسن على أبدانهن جلباناً من القطن يدعونه ثوب أسمر، يكون

---

(١) في كتاب (قبائل العرب في مصر) لأحمد لطفي السيد ص٣٥: ويختلف زي العرب الإفريقية عن زي العرب الآسيوية، فالعرب الإفريقية يضعون على رؤوسهم طربوشاً أحمر لا يعتمون عليه وبرناً تحته قميص، وقد يلبس بعضهم صديرياً. ويكاد الحرام يسود عرب المغرب جميعاً، وتصنع هذه الملابس في المغرب، ويشتريها العرب من الإسكندرية. أما أثاثهم من خيام وبسط فيغزله نساء العرب وينسجنه. أما العرب الآسيوية فالسائد في لباس رأسهم الكوفية والعقال؛ مما يصنع في بلاد الشام أو بلاد العرب؛ ولهذا يمكن التفريق بين المشارقة والمغاربة لأول وهلة، ويتلاقى كلاهما في أثاثهما من بسط وخيام، ويطلق على الجميع حين يسكنون الخيام: عرب الخيش، وحين يسكنون القرى: عرب الحيط، وهؤلاء الأخيرون كانوا في أول أمرهم بدواً، ثم زحفوا على الأراضي الزراعية، وسكنوها في خيامهم أولاً، ثم ابتنوا المساكن كما يبنيها الفلاحون. اهـ.

أسود اللون ، أو نيلياً حتماً ، ويكون طويل الذيل في الغالب يجرُّ على الأرض حين المشي ، وهن لا يغسلنه إلا كل عدة أشهر مرة؛ ولذلك يكثر القمل عند البدو ، وهم لا يأنفون منه ، ويعدونه من دلائل الصحة ، وجواذب الدم.

وفتيات البدو يشددن منطقة غليظة من الصوف يدعونها شويحي ، يلففنها فوق الثوب الأسمر ، والنساء يشددن الكمر الأحمر اللون ، وتلبس الفتيات منهن دراعة جوخ زرقاء اللون ، أو سوداء ، قصيرة الكمين ، ويضعن على رؤوسهن المقرونة ، وهي تقابل كوفية الرجال ، وتكون أوسع منها ومن الحرير الأسود ، وأطرافها ملونة ، وذات أهداب سود ، يجعلنها بشكل عمامة ، ويدعونها (عصبة أو قطمة) ، ويلبسنها تحت الشمبر ، وهو ضرب من المناديل الملونة ، يضعنه في مؤخرة الرأس؛ ليظهر من بين قطعتي القماش قسماً من خصال الشعر ، ويعقدون المقرونة وراء الرأس ، وهذا عند عنزة.

أما فتيات عربان الديرة فلا يلبسن الشمبر ، بل يضعن على رؤوسهن كوفية أو مقرونة دون أن يدورونها بشكل عصبة ، والشمبر قريشة عصبة طويلة عريضة من القطن أو الحرير الرقيق يلبسنه على رؤوسهن بشكل قطمة ، فيتدلى ذات اليمين وذات الشمال على الصدر وعلى الظهر.

وهن يتمنطقن بكمر مطاط ، يضعن فيه نقودهن.

وأكثر النساء يمشين حفاة ، أما في الشتاء فيلبسن حذاء كبيراً يدعى جزمة ، أو زربول من الجلد الأصفر أو الأحمر ، له من الأمام هدبات زرقاء ومتدلية ، وفي نعله مسامير ضخمة ، وهو لثقله يزحفن به زحفاً ، ويحدثن به قرقعة خاصة إذا سرن في شوارع المدن.

ولكل امرأة مكحلة ومرآة.

وحين العمل في الأشغال التي توسخ يلبسن قباً أصفر ، وهو كالثوب؛ إلا أن أكمامه أقصر ولونه أخضر ، ثم يسودّ ، ويتلوث بسرعة.

ويدخن النساء بالغليون الذي يصنعه الرعاة من الطين.

حالة المرأة في البادية:

النساء في البادية أكثر من الرجال عدداً ، وبالطبع هن ألين جانباً ، وأرقّ طبعاً ، ولسن مع ذلك دون الرجال نخوة وشهامة ، يطقن التعب ، وتحمل المشاق ، وتجشم المصاعب ، ويشاطرن رجالهن كل ضروب المتاعب ، فيقمن بكل إدارة بيوتهن ، ويساعدنهم حتى في غزواتهم ، ولهن بهم تعلّق شديد ، وقد يؤثرنهم على الوالدين والإخوان بخلاف الرجال ، فأول مقام عندهم لإخوتهم ووالديهم ، وعلى ذلك يقولون: إذا ذهب الولد والمرأة معاً فلهما عوض ، أما الأخ فلا عوض له.

والبدويات أشد تعلقاً بالبداوة من الرجال ، وعندهن من الأحكام السائرة أنه إذا طلبت إحدى بناتهم لرجل من الحضر أن تقول: صكاك باب ما أريدَنَّه ، أي أنه: إذا نام أغلق باب بيته؛ فهو إذاً جبان لا يليق بها.

وعندهن الزي (المودة ، أو الموضة) على نمط واحد يكاد لا يتغير ، فالبنات العذارى في أكثر الأوقات يقصصن الغرة أو الطرة ، ويبرزن شعورهن ما فوق الجبين إلى قرب قمة الرأس ، وإذا تزوجن أرخينها ، وسترن شعورهن بالمنديل ، وهي علامة فارقة بين البكر والثيب ، ويستعملن بلا تكلف أموراً كثيرة لو خطرت ببال نساء المدن لصفقن لها بالأيدي ، فالأردان المتسعة مستعملة في البادية ، وكذلك الأردان الضيقة ذلك ليجمعن بين الهيئتين ، فالنساء الثريات يلبسن الثوب الضيق الأردان ، ويرتدين فوقه بكساء متسع الأردان ، ضافي الحواشي.

أما الذيول الطويلة المنحصر استعمالها بين بنات المدن في ملابس العرس؛ فلها استعمال شائع في البادية ، وجر الذيول في لسان الشعر؛ لا يخلو منه كلام منظوم ، وقد يلبسن العباءة والزبون ، ولبس العباءة لا يزال مستعملاً عند نساء العراق المدنيات والقرويات والبدويات على السواء ، والبدويات ومثلهن نساء العراق أيضاً يلبسن من الحلي الضخم الثقيل كالخلاخل والحجول الكبيرة ، يصففنها ذهباً وفضة كل على ما وسعته حاله ، ويعلقن الخزامات المتسعة في أنوفهن ، وأكثرها مصنوع من الذهب مرصع بفصوص الفيروز الصغيرة ، ولهن

أقراط طويلة وعريضة ، ويضعن الذهب والفضة عقوداً وقلادات طويلة على ضروب شتى ، ويكثرن في القلادات من النقود المضروبة القديمة ، كالغازي والمحمودي ، ينظمنها صفوفاً ، ويدلينها من العنق إلى الصدر .

والجمال في البدويات قليل في أكثر العشائر ، وموجود في بعضها ، وقد يكون زائداً عند الأقل ، وهو إذا وجد تراه طبيعياً جذاباً ، وقديماً افتتن به الشاعر الشهير المتنبي فقال :

ما أوجهُ الحضرِ المستحسنات به ... كأوجهِ البدوياتِ الرَّعابيبِ
حسنُ الحضارة مجلوبٌ بتطرية ... وفي البداوة حسنٌ غير مجلوبِ

. . . إلخ

وفي قول المتنبي هذا مبالغة ظاهرة؛ لأن نساء البدو ما خرجن عن كونهن من بنات حواء؛ اللاتي يتوسلن لإظهار محاسنهن بالتزيين والتطرية . وهن وإن لم يبلغن شأو الحضريات بذلك، تجد عندهن من أنواع التزيين : الحناء ، فهي شائعة الاستعمال ، يصبغن بها الأكف والأصابع والأظفار وأخمص الأقدام ، وقد يُرَجِّجْنَ حواجبهن ، ويكحلن عيونهن بالإثمد ، ولهن ولعٌ خاص بالوشم ، يحلين بالصبغة الزرقاء جلود أيديهن ، بنقوش مختلفة من ظهر الكف إلى المعصم إلى الكوع ، ويجعلن نقوطاً صغيرة في منتصف الجبهة وطرف الأنف والذقن ، وربما وشمن الشفاه السفلى ، والوجنات ، والصدر ، والنهود ، والأقدام .

أما أخلاق البدويات فهي حسنة في الجملة ، وخيرُ ما يزينهن عزة النفس ، وشدة التعلق بالأهل والأزواج ، وقيامهن مقامهم في أكثر الأعمال ، ولا يقوم الرجال بشيء من أعمالهن ، فاشتغال البدوي مقصور على الغارات والغزوات ، أو على الأعمال الخارجية ، والمرأة رفيقة له ومعينة في كثير منها ، وجميع ما بقي مفروض على المرأة؛ بحيث لو انقطع الرجل مدة عن طلب الرزق لكانت هي ربة المنزل مكلفة بكل ما تستلزمه إدارة المعيشة والتربية ، فاعتماده عليها تام ، أو يكاد يكون تاماً ، واعتمادها عليه ناقص ، ومع هذا كله تراه متبرماً ، وغير راضٍ في الغالب ، وقد يضربها ، أو يلكمها ،

أو يشتمها لأتفه الأسباب ، ولا ينظر إليها في الغالب إلا أنها مطية الشهوة ، ومثابة المتعة والخدمة ، وعليها له الطاعة العمياء .

والمرأة بنظر البدو محترمة ، مصونة من التعدي ، لا يجوز أن تمس بأذى بالغاً ما بلغت الخصومة بين العشائر ، وقد درجوا على اتخاذ النساء رسلاً بين الفريقين المتحاربين ، وكان تبعاً لقاعدة : بقاء الأنسب .

والأولاد الذين يفلتون من الموت يربون في بيت أبيهم ، أو مع أمهم إذا كانت مطلقة ، ويبقون في حضنها سبع سنوات إذا كانوا صبياناً ، وتسع سنوات إذا كن بناتاً ، ثم يأتون إلى بيت أبيهم ولا يخرجون منه إلا أن تتزوج البنت ، فتلحق بعلها ، أو يتزوج الصبي ، ويروح بانياً لنفسه بيتاً جديداً يترأسه هو في دوره .

والبدوية وإن لم يكن لها محل في مجالس زوجها ، ولا يباح لها البهو والريعة المخصصة للرجال ، ولا يجوز أبداً أن يسأل الغريب عنها وعن حالتها ، إلا أن ذلك لا يعني أن ليس لها أي محل من الاشتراك ، أو إبداء الرأي ، فيما إذا باع زوجها من حلاله ، أو تصرف في ماله مما لا يرضيها .

والبدوية شريفة لها منـزلة رفيعة في قلوب الجميع ، وكثيراً ما تجزم السيدات منهن في أمور كثيرة مهمة؛ مما يدلّ على أن لكلمتهن في البيت أو العشيرة شأناً خطيراً .

والبدويات سافرات بالطبع لا يستعملن البرقع ، يتجولن في المخيمات وفي البراري بكل حرية ، والسجوف التي توضع على هوادجهن ليست لحجابهن ، بل لرد الشمس والمطر عنهن ، والضرورة أو الحاجة في حياة البدو تدعو إلى الاتصال الدائم والاختلاط المستمر بين الجنسين ، سواء في حلهم أو ترحالهم ، وفي الأفراح والأعراس يختلط القوم ، ويشتركون جميعاً ، وهم في هذه الحالة بمنـزلة عائلة واحدة ، وكذا في الأتراح والرزايا العامة ، كالغزو ، وهجوم الأعداء ، أو موت عزيز وقتله ، وفي الجيرة وسكنى الخيام التي لا سبيل لحجبها وتغطيتها ، كل هذا من دواعي الاختلاط وسبل التعارف والتحابب في الزواج ، مع العلم أنه محاط بسياج قوي من الصون والعفاف

والخوف ، وإلا تعرض الرجل أو المرأة إذا شذّا لأخطار قد تشترك فيها جميع أفراد العشيرة بالتناطح ، والتطاحن.

أما تربية الأولاد في بيوت البدو ففي نهاية القصور ، غير أنهم يعوّدون احترام الوالدين ، وإكرام الشيوخ والكهول ، ومن آدابهم أن لا يدخن الولد أمام أبيه ، ولا يأكل ، أو يتكلم ، أو يعترض ، إلا أن كثيراً منهم أصبح لا يراعي هذه القواعد الحسنة.

صحة البدو:

يُداوي البدو مرضاهم بما تعلّموه من أجدادهم بالوصفات ، وتثقفوه بطُول الزمن في مداواة الجروح ، ويداوون أكثر الأمراض المستعصية بالكي ، وعندهم: آخر الدواء الكي ، أو بأدهان وحشائش يعرفونها ، وأحذق أطبائهم: من عشيرة الصليب ، فعند هؤلاء وعند بعض العشائر أهل خبرة في الطب من النساء والرجال ، وجميع هؤلاء لا يعرفون من الطب إلا المعالجة بمخ عظام البعير ، وبالكي. فالمخ يستعمل بمنـزلة دهان مروخ ، أو مرهم لأنواع الأمراض الخارجية ، أو الأدواء الباطنية ذات الأثر الخارجي ، كداء المفاصل والرثية والنقرس والحضار ونحوها ، وكل ما لا يُعالَجُ يداوى بالكي.

وطريقة الكي عندهم: أن تؤخذ قطعة صغيرة من ثوب أزرق صبغ بالنيل ـ لا من غيره ـ ثم تلف هذه القطعة على نفسها لفات متعددة؛ حتى تغدو كالأنبوبة دقيقة الرأس ، ثم يشعل هذا الرأس ، ويكوى المريض بالخرقة في أنحاء شتى من جسمه معلومة عندهم ، بموجب نوعية المرض وموطنه ، فالداء الفلاني مثلاً يكوى المريض في كتفه وذراعه وظهره ، وللداء الآخر من ساقه وظاهر قدمه ومقدم صدره ، إلى غير ذلك بموجب قواعد يعرفها الكاوي ، وربما كان هذا الكي في فسحة معلومة من الجسم ، فيقوم مقام حراقة أو لزاقة أو لبخة ، أو نحو ذلك من مصطلحات الطب الحديث ، فيحدث هذا الحرق حويصلات ممتلئة ماءً ، فإذا أنضحت وسال ما بها شفي المريض.

وقد تبدل الخرقة النيلية بحديدة حارة ، فيتصرف بها الكاوي تصرفه بالخرقة الزرقاء ، وقد تبدل الحديدة بالصوفان أيضاً ، ومن نظر إلى شكل الحديدة أو

الخرقة أو الصوفان علم أن آثار الكي تكون مختلفة الشكل والهيئة والقدر ، فمنها مستديرة ، أو مستطيلة ، أو مستعرضة ، أو غير ذلك .

على أن أمراض البدو قليلة بالنسبة لخشونة عيشهم ، وجشوبة طعامهم ، وذلك لمكان الهواء النقي والشمس المطهرة في أجسامهم ، ولندرة ما يطهون من الأطعمة المركبة من حامض وحلو ، وحار وبارد ، ولمحافظتهم على العفاف ، وعنايتهم بالزواج الباكر ، ولقلة الهموم التي تساورهم ، وما تساور في العادة إلا سكان المدن والقرى؛ ممن يفقهون واجبات الحياة ، ويكدحون في طلب المعاش ، ولا يزالون مأخوذين بحب التقليد .

والبدو أسنانهم وأضراسهم سليمة براقة ، للطف أخلاطهم وتخليطهم ، ولو راعوا النظافة وسائر شروط الصحة ، وخلصوا من القمل الذي لا يفارقهم؛ لعاشوا بلا مرض ، وعمروا أكثر .

ومن الغريب أن البدوي يشيخ ويهرم سريعاً ، فيتغضن جلده ، ويتشنج قبل أوانه في الهواء الطلق ، ولا يناهز الأربعين سنة وإلا وقد وَخَطَهُ الشيب ، وإذا بلغ الخمسين هرم هرماً بيناً ، ولا يبلغ أحدهم الستين إلا نادراً. ولقناعتهم ورضائهم باليسير من الطعام ، وقلة أمراضهم ، وغلبة الصحة والجَلَد عليهم ، يكون فكرهم دائماً رائقاً ، وحافظتهم واسعة ، وخواطرهم متنبهة .

وقد تعلموا منذ نعومة أظفارهم اتخاذ الأرض فراشاً ، واحتمال حرارة الشمس المتوقدة ، والنوم غراراً ، والصبر على الجوع والظمأ ولو في حماوة القيظ .

وهم لا يتعاطون المسكرات ، وأغلب شربهم الشنين ، واللبن الحقين؛ الذي يهز معاطف الإنسان بدون أن يسكره ، وهم في الغالب لا يأكلون إلا مرة واحدة في النهار ، هي الوجبة ، وقدرها شيء زهيد بالنظر إلى ما يأكله أهل الحضر من كثرة الألوان وغيرها .

ومن المؤسف أن يكون المرض الإفرنجي (الزهري) منتشراً جداً بين عشائر الفرات المعروفين بالشوايا ، وتكاد تكون نسبته ٨٠ بالمئة فيما ذكر ، ويسمونه

(البجل) ، إلا أنه على توالي الأجيال قد قلت فاعليته في أجسام المبتلين منهم به ، وخف ظهور أعراضه الخارجية في أبدانهم عما قبل.

ويذكر المقدم (مولر) أن البدو إذا كانوا عطلاً عن كل صناعة وحركة ، فهم يجهلون الرياضة البدنية (السبور) ، فيخسرون رشاقة الشباب بأقرب وقت ، ويكونون عديمي الحذاقة ، بطيئي الحركة.

وعامة البدو يكونون هزلى ، نحاف الأبدان ، وخاصتهم سمان من قلة الحركة والرياضة؛ التي يعدونها مُحِطَّة بكبريائهم.

ثم إن البدو على خلاف ما يشاع عنهم أنهم ضعيفو البصر ، ولعل ذلك من وهج الشمس ، أو ذرات الرمل أكثر من أنه مرض. ومن ثم إذا وجد بينهم من هو حديد البصر ، نال شهرة ومكانة لاسيما في الغزوات ، ولأجل هذا أيضاً يقتني رؤساؤهم النظارات الحربية ، ويعدونها من أثمن ما يهدى إليهم.

وفي البدو جراحون يعالجون الجراح التي يصابون بها في غزواتهم ، فهم يخيطونها ويغسلونها كل يوم بمستحلب بعر الحمير مدة أربعة أيام ، ويغلون البصل بالماء ويصفونه ، ويغسلون به الجراح ، ويسقون القليل منه لمنع نقض الجرح ، ودفع أذى الرائحة ، ثم يغلون المر بالسمن ، ويجعلونه دهاناً ، فيدهنون الجرح أربعين يوماً حتى يبرأ.

ومما يخشاه البدو في بعض السنين الأوبئة الخبيثة التي تنتشر في البادية أحياناً بسرعة غريبة ، ومن أمراضهم الطاعون ، والهواء الأصفر ، والجدري ، فتهلع لها قلوبهم رعدة وجزعاً ، ويفرُّون من مضاربهم تاركين مرضاهم في سكرات الموت ، يتقلبون على فراش المنون ، بعد أن يضعوا لهم ماء وزاداً ، وقد يعهدون بالمريض إذا كان عزيزاً إلى إحدى العجائز لتعنى بأمره ريثما يشفى ، أو يموت. وبينما نراهم أسوداً في الحروب ، قساة القلوب على احتمال نكبات الدهر ، إذ نجدهم في الأمراض العامة أجبن الخلق ، وأسرعهم إلى الهرب ، ولشدة ما هم عليه من الخوف يلجؤون إلى الذبائح كي يستنهضوا عزائم الأرواح لمساعدتهم ، وتلك الذبائح ذبائح الفدو أو الفداء؛ لأنهم بها يفدون أنفسهم من الموت الزؤام.

الزواج:

يتزوج البدوي بين سن ١٥ و٢٥ ، وقلما يتأخر إلى ٣٠ سنة ، بل ربما سبق الزواج هذا الأجل ، والبدوي ينتخب خطيبته خلال الصدف التي تبعثها حياة الحل والترحال ، واختلاط الجنسين ، وتعارفهما منذ الصغر ، والبنات البدويات يتزوجن في سن مبكر جداً ، وقبل الحضريات بكثير؛ لأن عيش البداوة وإقليم البادية ينميانهن بسرعة ، وينضج استعدادهن في وقت وجيز ، وحتى إنهما يعجلان بشيخوخة المرأة وهرمها ، وعلى كل حال لا تستشار الفتاة البدوية في زواجها ، ولا تُسأل حين خطبتها؛ لأن الرأي لوليها يعطيها لمن يشاء ، ويبيعها بيع السلع لمن أراد ، أو لمن يدفع له أكثر.

والزواج يتم بعقد ينطبق على القاعدة الشرعية بإيجاب وقبول ، وعلى الصورة الآتية: وهي: حينما يرغب أحد الناس بالزواج من ابنة الآخر؛ يرسل إليها أشخاصاً يستمزجون والديها وأولياءها ، فإذا قبلت طلبته مبدئياً يستصحب جماعة من ذوي الوجاهة ، ويذهب بهم إلى منـزل والد البنت أو وليها ، ومعهم ما يلزم للطعام من ذبيحة وبرغل وطحين وسمن وقهوة. وهناك عقب الوصول والنـزوح؛ يفتح متقدم الجماعة البحث مخاطباً والد البنت أو وليها هكذا: (جيناك طالبين ، ومن عندك إن شاء الله ما نعود خايبين) ، فيجيبه والد البنت: (حياكم الله ، القمراء أمامكم ، والظلمة قفاكم).

وعندها يعلنون الموضوع الذي جاؤوا من أجله ، وهو على الأغلب يجيبهم إلى طلبهم ، وأنه وهبها الخاطب ، فيجيبه أولياء الخطيب: إننا نقابل عملك هذا بمكافأة كذا من المال ، أو الحلال (الماشية) ، ويطول الحديث على المهر ، وهو ثمن الابنة. والمهور عند البدو غالية جداً يا للأسف ، فالعروس تشترى بأثمان باهظة ، وربما بلغ ثمنها لدى الأغنياء منهم ٦٠ ـ ١٠٠ ليرة ذهبية ، ونحو نصف ذلك عند الفقراء ، وقد يدفعون ما يعادل هذه النقود من الغنم أو الإبل أو الخيل أو الحبوب أو البنادق، وقد يحتدم الجدالُ على المهر، فكأن ولي الخطيب يشتري بهيمة وذلك يبيعها ، هذا يطلب وذاك يدفع قليلاً.

فإذا تم الاتفاق يكلفون أحد الحضور بتلاوة الفاتحة ، ثم يضع ولي الخطيب

يده بيد ولي البنت ، ويقول أحدهم للآخر: أزوجت ابنتك فلانة إلى فلان على سنة الله ورسوله؟ فيجيبه الثاني: زوجتها ، فيبارك لهم الحاضرون ، ويقوم أقارب الخطيب ، ويذبحون رأس الغنم الذي أحضروه ، فيقال حينئذ: (فلان ذبح على فلانة) أي: خطبها من والدها ، وعند الشرارات والروالة ينضحون رأس المرأة ويدها بالدم. ثم يهيئون الطعام والقهوة ، ويقدمونها إلى الحضور ، وبعد أن يأكل الجميع ويشربون ، يربط الخطيب ليرة ذهبية في طرف كوفية حريرية ، ويقدمها لخطيبته دلالة على أن روابط المحبة استوثقت عراها ، فلا يفكها إلا الموت ، ثم ينصرف كل إلى بيته ، ويستعد الخطيبان للزواج.

ويذكر عن الشرارات وأمثالهم المتوغلين في البوادي إذا أرادوا أن يقترنوا بالزواج؛ لا يذبحون ذبيحة ، بل يضع الخطيب في قبضته اليمين حنطة ، وتطبق المخطوبة يدها فوقها ، (فيقول الشاب: أتقبليني لك رجلاً على سنة الله ورسوله ، فتقول: قبلتك ، ثم تعيد هي السؤال نفسه: أتقبلني لك امرأة على سنة الله ورسوله ، فيجيب: قبلتك ، فيقول: بحق البر وخالق البر لا توق ولا نوق ، هي سنة الله ورسوله ، ورباط العيش ، أنا لك زوج وأنت لي حليلة).

والبدو يعتبرون الذبيحة ضرورية في عقد الزواج؛ لأنها تصد الأب عن طلب الزيادة في المهر.

هذا المهر الذي يتفق عليه يأخذه أبو البنت ، وهي لا يصيبها شيء ، وفي حالة زواج الفتاة خارج العشيرة تأخذ هي نصف المهر ، ولا يتم عقد الزواج ما لم يدفع نصف المهر مقدماً.

والعروس تأتي معها بجهاز يختلف حسب ثروتها ، ومبلغ المهر عند عنـزة يختلف كثيراً من بعير إلى عشرة أباعر مع عدد من الغنم ، فهو لا يكون عندهم نقداً ، أما عند أعراب الديرة فهو بالنقد كما قدمنا ، وذكرنا مقداره الباهظ أحياناً ، وقد يكون بالغنم والإبل معاً ، ويلحظ أن المهر عند عنـزة لا يعين إلا فيما ندر؛ لأن تعيينه عندهم يعد معيباً ، ويهدي العريس أم العروس هدية تختلف من بعير إلى عدة أباعر ، ولا يدفع أي مهر إذا تبادل رجلان أختيهما ،

وإذا كان للعروس ابن عم فله حق الرجحان ، أما إذا كانت هي تفضل غيره عليه؛ فلابن العم حق بطلب المهر لنفسه ، ويعد هذا ثأراً لحرمانه .

الطلاق:

أغلب ما يكون للبدوي امرأة واحدة ، ولا يتزوج عليها إلا إذا كانت عاقراً ولا يريد أن يطلقها ، فتعدد الزوجات عند البداوة أكثر ما يقع عند كبار الشيوخ ، فلهؤلاء في أغلب الأحيان ثلاث نساء أو أربع ، وذكر عند بعضهم أنه كان لديه ١٠ ـ ٣٥ زوجة ، وهم يفعلون ذلك لأسباب منها سياسية ليتصلوا ببيت شهير مثلاً ، ومنها كثرة ما يحتاجونه من أماكن النزول والحل والترحال إلى هنا وهناك ، ومن ثم تجد لهم عدة زوجات لدى فرق مختلفة ، أو عشائر متباينة؛ كلما زاروها نزلوا عند زوجتهم الباقية قرب أهلها .

ويقول بركهارت في كتابه (رحلة في بلاد العرب) : إن أكثر الأعراب يكتفون بزوجة واحدة ، بيد أنهم مغرمون جداً بتكرار الزواج تخفيفاً لوطأة الزواج الموحد ، وتغييراً للفراش في زعمهم ، وهم ينتهزون القاعدة الإسلامية التي تجيز لهم الطلاق ، ويسيئون استعمالها كثيراً ، فهم يبدلون زوجاتهم على التوالي .

فإذا غضب الزوج منهم على زوجته ولو لسبب تافه ، وأراد أن يطلقها ، يكفي أن يقول لها : (أنت طالق) ، فيعطيها حينئذ ناقة ، ويبعثها إلى بيت أهلها ، وهو لا يجبر على ذكر السبب الذي دفعه لعمله هذا ، كما أنه هو في التالي لا يعزي أي فضيحة للمرأة أو أهلها . وكل الناس يعذرون الزوج بقولهم : لم يحبها ، وقد يتزوج هذا الرجل امرأة أخرى في اليوم ذاته .

وحوادث الطلاق عند عنزة كثيرة جداً حتى في إبان الحمل . والمرأة يمكن أن تتزوج وتطلق ثلاث أو أربع مرات دون أن تمسها أدنى ريبة أو قولة .

وقد صادفت من الأعراب في سن الخامسة والأربعين من تزوج أو طلق خمسين امرأة : وكل امرئ منهم في مقدوره أن يستغني عن ثمن بعير إلا ويطلق ، ويبدل من النساء بالقدر الذي يشتهيه ، وتسمح الشريعة للمرأة أيضاً إذا لم تجد نفسها سعيدة في بيت بعلها بأن تطلب طلاقها ، وتلجأ إلى بيت

أهلها ، ويمكن للزوج حينئذ أن يعيدها إلى بيته إذا وعدها وأرضاها بإعطاء ثياب ، أو حلق ، أو سجاد ذي قيمة .

أما إذا رفضت لا يحق له أن يقسرها ؛ لأن القسر في نظر أهلها يعد تجاوزاً وإهانة . وفي هذه الحالة جل ما يستطيع الزوج أن يعمله هو أن لا يلفظ كلمة الطلاق فتبقى متمنعة عن الزواج بغيره . ويجربون وقتئذ إقناع الزوج للطلاق بأن يهدوه إبلاً ، ولكنه إذا ظل معانداً يحكم على المرأة أن تعيش وحدها ، ويسمون المرأة التي على هذه الحالة طموحاً ، ومثل هؤلاء النساء كثير لدى البدو . لكن لا يمكن قط أن يوجد عندهم بنات أبكار عوانس ، وإذا مات رجل ، وترملت امرأته يتقدم غالباً أخوه لزواجها . لكن العادة لا تجبر هذا الأخ ولا المرأة على الزواج ، والأخ لا يمكنه أن يمنع أرملة أخيه من الزواج برجل غيره ، على أنه من النادر أن ترفض الزواج به ؛ لأن ذلك يحفظ ثروة العائلة من الضياع .

وللجار حق الرجحان في زواج جارته ، وإن كان غير مجبور على الزواج بها . لكنها هي لا تستطيع أن تتزوج غيره إلا برضائه .

إن سهولة الطلاق التي ذكرناها قد أدت إلى انحلال روابط الأسرة . وإن تبديل الزوجات تكراراً قد أدى إلى أن تهتك أسرار الآباء والأولاد في العشيرة ، وأن ينتشر الحسد والبغضاء بينهم ، ولا حاجة بعد إلى سرد النتائج التي تحدث في الأخلاق من جراء ذلك .

ومع هذا كله ، فإن البدو يبدون احتراماً زائداً نحو والديهم ، كما أن لهم عطفاً خاصاً نحو أمهاتهم ، وإذا حدث شجار عائلي ، كثيراً ما يقفون بجانبهن ضد آبائهم : وكثيراً ما يطرد الآباء أبناءهم من جراء هذا الوقوف . ا هـ .

وفي كتاب (عشائر العراق) لعباس العزاوي أن البدو يعنون كثيراً باختيار الزوجة ، ومراعاة أصلها ، وعراقة نسبها ، وعندهم من الأمثال : (العرق دساس ، وثلثا الولد لخاله ، و بنت الذلول ذلول) . وعندهم الأمثال التي تحضّ على الزواج ، والإكثار من تكراره ؛ ليكون للمرء أولاد يكيد بهم أعداءه ، ويقهر أخصامه فيقولون : (خذ من النسا وكيد العدا) ، وهم يلتزمون الأصل

الصريح ، ولا يراعون الحسن والحب بقدره. ويقولون: مضرباً ، لمن أخواله ليس من أعمامه أو من أصل رديء ، وهو المعروف بالهجين. ا هـ.

* * *

قضاء الوقت واللهو عند البدو

أصاب المتنبي في وصف عيشة البدو ، وكيفية قضائهم الوقت بالأبيات الآتية ، فقد قال عن لسانهم :

إن أعشبت روضة رعيناها أو ذكرت حلة غزوناها
أو عرضت عانة مقزعة صدنا بأخرى الجياد أولاها
أو عبرت هجمة بنا تركت تكوس بين الشروب عقراها
والخيل مطرودة وطاردة تجر طول القنا وقطراها
يعجبها قتل الكماة ولا ينظرها الدهر بعد قتلاها

هذا ما كان عليه البدو قبلاً ، أيام السيف والسنان والخيل والعنان ، رعي رياض ، وغزو وركوب جياد ، وصيد وقنص ، وطراد وجلاد ، أما اليوم وبعد انقطاع سبل الغزو ، وتطور ظروف العيش ، أصبح البدوي لا يكاد يعمل عملاً مذكوراً إلا إذا رعى الإبل أو الغنم ، أو جلب الغلال وفرش البيت ، وفي الغالب يرى ماشيته ترعى أمامه ، أو على مقربة منه ، يراقبها الرعاة ويدارونها من دونه ، وكل أعمال البيت تقوم بها النساء ، أما الرجل فلا شغل يدوي يلهيه ، ولا صناعة أو حركة تسليه ، ولا كتاب أو صحيفة يقرؤها ، فما له إذاً سوى الاضطجاع والاستمتاع بمنظر البراري الشاسعة ، وأشعة الشمس الساطعة ، وهو يترقب مجيء الضيوف إلى بيت الشيخ ، فيسعى لحضور مجالسهم ، ويصغي إلى ما يأتون به من الأخبار ، والحوادث الطريفة .

وأحاديث البدو لا تخرج عن موضوعات الغنم والإبل والماء والجو والأمطار ، وبعض الأمور المتعلقة بحياتهم اليومية ، أو العائدة إلى العشيرة الفلانية ، أو الشخص الفلاني ، يتخللها نقد حيناً ، وتقريظ حيناً آخر ، ثم موضوعات لحل المشاكل الحادثة بين أفراد العشيرة لخطف امرأة ، أو اعتداء

شخصٍ على شخص آخر ، أو فرار فتاة ، إلى ما يماثل ذلك ، تتخللها مناقشة حادة تارةً ، وهادئة أخرى .

والبدوي المعروف بأنه أذكى وأنبه من الفلاحين أهل القرى يعرف من الأخبار؛ التي تهمه من أنباء العالم ما ينبغي الإحاطة به ، ويتناقله بسرعة البرق ، حتى إن ما يحدث في الحجاز أو العراق كان يصل خبره إلى ابن بادية الشام ، وما وراءه من الأعراب قبل أن تصل القوافل أو البريد ، فينقل الخبر في الأفواه من فم إلى فم ، ويسمون الأخبار (العلوم) ، وأول ما يسأل البدوي في البادية أو المعمورة عن العلوم .

وإذا لم يكن عند البدوي ما يتسلى به من القصص والأخبار التي تكون في العادة نمطاً واحداً يأخذ شاعر العشيرة ربابة يضرب عليها ، ويفكههم من محفوظه أو نظمه ، بأشعار يدورها أكثرها حول المآثر والمفاخر التي جرت لمشاهير الفرسان والغزاة ، والانتصارات التي أحرزوها في ميادين البطولة والبسالة ، أو الكرم والأريحية ، كما يدور بعضها حول وقائع الحب والهيام ، ينشدهم كل ذلك بلهجتهم البدوية ، وأنغامهم الفطرية ، بأسلوب لطيف شجي يأخذ بمجامع قلوبهم ، وتترنح له أعطافهم حماساً وطرباً ، وما عدا هذا النشيد أو القصيد الذي يسمعونه ، فإن لديهم ألعاباً كثيرة يتسلون بها ، كما أنهم يتسلون أحياناً بسباق الخيل يطلقونها فيروا الفائز منها ، أو بالعراضة وهي أن تجتمع الخيل مستعرضة تلعب أمام نساء العشيرة ، ويتسلون تارةً بالرقص؛ الذي يجرونه في الأعراس وحفلات الختان ، وفي أيام الربيع وأوقات المتعة والراحة ، والرقص معروف عند البدو واسمه (الدحة) يقابله عند عربان الديرة ، وأهل القرى (الدبكة) و (السحجة) .

والدحة رقصة بأوضاع خاصة ، وأصول مألوفة ، تقوم بها بنات العشيرة ، تتقدم الواحدة تلو الأخرى ، وتلعب دورها فتمسك سيفاً في الغالب والمتفرجون في الجانبين ، ويقال لهذه اللاعبة (الحاشي) ، وتوصف بأوصاف جميلة فتتقدم ، والقوم حولها كحلقة طولانية ، وتكون هي في الوسط ، وهناك قصاد ، (منشدون) ودحاحة (هم الذين يرددون مع القصاد ، ويختمون كل دور

بكلمة: دحي ، دحي) ، وخلال هذا الرقص لا يقع ممن أحد قط ما يخالف الآداب ، لا في الفعل ولا بالقول.

والمنتدي الوحيد لرجال العشيرة هو بيت الشيخ لا سيما إذا قدم ضيف من الحضر ، فإذا مما رأوه انسلوا من كل حدب ، وجاؤوا لرؤيته ، وقعدوا حوله يرهفون آذانهم لأقواله وأخباره (علومه) الطريفة.

شرب القهوة عند البدو:

يتعاطى البدو في مجالسهم قهوة البن ، وهم يجيدون طبخها لفراغهم ، وتوفرهم على معالجتها ، وقد يستغني البدو عن الأكل ، أو يقلل منه كثيراً ، ولكنه لا يستغني بحال عن تعاطي القهوة في كل ساعة ، فهي نقله وحلواؤه وشرابه المنعش ، وقد يصرف أحدهم ثمن بن في السنة أكثر مما يصرف على طعامه ولباسه ، وأحب الهدايا إلى قلب البدوي أن تحمل إليه مقداراً من البن ، فمن أدوات القهوة عندهم (النجر) وهو جرن القهوة ، ويكون في الغالب من خشب البطم ، أو الزيتون المشغول المزخرف بمسامير النحاس ، أو يكون من النحاس الأصفر ، وحجم التجر يختلف ، فقد يبلغ علوه أحياناً ٥٠ ـ ٣٠ سم وكذا قطره ، والأداة التي يدق بها البن في النجر تدعى (مهباج).

واستعمال المهباج ودق القهوة في النجر له صنعة خاصة تحدث رنات مختلفة شجية ، حسبما يكون الضرب في قاع النجر ، أو في حوافيه ، ولصنعة دق القهوة أناس خاصون ، وأكثرهم حذاقة بذلك هم العبيد خدم كبار الرؤساء المكلفون بطبخ القهوة ، وتقديمها ، ودقات النجور وسماعها من علائم الاجتماع ودلائل الجود والكرم لمن يحدثها لديه ، ومن أدوات القهوة عندهم: (الدلال) جمع (دلة) ، وهي من النحاس الأصفر ، وكبيرتها تدعى (مفورة) من التفوير ، والصغرى (مصب).

والنقرة تحتوي دائماً قليلاً من الضرم ، فإذا أرادوا إيقادها ألقوا فيها من القش أو العشب اليابس ، أو بعر الإبل المجفف ، وهوّوها بطرف العباءة ، وكلما شبت النار ودامت في البيت دلت على كرم صاحبه وجوده ، ويضعون فوق الجمرات عدة دلال من النحاس الأصفر ملآنة بالماء؛ كما يضعون فوق

اللهيب الداخن دائماً محمصة من الحديد ذات مقبض طويل ، يحمصون فيها كمية من البن الأخضر.

وهذا العمل يقوم به أخو الضيف ، أو أحد أولاده ، أو أحد عبيده ، والقائم بهذا العمل يقلب بدقة متناهية الحبات المحمصة بواسطة مطنة؛ إلى أن تحمر الحبات ، وتسود ، وتدخن قليلاً ، ثم توضع داخل النجر ، وتدق بالمهباج إلى أن تسحق وتنعم ، ودقيق البن الذي يحصل يوضع في دلَّة خاصة تدعى (المفورة) ، ذات ماء غال ، فينقع البن فيه ، ويغلى.

ويتناول طابخ القهوة كيساً معلقاً في زناره ، ويستخرج منه بضع حبات من (الهيل) فيدقها ويضعها في المصب ، ويسكب فوقه البن المغلي في المفورة ، ويضع على فم المصب الليف ، أو مصفاة معدنية ذات ثقوب لتصفية السائل ، ومنع مرور الثفل والرمل ، فإذا انتهى طبخ القهوة على هذا النحو يذوق الطابخ قليلاً منها؛ ليمتحن جودتها ونكهتها ، وليعلم الحاضرين أن ليس في الفناجين المقدمة إليهم أي أثر للسموم ، ثم يشرع بتدوير القهوة على الحاضرين.

ومن عاداتهم في الدورة الأولى إسقاء القهوة للضيوف الممتازين ، وفي الثانية يدورون بها من اليمين دون تمييز ، ومنها قولهم: (أول القهوة خص ، وثانيها قص). والكمية المقدمة لا تتجاوز بضعة سنتيمترات مكعبة في كل فنجان؛ إلا أنهم يشربون منها بضع مرات متتالية ، ويمكن للزائر أن يرفض الفنجان الثاني ، أما رفض الفنجان الأول فلا يجوز ، ويحسب إهانة عظيمة ، أو إنذار بشرّ ، أو عرض حاجة يراد قضاؤها فتقضى حتماً لكي يشرب الضيف القهوة بهناء ، وهم لا يبرحون يصبون ، ويناولون حتى يهز الضيف الفنجان بيده.

ورب البيت هو آخر من تقدم إليه القهوة في الدورة ، وهذه القهوة مرة؛ لأنها محرومة من السكر ، والهيل ينفحها نكهة ذات حموضة وحلاوة معاً.

طعام البدو:

من أدوات المطبخ عند البدو طنجرة كبيرة ذات ميزاب يسمونها (مثعبة) ، ويجمعونها على مثاعيب لترويب اللبن ، وغلي السمن ، وعندهم (القدر) وهو

من النحاس الأحمر لطبخ الطعام ، ووضع الماء ، و(المجنا أو المشوط) وهي ملعقة كبيرة من الخشب. وعندهم (المنسف) وهو جفنة كبيرة مستديرة من النحاس ذات حلقات ، يقدمون فيها الطعام للضيوف ، ويبلغ قطر بعض المناسف متراً ونصفاً ، بحيث تسع لناقة بكاملها فوق أكوام من الرز والبرغل. و(القدح) وهي إناء من خشب في شكل مربع مستطيل ، ولها يد وفم ، تستعمل لحلب الإبل ، وشرب الماء.

إن هذه الأدوات كافية بحكم أن طعام البدو بسيط لا يحتاج لأكثر منها ، وأسباب هذه البساطة عديدة:

أولاً: فقرهم النسبي؛ الذي يضطرهم إلى اختصار أثاثهم ، وخرثيهم وإقلاله.

ثانياً: قلة الوقود التي تمنعهم من إكثار الطبخ والنفخ ، وإطالتهما.

ثالثاً: ـ وهو الأهم ـ عسرة نقل المؤونة الوفيرة ، وأدوات المطبخ الكبيرة المحتاجة إلى عدد كبير من الأباعر ، لا يتيسر وجوده دائماً ، وعلى افتراض وجود هذه الأباعر ، هنالك عسرة التحميل والتنزيل اللذين يحتاجان إلى أيدٍ عاملة قوية قد لا توجد ، ومن هنا كان طعام البدوي المتوسط الحال مقتصراً على (الكسرة) أي: الخبز الفطير فحسب ، يضيف إليه في الصيف قليلاً من الزبد أو السمن ، وفي الشتاء من التمر الذي يأكله رطباً أو مغلياً ، ويتموّنه من بلدة شتاثة في جنوب العراق وغربي الفرات.

أما إذا انتهى الشتاء وبرز ربيع الأرض يكثر درّ الغنم والإبل فيتغذى به ، وهو يظل زهاء خمسة أشهر على هذا الغذاء اللطيف ، أعني به: حليب النوق وزبده اللذين لا يبيعهما قط ، ثم اللباء والشنينة والسمنة المستخرجة من حليب الغنم والمعز ، ثم الخاثر وهو اللبن الرائب المعروف.

وإذا حلّ الصيف ، واقترب البدو من المعمورة يحصلون بادئ بدء على (الفريكة) ، وهي حبوب القمح الطري الأخضر المشوي ، ثم بعد انتهاء الحصاد والدراس في القرى يحصلون على (البرغل) ، ويحصل كبراؤهم على

الرز فيقتاتون بهما ، إلا أن هذا القوت لا يناله البدوي كل يوم ، ولا يحمل البرغل ، ويتموّنه للشتاء إلا المترفون منهم ، فالبرغل هو أساس مؤونة البدوي ، وحمولته في نجعة الشتاء ، وكانوا قبلاً يحملونه حباً فتطحنه النساء في طريقهن ، أما الآن فقد صاروا يأخذونه مطحوناً جاهزاً في أكياس الشعر الكبير (العدول)؛ التي تنسجها نساؤهم في أوقات فراغهن.

وهم يطحنون الحبوب بالرحى ، ويعجنون الدقيق في قدر أو قصعة ، ويخبزونه فطيراً على الصاج أرغفة رقاقاً ، أو يخبزونه على الجمر أقراصاً ، وهو أكلهم في السفر ، وذلك أنهم يطحنون الحب بهاون من خشب إذا لم يوجد رحى ، ثم يعجنونه في قصعة صغيرة ، ويجعلونه قرصاً ثخيناً ، ويوقدون الحطب على الأرض حتى يصير جمراً ، فيزيلون الجمر عن الرماد ، ويطمرون القرص في الرماد ، ثم يردون الجمر عليه إلى أن يجف وجهه الأول ، فيكشفونه ، ويقلبونه ، ويعيدون الرماد ، ثم الجمر عليه حتى يجف وجهه الثاني ، فيقسمونه كسراً صغيرة يأكلونها ، ولا يستغرق عمل القرص بهذه الطريقة أكثر من ساعة ، ويدعى (قرص الملة).

وهم يأكلون خبزهم بلا إدام ، أو بإدام من القمر الدين أو اللبن أو السمن أو الزيت أو اللحم ، وأطعمتهم بسيطة للغاية ، متشابهة تركيباً وطبخاً ، وقوامها كلها أو أكثرها الحليب والسمن والدقيق والخبز والتمر والهقط ، وأشهرها (الجريشة) ، وهي أنهم يجرشون القمح بحجر الرحى حتى يصير برغلاً خشناً ، ويسلقونه جيداً ، ثم يسكبونه في قصاع ، ويصبون عليه من الإدام اللبن أو السمن أو الزيت ، (والعصيدة) يغلون الماء في حلة ، ويصبون عليه الدقيق شيئاً فشيئاً وهم يحركونه حتى يكون له قوام ، فيصبونه في القصاع ويأكلونه ، أو يغلون اللبن أو الحليب بدل الماء وهو (الثلبانة والخميعة) وهو فتات الخبز (الثريد) يصب عليه بدلاً من اللحم حليباً ، و(الدفنية) وهي الثريد أو مسلوق الرز بمرقة اللحم واللحم منثوراً قطعه فوقها ، وهم لا يتخذون البهارات في أطعمتهم ، وأكلهم للخضر والفاكهة قليل ، وكذلك أكلهم اللحم والسمك.

وفي أيام الربيع ينبت كثير من الأعشاب التي يأكلونها ، وهم يأخذون

أغصان الشجر والجرجير والقريص والربيان والزعتر وأمثالها ، ويجففونها ويطحنونها بحجر الرحى، ويمزجونها، ويغمسون قرص الملة بها، ويأكلونها.

والخمور لا أثر بها في البادية ، هذا ولشظف العيش عندهم يعدون في الأعياد اليوم الذي ينـزل على شيخهم ضيف يجب أن ينحر له شاة ، فإنهم في تلك الوجبة مدعوون كلهم بالبداهة ، فينسلون من كل حدب ، ويصطفون داخل بيت الشيخ ، وعندها يأكلون اللحم ، وترى وقتئذ السواعد مشمرة ، والأيدي ممتدة تمزق اللحم ، وتضغط على الرز أو البرغل ضغطاً قوياً؛ حتى يصبح كتلة واحدة ، والدهن يسيل على سواعدهم ، ويقلبون هذه اللقم الضخمة في الأكف ، ويعصرونها ، ويكورونها ، ثم يقذفونها في الحلق دون مضغ ، وبسرعة خاطفة ، ثم يتناولون إناء الشنينة ويضعونه على فمهم ويشربون ، وهكذا بينما الأيدي العديدة صاعدة هابطة تسمع عندهم تعريق اللحم عن العظم وقرقعته ، والقوم إذ ذاك حول المنسف يتزاحمون بالمناكب ، وجاثمون على ركبة واحدة لتسع دائرة المنسف أكبر عدد منهم ، وكلما شبع فوج تلاه فوج أصغر قدراً إلى أن يأتي دور الصبيان ، وفي أقل زمن ممكن وأسرعه يصبح المنسف في خبر كان.

ومن عادة المضيف أن يتناول اللحم ، ويقطعه بيده ، ويقدمه لضيوفه ، ويعدّ عمله هذا من دلائل الكرم ، وحسن القِرى.

ومن أصول الطعام في البادية أنهم يسكبون المرق على الطعام كلما قل المرق عنه ، وذلك ليسيغونه هنيئاً مريئاً ، وإذا طلبوا المرق نادوا (اللّيان يا عيال) بتشديد اللام الثانية من ليان ، كأنهم ينحتونه من الليونة ، وإذا شبع أحدهم قام يلحس أصابعه ، وبعض البدو يمسحون أصابعهم وأفواههم بأهداب البيت من جهة العامر؛ وذلك لندرة الماء والصابون ، ويعرف القسم الذي يمسحون به أيديهم بالرفه ، ولا يمسحون بلحاهم كما قيل ، وقول بعضهم: (صابون العرب لحاها) يستعمل للهزل فقط.

وإذا كان هناك رجال لم يتح لهم الجلوس على المنسف لعدم وجود محل؛ فإن بعض متناولي الطعام ينضحونهم بعظمة عليها بقية من اللحم يتلهون بها

حتى يأتيهم الدور ، ومن عادتهم أن لا يقوم أحدهم عن الطعام قبل أن يشبع الجميع ، فهم يقومون عن الطعام سوية .

وفي صدد طعام البادية يقول الأستاذ عز الدين علم الدين في رحلته إلى وادي السرحان والجوف ما نصه : (عن المقتطف ، أكتوبر سنة ١٩١٧م) :

لا يزال البدو مقتصرين ـ كما ذكر ابن خلدون ـ على الضرورة من الأقوات والملابس وسائر الأحوال والعوائد ، ومقصرين عما فوق ذلك من حاجيّ أو كماليّ ، ويتناولون أقواتهم بعلاج أو بغير علاج البتة إلا ما مسته النار؛ وذلك لاضطرار البدوي إلى التنقل في كل حين ، فاختار بحكم معيشته الأيسر تناولاً ، فتأنق الحضارة أمر لم يعرفه البدوي ، فإنه إذا أقام أياماً في منـزل وأكل العصيدة ، عدّ ذلك من النعيم ، وهذه العصيدة عبارة عن اللبن الحليب يغلى ، فيذرون عليه الدقيق تارة ، ويضعون عليه البر الجريش (البرغل) وقليلاً من الدهن ، ويقال لها حينئذ : الجريشة .

وإذا ضَيَّفَ رجلاً عزيزاً ذبح له نعجة أو خروفاً ، ودعا إكراماً للضيف كثيراً من البدو لمؤاكلته ، فكنا نفرح إذا ما حل بنا ضيف أخذنا حظنا من لحم لا نذوقه في البادية إلا قليلاً .

أما في الأعياد والأفراح فيذبحون الإبل الكوماء؛ لأن لحم البعير عند البدوي سيد اللحم كله ، وكان بريكان الصليبي إذا أراد أن ينعمني بطعام العشاء طبخ الأرز ويسمونه التمن ، وبعد أن ينضج بأوساخه يضعه في باطية ، ويحفر في وسطه حفرة يضع بها الزبدة التي تذوب بحرارة الطعام ، فنليك الأرز بالزبدة ونزدرده ازدراداً .

وكان شاهر الخريشة الصخري يذيب السمن ، ويأتينا به بمقلاته؛ فنغمس في خبز الصاج الفطير ، وقد يخرج لنا السحلب الأقط[1] . وبقينا هكذا أياماً لا نتغذى إلا بالخبز والسمن .

---

(١) الأقط ، ويقال له اليوم : الهقط ، وقد شاهدتهم يصنعونه من اللبن الحامض ، ويتخذون من جبنه أقراصاً صغيرة يجففونها في الشمس ليدخروها مؤونة لهم في الأسفار .

ولا يزال البدو على آثار أسلافهم في صنع خبز الملة ، وذلك بأن يلقوا الدقيق بالماء ، ويعجنونه عجناً خفيفاً ، ثم يحتطبوا ويوقدوا فيفرشوا الجمر ، ويطرحوا عليه الرغيف الثخين ، ثم يغطوه بما بقي من النار ، فإذا نضج الرغيف تقاسموه ، وأكثر ما يصنع خبز الملة في السفر ، وأما في الإقامة فيأكلون خبز الصاج ، وفي كلتا الحالتين لا يذوقون الخبز الخمير؛ لأنها من الرفاهية التي حرم منها البدوي ، فإذا ما ظفر بها شكر الله على تلك النعمة كثيراً.

وقد كان سلف هؤلاء البدو الصالح يعدّ الخمير من فاخر القِرى ، فما رواه لنا عبد الله بن مصعب قال: وقف معاوية على امرأة من بني كنانة فقال لها: (هل من قِرى)؟ قالت: نعم ، قال: (وما قراك؟) قالت: (عندي خبز خمير ولبن فطير وماء نمير). وفي حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: (الحمد لله الذي أطعمنا الخمير وسقانا النمير).

وسيد طعام القرى البدوية كدومة الجندل (الجوف) وسكاكة هو (الدفينة) ، وهو الثريد الذي كان العرب قديماً إذا أرادوا أن يفضلوا رجلاً ، قالوا: فَضْلُ فلان على سائر قومه كفَضْل الثريد على سائر الطعام. وتعد الدفينة من بذخ العمران البدوي ، وقد أكلتُها في دومة الجندل مراراً فألفيتها لذيذة وشهية ، ولا تصنع إلا في الولائم أو قِرى ضيف كريم ، وطريقتهم في عملها أن ينضدوا في طشت كبير (منسف) من رقائق الخبز نضداً يكفي المدعوين ، ثم يغطون هذا النضيد بطبقة من الأرز ، ثم يأتون بالذبيحة ناضجة ، فيسقون بمرقها الثريد ، ويكومون اللحم فوقه تكويماً.

والصابون الذي نعده من مرافق الحضارة لا يوجد في البادية إلا نادراً ، فما كان صابوننا بعد الطعام إلا أن نمسح أكفنا من الدهن الكثيف بطرف الشقة من بيت الشعر ، وما استغنى البدوي عن الصابون إلا اقتصاداً في الماء القليل في البادية كاستغناء الشارع بالتيمم عن الوضوء ، وهم إنما يدّخرون الماء للطبخ ، أو إطفاءً للعطش الذابح كما يعبرون ، ولم أر بدوياً يمسح يديه بلحيته بعد الطعام؛ وإن كنا نسمع في بلاد الشام أن (صابون العرب لحاها).

ولا ينزل قدرهم عن أثافي الموقد ، ويصب الطعام في الجفان إلا ويحدق

بها البدو إحداق الخوارج بأبي نعامة ، يلعقونه وهو يكاد لشدة حرارته يفور ، فكنت ورفيقي نطلي جدار الجفنة بالطعام تبريداً ، فنستطيع نوعاً ما أكله.

وكثيراً ما كنا ننزع من طعامهم أيدينا بسرعة ، ونحرك في الهواء أصابعنا ملدوغة ، مستعيذين بالله من النار والطعام الحار ، ولذلك كنا أبطأ القوم أكلاً ولم نكن بأعجلهم ، وقلما قمت من الجفنة إلا جائعاً لأن يدي ما كانت لتصل إلي باللقمة إلى فمي مرة ، إلا وتكون يد البدوي قد وصلت كما يشهد الله عشراً ، ولهذا كان أهل الذوق من الأعراب يلاحظ ما يصيبنا من الغبن الفاحش بمشاركتنا إياهم في الأكل؛ إذ (سباق المذكيات غلاب) فيضعون بصفحة لنأكل على حدة ، ونشبع على رسلنا. ولله ما أصدق ذلك البدوي الذي قيل فيه: ما اسم المرق عندكم؟ قال: السخين ، قيل: فإذا برد ، قال: لا ندعه حتى يبرد.

وقبل أن ندرك الجوف اصطاد بعضُ صحابتنا حيواناً صغيراً أبيض البطن ، رمادي الظهر ، يداه أقصر من رجليه ، خلته فأرة برية ، فسألتهم عن اسمه ، فقالوا: جربوع ، فعلمت أنه اليربوع المذكور في كتب اللغة. ثم أمرع الصائد وشواه وتقاسمه وصحبه ، وازدردوه سريعاً كما يزدرد الحضري الفالوذج.

وعثر بدوي آخر على أثر قنفذ فاقتفره ، وعاد بعد هنيهة بصيده ، وكأنه آب في جوف الفرا ، فأضرم النار ورماه بها حياً ، ولما تمكن من القبض على عنقه المنقبضِ حذر النار ، ذبحه وأكله ورفاقه بعد تمام نضجه بجشع غريب ، ولقد باركت لهم ورفيقي بحصتنا من القنفذ واليربوع.

ورأى عرب السرحان في رائعة النهار ضبعاً فطاردوها بخيلهم ، والفرس أسرع من الضبع ، فأدركوها وأصموها رمياً بالرصاص ، وذبحوها ، وأولموا تلك الليلة بها ، ويزعمون أن لحمها علاج من الحمى.

وللبدو غرام بأكل الجراد ، ولعله حل أكله توسلاً لإبادته ، على أن له في السنة المجدبة نفعاً في البادية جزيلاً.

ذكر ياقوت في معجم البلدان نقلاً عن بعض الرواة قال: لقيت أعرابياً ،

فقلتُ له: ممن الرجل؟ قال: من بني أسد ، فقلت: فمن أين أقبلت ؟ قال: من هذه البادية ، قلت: فأين تسكنها؟ قال: مساقط الحمى حمى ضرية[1]؛ بأرض لعمر الله ما نريد بها بدلاً ، ولا نبتغي عنها حولاً ، قد حفتها الفلوات ، ونفحتها القدوات فلا يملولح ترابها ، ولا يمعر جنابها ، ليس فيها أذى ولا قذى ولا وعك ولا موم (البرسام) ، ونحن فيها بأرفه عيش ، وأرقى معيشة. قلت: وما طعامكم؟ قال: بخ بخ الهبيد (الحنظل) والعنكت والعلهز والضباب واليرابيع ، وربما أكلنا والله القد ، واشتوينا الجلد ، فلا نعلم أحداً أخصب منا عيشاً ، فالحمد لله على ما رزق من السعة ، وبسط من حسن الدعة ، أو ما سمعت بقول قائلنا:

إذا مـا أصبنـا كـل يـومٍ مـذيقـة ... وخمـس تميـرات صغـار كنـائـز

فنحن ملوك الناس شرقاً ومغرباً ... ونحـن أسـود النـاس عنـد الهـزاهـز

وكـم متمـن عيشنـا لا ينـالـه ... ولـو نـالـه أضحـى بـه جـد فـائـز

وللبدو عامة صبر على الجوع والعطش ، وإذا جاع أحدهم ولم يجد طعاماً شدّ حجراً مستطيلاً على معدته ، واحتمل الجوع بصبر غريب ، واكتفى بأكل العشب. ومن بات بلا عشاء سمي (المقوى) ، ومن لم يأكل طعام الصبح سمي (المريوق).

قِرى الضيف:

قِرى الضيف أمر قد اشتهر به البدو منذ القديم ، وتذكر الرواية أن حاتم الطائي كان يشعل ناراً عظيمة أمام بيته؛ ليستهدي بها المسافرون والجائعون ، ولا تزال آثار هذه العادة جارية في يومنا هذا لدى كثير منهم ، وقد ذكر عن الأمير مجحم بن مهيد رئيس الفدعان (الولد) أنه يأمر مؤذنه أن يصيح عقب أذان العشـاء (العيش يا جوعان) ، وتأخير الطعام إلى بعد العشاء يقصد به انتظار من قد يكون متخلفاً من الزوار والمسافرين.

---

(١) ضرية: أرض بنجد ينسب إليها حمى ضرية ، ينزلها حاج البصرة ، لها ذكر في أيام العرب وأشعارهم (عن ياقوت).

والواقع أنه لولا عادة قِرى الضيف وإكرامه لما طيقت البادية المحرومة من الفنادق والمطاعم ، ومن هنا نشأت هذه العادة عندهم ، وصارت من الواجبات التي لا مناص لهم منها ، والمسافر أو النـزيل يغدو معززاً مصاناً منذ حلوله بيت مضيفه ، وإقراء الضيف من المكانة بحيث إنه لو لجأ المسافر إلى بيت رجل فقير ليس لديه ما يقدمه للضيف ، على هذا الرجل أن يذهب إلى جيرانه البدو ، ويطلب منهم ما يكفيه للقيام بواجب الضيافة ، وليس له أن يحيل ضيفه إلى بيوت الآخرين ، ويعقد الضيوف في الربعة إما متجهين نحو مدخلها في جانب المضيف (المعزب) ، أو يجعلون ظهورهم إلى الحواجز القصبية (القطع ، الساحة). والضيف ينام في الربعة ، ويأكل فيها ، ويسمر ، ويسهر ، ويقيم في الضيافة ثلاثة أيام من سفره ، وحينما تزار منازل البدو لا يجوز للضيف أن يغير البيت الذي نزل فيه ، وإذا فعل ذلك يكون قد أهان مضيفه إهانة عظمى ، كما لا يمكنه أن يقبل أي دعوة ما لم يدع إليها مضيفه أيضاً. ومن هنا جاء المثل: (الضيف أسير المعزب).

ومن عادة البدو أنهم يحتفون بالضيف حين قدومه أكثر من حفاوتهم به حين ذهابه ، ويكرمونه ما وسعهم الجهد ، وعلى الضيف أن يكون أديباً ومراعياً لعاداتهم ، و عليه إذا قدم منـزل العشيرة أن ينحرف ما أمكنه ، ويقصد الربعة مباشرة؛ كيلا يقع نظره على الحريم ، أو أماكن النساء؛ لذلك يأتي الضيف ممن طرف المنازل حتى يصل إلى بيت الشيخ ، أي: إلى (الربعة) فينـزل عن مطيته ، ويربطها بأحد الأوتاد أو الأطناب ، وإذا رحل يُحيي الحاضرين ، وينتظر قليلاً ريثما يعدون له محلاً للجلوس ، وهم يسرعون لإنزاله عن دابته ويربطونها ، ويأخذون منه أسلحته وحوائجه ، ويأتون بالفرش والمساند ، ويدعونه للجلوس ، ثم يبادرون لإعداد القهوة والطعام.

وعلى الضيف أن يحترم المنـزل وكل من فيه ، ويقبل كل ما يقدم له من طعام ، وليس له أن يرد أية خدمة تقدم إليه. ويحظر عليه إلقاء نظره إلى ما وراء (الساحة) ، أو الإصغاء إلى محاورات النساء ، أو الانتباه لأصواتهن وحركاتهن مهما قلت أو كثرت.

كما أنه من العيب أيضاً أن يتغوط أو يبول أمام البيوت ، وعند الرحيل لا يجوز للضيف الخروج إلا من أمام البيت ، ثم يمتطي راحلته؛ إذ يكون أحد المعازيب ، أي: المضيفين قد أعدها له ، وأمسك بلجامها حتى يركب الضيف ، فيشيعونه بسلام يكون أقل من الاستقبال فيما يقال؛ كيلا يذكر الضيف أنهم سئموه ، وملوا وجوده بينهم.

أسلحة البدو:

كانت أسلحة البدو قديماً السيوف والرماح والسهام ، أما اليوم ومنذ نصف قرن فقد انتشرت البنادق ، ويدعونها بوارید ، جمع: بارودة ، وصار أعمها بعد الحرب الماضية بنادق موزر الألمانية مما تركته الجيوش التركية ، وهذه البنادق موجودة بكثرة في كل مضارب البدو ، أما السيف فقد دالت دولته وهُجِر بالمرة ، إلا عند الرؤساء والشيوخ الذين يحملونه للزينة ، أو ذكرى لما خلفه الآباء.

وعند البدو من الأسلحة اليدوية البيضاء الخناجر والشاكريات والشباري المعلقة بالمناطق ، وقد يشدون على حقويهم الرداني جمع ردينة ، وهي المسدسات على اختلاف أشكالها ، وعند أعراب الديرة والشوايا (الكلنك) وهو شبه المطرقة ، ذو رأس حديدي دقيق من جهة ، وغليظ من أخرى ، وله مقبض خشبي طوله نحو نصف متر ، والقنا أو الجنا وهي كرة تكون من الحديد ، أو من خشب البطم القاسي ، ولها مقبض خشبي ، وهي الدبوس عند الحضر ، وصبيان البدو يقاتلون بالمقلاع المعروف ، ويقذفون به الحجارة.

الرحيـل:

أحب شيء إلى البدوي الغزو والرحيل؛ على حدِّ قولهم:

لشـرط البـداوة كـل يـوم مغـزى وعـزّ البـداوة كـل يـوم رحيـل

والرحيل هو: انتقال حلة البدو من مكان إلى آخر ، وقد قدمنا أن البدو لا يستقرون في مكان ، ولا يطيلون الإقامة في أرض ، فهم دائماً ينتقلون من أرض إلى أخرى ، ومن منزل إلى منزل ، يرتادون الكلأ ، ويفتشون عن مراعٍ

وموارد لإبلهم وغنمهم ، ثم هم يرحلون من منازلهم لتراكم الأوساخ حول المحلات التي يقيمون فيها ، فيتركونها ليتخلصوا منها ، ومن الروائح المنبعثة بسببها.

وهم متى أرادوا الرحيل يجتمع كبراء العشيرة في بيت الشيخ فيتشاورون ، وكل واحد منهم يذكر المكان الذي يراه مناسباً ليكون مرتعهم الجديد ، فيختارون من الأعراب رواداً يرتادون الأماكن الكثيرة الكلأ والماء ، فيذهب هؤلاء على الخيل ، أو في السيارات إذا كان لديهم سيارات ، فيتحرون المنازل والمناهل في المواقع التي اعتادوها في كل عام ، ويعودون ويخبرون عن المحل الذي أعجبهم ، فيعين مجلس كبراء العشيرة يوم الرحيل ، ويعلم أبناء العشيرة ليتأهبوا له.

وفي اليوم الموعود قبل طلوع الشمس تقوّض النساء الخيام ، ويحملنها وسائر الأثقال على الإبل ، ويسرح الرعاة بالغنم قبل الفجر نحو المحل المقصود ، وتقوم الضجة أثناء الحمل والترحيل ، وبعد أن يتم تحميل الأثاث يسير شيخ العشيرة وكبراؤها في الطليعة ، ثم يتبعهم الرجال والنساء مشاةً وركباناً ، وزرافات ووحداناً ، ودون أي ترتيب أو انتظام ، وتعلو النساء الغنيات الهوادج ، أما الفقيرات فيسرن وراء الحمير المحملة مشياً ، وهكذا يسير الركب إلى أن يصل إلى المحل المقصود ، وتنزل الأحمال ، وتنصب البيوت ، وتشد إلى أطنابها ، وتوقد النيران ، وتطبخ القهوة والطعام.

وقد وصف الشاعر الجاهلي الحارث بن حلزة اليشكري أهبة البدو للرحيل بأجمل ما يمكن من الإنجاز ، قال:

أجمعوا أمرهم عشاءً فلما أصبحوا أصبحت لهم ضوضاءُ
من مناد ومن مجيب ومن تصـ ـهال خيل خلال ذاك رغاءُ

ويسمى البدو الفرسان الذين يتقدمون الأظعان (السلف) ، أي: المقدمة ، وهم حماة الأعراض والأموال ، وتسير الأباعر المحملة وغير المحملة خلف (السلف). والنساء لا يركبن الهوادج إلا أيام الرحيل ، أو يوم الحرب بين العشيرة وأعدائها؛ ليحرضن قومهن على الحمية وتضحية النفس. وهذه

الهوادج هي بمثابة الوطن للبدوي ، فيضحي بنفسه ، ولا يترك العدو يصل إليها قبل أن تطأ سنابك الخيل جثته.

والهودج من الأثاث الخاص بالمرأة ، وهو يعمل من أعواد الصفصاف ، أو من سعف النخل ، أو من أي خشب خفيف ، يوضع على ظهر البعير ، وتجلس فيه المرأة ، وتكون (المزاود) أي: أكياس حاداتها معلقة من الجانبين حفظاً للتوازن ، وإذا كانت المرأة غنية تجعل هودجها حسب مقدرتها ، مزخرفاً بالصدف والأقمشة والأشرطة الملونة ، والهودج إذا كان كبيراً طويلاً بشكل الهلال ، وذي قرون بارزة للعلاء يدعى (قتباً) ، وإذا كان بسيطاً مستطيل الشكل ، وموضوعاً على حداجة البعير يدعى (باصوراً).

والهوادج إن كان فيها نساء أو لم يكن تدعى (ظعينة) ، وجمعها: ظعائن وظُعُن وأظعان ، وظعن ظعناً في اللغة بمعنى: سار وارتحل ، والظعينة في الأصل وصفٌ للمرأة في هودجها ، ثم سميت بهذا الاسم وإن كانت في بيتها ، وكل امرأة بدوية ميسورة الحال لها هودجها ، تركبه وتحمل معها أشياءها الخاصة وأولادها ، فضلاً عن بعض أثاث بيتها ، وأدوات مطبخها ، وهي تستره بالسجوف ، وبما يشبه الكلل اتقاء الشمس والبرد والمطر ، لا بقصد التحجب.

والبدويات ماهرات في امتطاء الأباعر ، يستقلنها برشاقة دونما حاجة إلى إناختها. وحركة الظعون هذه واهتزازها وتهاديها في السير ، ومنادمة النساء فوقها ، وحدوهن ، ومناغاة الأولاد على ظهورها ، وحولها الفرسان والمشاة الزاحفة والإبل المحملة والمتلاحقة بعضها وراء بعض ، والمنتشرة على مسافات دون انتظام. كل ذلك من روائع الحياة البدوية. لاسيما إذا كان ذلك في صفو الربيع ، ونمو الأعشاب ، وفوحان الشيح والقيصوم والخزامى ، وفي هدأة الفجر أو ضوء القمر ، وسكون الطبيعة في البراري والصحارى المترامية الأطراف.

والحق أن هدأة الفجر أو السحر لا تبدو على أتمها إلا في البادية ، فلا ليل في الجلال كليل البادية ، ولا صبح في الجمال كصبحها ، ولا نهار في الشدة

كنهارها ، وما أجمل قول زهير بن أبي سلمى في معلقته حينما تمثلت في خاطره ظعائن الحبائب ، متحملات تغشيهن سدول صفيقة النسيج ، وكلة وردية الحواشي ، فتبعهن ببصره الحزين ، وقلبه الواله ، ووصف ما سلكنه من طرق ، ونزلنه من منازل ، حتى بلغن المنـزل الذي أردنه ، وما أحلى أسلوبه في استحضار هذه الذكرى حتى لكأنها ماثلة للعيون ، فلو تبصر صاحبه قليلاً لرآها :

تبصّرْ خليلي هل ترى من ظـعائنٍ ... تحمَّلن (بالعلياء) من فوق (جُرْثُمِ)
علـون بـأنمـاط عِتـاق وكِلَّـةٍ ... وِرادٍ حـواشيهـا مشـاكِهـةِ الـدمِ
بكـرْنَ بكـوراً واستحـرنَ بسُحـرةٍ ... فهـن ووادي الـرسِّ كـاليـد للفـمِ
وفيهـن ملهـىً للصـديـق ومنظـرٌ ... أنيـقٌ لعيـن النـاظـر المتـوسِّـمِ
فلمـا وردن المـاء زُرقـاً جِمـامُـهُ ... وَضَـعْنَ عصيَّ الحاضرِ المتخيِّمِ[1]

* * *

(١) نشر هذا المقال بمجلة (تراثنا) الكويتية على عددين ـ إبريل مايو ، وسبتمبر أكتوبر ٢٠١٠م.

مكانة القهوة

للقهوة مكانة كبيرة وعزيزة وغالية عند العرب ، ولها المنزلة الأولى في الضيافة عند العرب ، ولهذا كان لزاماً علينا إلقاء الأضواء عليها؛ إذ تقول الأساطير أن راعياً يمنياً في الزمن الغابر شاهد في إحدى الليالي عنزة تقفز وتتقلب بدلاً من النوم ، ثم رآها في الليلة التالية تكرر التصرف نفسه ، فاستبدّ به القلق ، وراح يراقب القطيع ، فتبيّن له أن عنزة دأبت لمدة يومين كاملين على الذهاب نحو شجرة مجهولة الهوية ، كانت تنمو في أطراف المراعي لترعى ثمارها . وهذه الشجرة كانت شجرة (بن) من نوع يطلق عليه اسم (كافيا أرابيكا أو : القهوة العربية) .

وهكذا أوجد هذا الشراب المنبه الذي يتناوله الناس اليوم في بلدان العالم ، وتتناول الأسطورة التي ذكرناها نقطتين حقيقيتين ، هما :

١ـ أقدمية القهوة .

٢ـ منشؤها .

ويبدو أنها كانت معروفة منذ القدم في بلاد العرب وأثيوبيا ، فقد استخدمها طبيب عربي منذ عام ٩٠٠ قبل الميلاد ، ولكن لم يكن بالإمكان تبيّن أثرها الصحيح إلا في القرن السادس عشر الميلادي[١] .

في ذلك العصر كان شرب القهوة معروفاً في بلاد اليمن ، والعرب هم الذين نشروا عادة شرب القهوة في حوض البحر الأبيض المتوسط ، وخاصة في تركيا ، حيث ولد اسم المشروب الوطني آنذاك (القهوة) ، أما الذين أدخلوا القهوة إلى أوروبة فهم سكان البندقية ، وذلك في القرن السابع عشر .

وقد ظهرت أول حبوب للبن في البندقية عام ١٦١٥م ، وفي مرسيليا ظهرت

---

(١) مرآة الأمة ، ص٣٣ ، العدد ٧٠٣ .

عام ١٦٤٣م ، وفي باريس عام ١٦٥٧م ، وفي فرنسا واجهت القهوة انتقادات عاصفة من أطباء ذلك العصر؛ الذين اتهموها بكل الشرور الممكن وقوعها ، ولكن سرعان ما تغلبت على جميع العقبات التي اعترضت طريقها.

وفي القرن الثامن عشر انتشر استعمالها في كل مكان في العالم ، وشجرة البن يصل ارتفاعها إلى ستة أمتار ، ولكن طولها لدى غرسها لا يتجاوز المترين.

أما أوراقها فهي خضراء جميلة لامعة زاهية.

وأما أزهارها فهي بيضاء قوية الرائحة.

وأما الثمرة فتكون في البداية صفراء ، ثم تتحول إلى اللون الأخضر ، وتصبح بعد ذلك حمراء اللون عندما يزداد نضجها ، ولهذه الثمرة نواة واحدة ، تتألف من حبتين بيضاويتي الشكل ، تستند الواحدة على الأخرى ، وهاتان الحبتان هما حبة القهوة.

وأول من حدد أنواع شجرة البن هو العالم السويدي (ليني) ، وكان ذلك في عام ١٩٣٧م ، فقد ذكر خمسين نوعاً لأشجار البن ، قسمها إلى جزأين :

١ـ شجرة البن التي تستخدم ثمارها في شرب القهوة.

٢ـ شجرة البن النباتية.

ولكن ما يعنينا في هذا المجال هو شجرة البن العربية؛ فهي أقدم نوع معروف ، وأكثر الأنواع انتشاراً ، وأفضلها نوعاً ، وأغلاها ثمناً ، ولهذه القهوة أنواع عديدة ، وتشمل ثلاثة أرباع الإنتاج العالمي ، والقهوة العربية تستثمر في البرازيل وكولومبيا في مختلف بلدان أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية. ويوجد من هذا النوع أيضاً في جبال شرق إفريقية ، وفي آسيا الجنوبية ، وخاصة في الهند[1].

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٤.

وشذا هذه القهوة متطور جداً ، وتتراوح نسبة الكافيين فيها بين ٠,٠٨ إلى ١,٢٪.

وأنواع القهوة العربية لا تتشابه ، وهناك أنواع متعددة ، فإذا كانت أفضل الأنواع منها تأتي من أمريكا الوسطى والبرازيل ، فهذا يعني أن النوع الإفريقي لا أهمية له. فالقهوة التنـزانية أو الكينية تضاهي التي تزرع في هاييتي ، أو الأكوادور.

أما فيما يتعلق بزراعة البن فيتم الجني باليد ، ومن الصعب أن يتم جني الثمار بالطرق الميكانيكية.

وهناك طريقتان لتخليص حبة البن من غلافها ، هما :

١ـ الطريقة الجافة.

٢ـ الطريقة الرطبة.

والطريقة الجافة: تقوم على فرش الحبوب فوق حصائر هائلة ، حيث يجري تجفيفها ، وتخليص الحبوب منها.

والطريقة الرطبة: هي طريقة أكثر تقدماً ، وتقوم على نقع اللب في ماء حار ، الأمر الذي يساعد على فصل القشرة عن الحبة بسهولة ، وهذه الطريق التي تعطي القهوة شكلاً أكثر عذوبة ، وهي الطريقة المفضلة لدى المختصين.

ويتم اللجوء لهذه الطريقة في أمريكا الوسطى ، وفي معظم أنحاء أمريكا الجنوبية. وتحتوي حبة البن على السكريات والهيوليات والدهن ، وتوجد فيها مقادير من الأملاح المعدنية وبعض الفيتامينات.

أما المادتان اللتان تهمان متذوقي القهوة فهما الكافيول والكافيين. والكافيول أو الكافيين مجموعة من المركبات تعطي القهوة المذاق اللذيذ.

والكافيول سريع التبخر؛ لذلك ينصح بشرب القهوة حارة ، وعدم إضافة سوائل باردة كالماء والحليب إليها ، وعدم تسخينها من جديد إذا بردت.

وتقارب نسبة الكافيول ٠,٠٥٪ من المادة الجافة في الحبة ، أما الكافيين

فيعتبر المادة الرئيسية في القهوة ، وتتراوح الكافيين فيها بين ٠,٠٧٥٪ و٣,٢١٪[١].

وأول دراسة حول الكافيين أجراها العالم الكيماوي الألماني فردينا نداونج. وهذه المادة لا تتبخر إلا في درجة حرارة تصل إلى ٢٣٠ درجة مئوية.

وإذا تمّ تناول القهوة بشكل مناسب ، أي: بجرعات لا تزيد عن مئة أو مئتي ميلليغرام ، أي: ما يعادل فنجاناً أو اثنين من القهوة ، فإن الكافيين يؤدي عملاً منشطاً ، فيقوي العمل النخاعي ، ويسهل ، ويساعد على جمع الأفكار المشتتة ، ويساعد على الجهد العقلي ، ويمنع النعاس. وله بعد ذلك مفعول منشط للقلب ، ومن الناحية الهضمية تنشط القهوة الإفرازات المعوية والصفراوية على العمل ، كما تساعد على تفكك البروتينات في الأحماض الأمينية الرئيسية. فهي إذاً مادة مساعدة على الهضم.

لهذا ينصح الأطباء بعدم تناول القهوة قبل الإفطار لذوي المعدة الحساسة ، أي: الذين يعانون من أمراض معوية ، أو قرحة معدية. وللقهوة أيضاً مفعول مليّن للأمعاء ، وتعتبر نوعاً من المسهل الخفيف.

والقهوة لا تسبب البدانة؛ لأنها تزيد في تحرك الأحماض في الأنسجة الدهنية. وتعتبر القهوة الشراب المفضل للمصابين بالسكر؛ بسبب خلوها من السعرات الحرارية.

ومع ذلك يعتقد البعض أن تناول القهوة بشكل منتظم يتعب خلايا البنكرياس ، وبالتالي يزيد من خطورة مرض السكر ، وإذا بولغ في شرب القهوة ، أي: تمّ تناولها بمعدل ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ ميللغرام يومياً ، فإن الكافيين يسبب اضطرابات في الجسم ، كما يحدث أرق لمن يتناولها بهذه الكمية أيضاً[٢].

وقد دلّت اختبارات أجريت على الحيوانات في المختبرات أن الكافيين

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع السابق.

يسبب تشنجات لدى الحيوان إذا أعطيت له بجرعات تعادل ١٠ أو ٢٠ غراماً ، ويمكن أن يؤدي ذلك إلى موت هذا الحيوان. وهذه الأعراض لا تبدو على الإنسان إلا بعد تناول ٦ أو ٧ ليترات من القهوة ، وهذا بالطبع لا يمكن أن يحدث.

وهناك أشخاص لا يستطيعون النوم إلا بعد شرب كوب من القهوة؛ ذلك لأن القهوة إذا استخدمت باعتدال تساعد على الاسترخاء ، والقهوة مفيدة لأوجاع الرأس ، وقد تتعارض مع الأسبرين وبعض المستحضرات الطبية المستخدمة عادة لإزالة مثل هذه الآلام التي تحدث بالرأس. أما فيما يتعلق بالصداع فإنه يفيد في أنواع منها فقط.

هذه هي القهوة التي تؤرق البعض فلا يذوق طعم النوم ، والتي تساعد بعض الناس على الخلود إلى النوم والراحة ، كما أنها تساعد كما يقال على وقف تطور السرطان.

فقد دلّت أبحاث أجرتها مؤسسة الأبحاث الجرثومية في أوساكا ، أن للقهوة مفعولاً مانعاً لعملية تكاثر الخلايا مما يحدّ من تطور السرطان ، وهذا أمر لم يصل إلى حد القطع والجزم بعد ، وإنما هي تجارب تُجرى ، ونظريات تخرج إلى حيز الوجود حول هذا الشراب القديم الجديد العتيد العجيب؛ الذي نسميه القهوة.

وكان عالمان فرنسيان هما (زادجيلا) و(تارجيه) قد لاحظا أن الكافيين يوقف السرطان الذي يحقن في المختبر.

وفي مقابل ذلك لوحظ أن للكافيين مفعولاً على خلايا الجسم ، فهو يسبب تباطؤاً في إعادة تكوينها ، ولا يعرف إذا ما كان هذا في صالح الجسم أم ضد الجسم الإنساني ، رغم أن واحداً من المشاهير في شرب القهوة يدعى (فونتينيل) عاش مئة عام ، وكان من المعمرين رغم شربه للقهوة بإفراط.

إلا أن هناك آخر يدعى (بلزاك) من المشاهير بشرب القهوة ، مات وهو في ريعان الشباب.

وبعض الناس لا يشربون القهوة بسبب اضطرابات تسببها لهم؛ لإصابتهم بأمراض القلب والكلى والأرق.

أما اليوم فيفضل وجود قهوة منـزوعة الكافيين ، أصبح بإمكانهم شربها دون أن تسبب الضرر؛ لمثل هؤلاء الأفراد المصابين بمثل هذه الأمراض.

وفكرة سحب المادة المنبهة من القهوة دون تغيير مذاقها ، أو رائحتها يعود إلى تاريخ قديم.

فقد جرت أول محاولة بهذا الخصوص عام ١٩٠٦م ، وتمّ تنفيذ الخطوة الأولى عام ١٩٢٩م ، وما زالت الخطوات تتوالى منذ ذلك العام بحثاً عن الكمال الذي هو لله وحده.

والقهوة التي تباع مطحونة سلفاً تفقد عطرها بسرعة ، ومن الأفضل طحنها في المنـزل ، وعدم طحن كميات كبيرة مسبقاً ، ويقال: إن غلي القهوة بدرجة تزيد على المئة يقتل العطر الموجود فيها ، ولا يبقى في هذه الحالة سوى الكافيين.

أما إذا أريد الاحتفاظ بالعطر؛ فتسخن القهوة بدرجة لا تتعدى تسعين أو ٩٥٪[1].

لقد كانت هذه الجولة حول القهوة لنتعرف عليها عن كثب؛ إذ يسترعي انتباه الناظر أن عنزة في مراعي اليمن هي التي اكتشفت شجرة البن. كما يسترعي النظر أن العرب هم أول من تناولها ، وبعدهم انتشرت عادة شرب القهوة في العالم ، حتى إن العرب إلى اليوم يحملون شهرة واسعة في شرب القهوة التي تدل على الكرم العربي ، فهي دائماً جاهزة عند جلسائهم ، يتبادلون الأحاديث ، وينشدون الأشعار ، وخلال ذلك تدار القهوة في الفناجيل على الحاضرين.

والفنجال لغةً: قدح صغير من الخزف ونحوه ، تُشرب فيه القهوة

---

(١) المرجع السابق.

ونحوها ، والجمع: فناجيل ، والفنجان أيضاً هو الفنجال. والعرب يشربون القهوة في سرور ، ويهتمون بصناعتها ، ويتغنون فيها ، ويفتخرون بجودتها ، فهي رمز الشهامة والكرامة والكرم والشجاعة والأصالة.

هذا ونجد الكثير من الشعراء قد أشاروا إليها في أشعارهم ، قال سعد بن مسعد الأيدا:

يا عيد شب النار يا عيد شبَّه ... قلط دلالٍ مكرمات تعاب
واسمك ركون البيت واذروا مهبَّه ... إن هبت الشمطا علينا انحطاب
اقصر بماها قم زيدوا بحبه ... على الفنجال لون الخضاب
ردها على المجلس بلطف ومحبه ... فنجالها يجلا عن الوجه غابي

وقال سميحان بن حويكم:

قم سوي فنجال تر الرأس منداش ... لعيون من قرنه على المتن مرجود
يا بن أمهاوش كب حمسات الأدقاش ... أتيك حمسات الينابج بها سود
ودقه بنجر يسمعه كل طراش ... أيضاً إلى حرك على الهون به زود
وحطه ابدله مولع كنها الشاش ... وابهارها مقدار خمسة عشر عود
الهيل حطه لا تدانا ولو جاش ... وأمن الزباد اقنع على شذرة العود
كنه أبعرض الصين ور إلى ناش ... أو زعفران كلما علم اردود
أبيه رسم للنشاما عن اللاش ... اللاش لا فاقد ولا هو بمفقود

وقال محمد العبد الله القاضي في وصف القهوة:

احمس ثلاث يا نديمي على ساق ... ريحه على جمر الغضا يفضح السوق
وإياك والنّية وبالك والإحراق ... واصحا تصير بحمسة البن مطفوق
إلى أصفر لونها ثم بشت بالأعراق ... صفرا كما الياقوت يطرب لها الموق
وعطت بريح فاخر فاضح فاق ... ريحه كما العنبر بالأنفاس منشوق
دقه بنجر يسمعه كل مشتاق ... راعي الهوى يطرب إلى دق بخفوق
لقم بدلة مولع كنها ساق ... منصوبة مربوبة تقل غرنوق
خله يفوح وداعي الكيف يشتاق ... إلى طفح له جوهر صح له ذوق
اصفر قمورة كالمزمرد بالإشعاق ... وأكبارها الطافح كما صافي الموق

زلها على وضحا كالزمرد بها خمسة أرناق هيل ومسمار بالأسباب مسحوق
مع زعفران والشمطري إلى انساق والعنبر الغالي على الطاق مطبوق
فيلا اجتمع هذا وهذا بتيفاق صبه كفيت العوق عن كل مخلوق
بفنجال صين زاهي عند الأرماق يغضى بكرسيه كما اغضاي غرنوق

وطريقة صناعتها كما يلي:

يقوم صاحب الديوان بإشعال النار، ويأتي بالمحماصة، ويضع بها البن، ويجعلها فوق النار، ثم يأخذ يد الحماصة؛ لكي يقلب بها حبيبات البن حتى يقوم بتحميصها.

وعندما يفرغ من التحميص يلقي بالبن في النجر[1] أو المهباش، لكي يسحق البن بواسطة الدق.

ونجد بعضهم يتفنن بدق النجر حسب إيقاع خاص[2]، يتبعه ويعرفه كل من يتردد عليه.

وبعد سحق البن يوضع في إبريق نحاسي يسمى (القمقم)، ويكون الماء به فيوضع على النار، ويستمر التسخين حتى يفور ما بداخله، ثم توضع القهوة في (الدلة)[3] ويضاف إليها القليل من (الهيل)، فيجعل لها مذاقاً خاصاً، ثم تترك لفترة وجيزة على النار، ثم يقوم صانعها بتصفيتها في (دلة) أخرى، وتصبح معدة وجاهزة للشرب، فيتناولها صاحب الديوان الذي قام بصنعها، ويتذوقها، ثم يصبها في الفناجيل ليشربها الحاضرون، وينعمون بشرب القهوة[4] العربية الأصيلة.

* * *

(١) النجر: الهاون.
(٢) إيقاع خاص: رنين منتظم.
(٣) الدلة: وعاء تصنع فيه القهوة.
(٤) القهوة في اللغة: شراب مغلي البن، ومن معاني القهوة: مكان عام تقدم فيه القهوة، ونحوها من الأشربة.

كلمة الأستاذ: صالح هواش المسلط

في الصلح ما بين الباشات وآل عدوان

بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾.

ويقول عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ﴾.

وتتويجاً لهذا وذاك يقول سبحانه وتعالى: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ صدق الله العظيم.

ويقول الرسول الأعظم ﷺ: «إن لله عباداً اختصهم بقضاء حوائج الناس؛ فحبب إليهم الخير، وحُببَ الخير إليهم، أولئك لا يُسألون يوم القيامة».

أيها الإخوة الأعزاء:

إن التاريخ لا يصنع العظماء، إنما العظماء هم الذين يصنعون التاريخ، فليس للتاريخ عقل يفكر به، ولا سيف يحقق العدل به، ولا أنامل يكتب بها.

إنما الرجال العظماء هم العقل، والسيف، والقلم، وإن حضارة الشعوب، وتقدم الأمم، لا تقاس باتساع أراضيها، ولا بخصوبة مواردها، ولا بطول رجالها وعرضهم، إنما تقاس بأفعالهم العظيمة، بتضحياتهم الغالية والنفيسة، بعفوهم عند المقدرة، بتسامحهم في المواقف الرهيبة.

ولا أدل على ذلك من أجدادنا العظماء؛ الذين سطعت شموسهم في مشارق الأرض ومغاربها، وعلى رأسهم سيد الأنام، محمد عليه وعلى آله الصلاة والسلام، والذي قادنا من رعاية الغنم، إلى قيادة الشعوب والأمم.

وإنني أيها الإخوة الأعزاء: ومهما أوتيت من سبك الديباجة والإتقان،

وفصاحة المنطق واللسان ، فإني عاجز من أن أنشر وأشرح ما في الصدر والوجدان ، من فيض المودة والشكر والعرفان ، لله سبحانه وتعالى ، ثم لهذه الجموع الوافدة من كل مكان ، داخل القطر وخارجه ، لتشاركنا هذه المناسبة العظيمة ، في محافظة الخير والعطاء ، العطاء العظيم الذي ليس بعده عطاء قد يقول قائل: لقد جفّ نهر الخابور ، وجفت ينابيع رأس العين ، فمن أين يأتي العطاء؟؟ أقول: إن العطاء العظيم ، هو عطاء الرجال عند الشدائد والأهوال ، العطاء حين يقول أبو القتيل أو أخُ القتيل: (عفينا وعفا الله ، وكما يقولون في العامية: تحت الفراش).

فهذه والله هي أعظم العطاء ، وأوفى العطاء ، وأجزل العطاء ، وإنه ما زال هناك من الرجال ، من يتشيّم حتى عن الدية ، فالدماء أعظم ، والرجال أعظم وأعظم ، لكن الشرائع السماوية ، والأعراف القبلية ، والقوانين الوضعية ، أوجدت الدية كنوع من العزاء.

فالحياة أيها الإخوة الأعزاء وقفةُ عزٍّ وشموخ وإباء ، وقفة تسامح وصفح وسماح ، فالحي أبقى من الميت ، كما يقولون ، والشرور لا تجرّ إلا الشرور ، ونحن على هذه البقعة العزيزة والغالية ، أحياؤنا وأمواتنا وأبناؤنا وأحفادنا ، بأمس الحاجة إلى بعضنا بعض ، فها هم الأعداء يتكالبون علينا ، من آخر بقاع الدنيا ، وانظروا ماذا حل بالعراق ، وإني أقول دائماً وأبداً: (الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها) ، وإن مشيئة الله سبحانه وتعالى أن يكون هذا النسيج الاجتماعي ، من شتى الشرائح والطوائف والأجناس ، فبينها مصالح مشتركة ، وجيرة دائمة ، ونسب ومصاهرة ، وخؤولة وعمومة ، وليس لنا والله ، إلا أن ندعم هذا النهج ، نهج التلاحم المصيري ، وإني أذكركم بما قاله أمير قبيلة كندة المقنع الكندي حين يقول:

وإن الـذي بينـي وبيـن بنـي أبـي ... وبيـن بنـي عمـي لمختلـف جـدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم ... وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
ولا أحمـل الحقـد القـديـم عليهـم ... وليس رئيس القوم من يحمل الحقدا

وهذا ينطبق على الطرفين من هذين الجمعين المباركين.

وإني أستحلفكم بالله العظيم ، أن تبعدوا كل البعد عن الأحقاد والضغائن ، والخلافات والشحناء .

وانظروا إلى مصير أبنائكم ، وأحفادكم من بعدكم . . وإنني ونيابة عن قبيلة الجبور ، أشكر الله العظيم ، رب العرش العظيم ، أن هدأت النفوس ، وارتاحت القلوب ، وأن تسود المحبة والسلام الدائم ، راية ترفرف على جميع الناس ، وأن يبعد عنا الشحناء والبغضاء والجفاء .

كما أُوجه شكراً عاماً ، لكل من تجشم العناء والسفر والمشقة ، ليشارك ويبارك هذا الصلح التاريخي ، بين هذين الجمعين المباركين ، واللذين كانا عبر أزمان طويلة ، كان بينهما عيشة مشتركة ، و مودة ومحبة أزلية ، و معشر طيب ومبارك ، وسيبقى عبر الأزمان والأجيال جيلاً بعد جيل ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

كما وأخص بالشكر أخي العزيز ، فهد شلال الأسعد أبو عامر شاعر زبيد ، على هذه المبادرة الطيبة والكريمة ، ولقبيلة الجبور ، ولطالما كانت هذه القبيلة وشيوخها ، السباقة لحل القضايا ، والخلافات المزمنة ، والمستعصية بين الناس .

أدام الله الجاه وأهله ، وأدام الله الصلح ، والعفو والسماح ، بين جميع الناس ، إن ربي سميعٌ قريبٌ مجيب الدعاء .

وفقكم الله ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

صالح هواش المسلط

الحسكة ـ الثلاثاء : ٢٢/ ٩/ ٢٠٠٩م

عادات وتقاليد البادية العربية

تشكل أفراح البادية العربية موسوعة ضخمة من المظاهر والطقوس والعادات والتقاليد الراسخة؛ التي فرضتها طبيعة الحياة التي يعيشونها بين الينابيع والوديان ودروب الصحراء. وتتباين الأعراس عند بدو العرب لتنوع واختلاف عادات وتقاليد القبائل المتناثرة بين أرجاء الوطن العربي ، لكن رغم هذا التباين تبقى هناك قواسم عديدة تشترك فيها هذه الأفراح ، فهي عناوين للفرح والابتهاج وللحياة.

وما بين بادية وأخرى ترتسم ملامح تلك الحياة ، فمن قيظ الصحراء استلهموا دفء الاحتفال ، ومن وهج الشمس عرفوا الحب والتقارب.

وفي منطقة الشندغة التراثية التي تستضيف حياة البادية العربية ، تلتقي عادات البدو بأفراحهم وأحزانهم؛ لتشكل أمام الزوار لوحة فنية رائعة قليلاً ما يمكن مشاهدتها ، ربما لأن أبناء الحضر لا يعرفون شيئاً عن أهل البدو.

لكنهم ارتحلوا بكل أشكال حياتهم ليأتوا إلينا؛ ليقدموا لنا تقاليدهم دون عناء منا ، فهم دائماً أهل سبق وكرم ليطلعونا على أعراسهم؛ التي نقف أمامها متأملين ذلك الجانب الغائب عنا ، والذي يتمثل في بساطة الأفراح ، ودفء الأجواء ، وقيمة العائلة. معان كثيرة تحملها أعراس البادية العربية؛ فتعالوا نتعرف عليها.

عرس بادية الإمارات:

يتميز عرس بادية الإمارات ببساطته وطقوسه الخاصة ، ويعتبر الأكثر تميزاً في منطقة الخليج. يبدأ العرس بقدوم العريس على جمل يتقدمه المعرس ، وتأخذ «الزعفرانية» مكانها أمام العروس داخل بيتها الجديد ، حيث تعرض هدايا المعرس لعروسه من ذهب ، وعطور ، وثياب.

ويقدم أهل العريس (الزهبة) للعروس ، وهي عبارة عن هدايا مختلفة خاصة

بها فقط؛ تحوي أثواباً جديدة وعطراً وبعض الحاجيات ، تنقل إلى بيت العروس قبل العرس بأيام ، وفي ليلة العرس يقام سباق للهجن كنوع من الاحتفال يشارك فيه الأهل والأقارب والأصدقاء ، وكل من يرغب في ذلك .

والعروس عند أهل بدو الإمارات لا تظهر أمام الناس من الرجال ليلة العرس ، كما أن العريس في الماضي كان أحياناً لا يرى العروس ، ولا يعرف شكلها إلا يوم الزواج؛ لأن والدته هي التي تقوم باختيارها له ، فقد كانت العادة الدارجة هي أن تقوم الأم بانتقاء الزوجة لرؤيتها ، وطلب يدها ، ثم يذهب بعد ذلك الرجال لتحديد المهر ، والاتفاق على العرس .

وتسبق العرس ليلة الحناء ، حيث تعم البهجة والفرحة القبيلة ، ويتم إدخال السرور على العروسين ، فيتم تحنية العروس في اليدين ، ويتم الإعداد لطعام الوليمة الكبيرة (العرس) وأحياناً تجلس العروس بين صديقاتها ، ويتم إرسال هدايا المعرس خلال هذه الليلة ، وتحرص الأم على أن تبث بعض النصائح لابنتها العروس من أجل أن تضمن حياتها وسعادتها ، وتتضمن المعاملة الجيدة من الزوج وأهله .

عرس البادية التونسية:

من العادات والتقاليد التي يحافظ عليها أهل بدو تونس عند الزواج ، ألا يرى العريس عروسه إلا يوم الزفاف فقط ، وتكون الطريقة الوحيدة للتعرف على العروس من خلال الأهل؛ الذين يحددون هم العروس ، فيقوم والد العريس مع والدته بزيارة إلى بيت العروس؛ طالبين يد ابنتهم لابنهم ، ويتم خلالها الترحاب بالضيوف بالشكل التقليدي .

وخلال الحديث يطلب والد العروس مشاورة الأهل ، فيرسل لأخيه ليأتي ويناقش الأمر معه ، ويتفقان على موعد آخر ، إذا تم القبول يحضره أخوال العروس وأعمام العريس ، ويسمى بيوم الخطبة الرسمية ، أو يوم «الشرط» .

في ذلك اليوم يتم التفاوض على الشرط من المهر والشبكة والعرس والولائم ، وكل ما يتعلق بالعرس ، تثار خلالها الخلافات التي يطلقها الأخوال

والأعمام الذين يغالون في المهر ، لكن بدبلوماسية الصحراء الهادئة يتفاوض والد العروس مع والد العريس للوصول إلى حلول وسط .

ويسبق يوم العرس يوم الحناء؛ حيث تأتي النسوة يحملن الجهاز والحناء ، ويقومون بتخضيب العروس في اليدين والقدمين وسط الأغاني والأهازيج الشعبية ، وتنطلق رقصات الفرح وسط مشاهد الكرم والضيافة. وبعد تزيين العروس يتم إعدادها لركوب الهودج في مشهد رائع ، ثم تصحب بالزفة إلى بيت العريس؛ حيث تنصب الأعراس والاحتفالات ، ويقوم العريس بحملها من الهودج إلى بيت الزوجية .

العرس السوري:

من المتعارف عليه عند أهل بادية سورية أن تقوم العروس باختيار عريسها من خلال مبارزة بالسيف ، حيث تقوم العروس بمبارزة الشخص المتقدم إليها ، فإذا نجحت في التغلب عليه لا تختاره عريساً ، أما إذا نال هو منها فهي له زوجة في الحال .

وتبدأ مراسم الأعراس من خطوبة واتفاق على إتمام الزواج من مهر وهدايا يطلبها والد العروس من إبل وأغنام وذهب وفضة ، بعدها ينطلق العرس بأفراح متنوعة ، وطقوس مختلفة .

أهمها يوم الحناء ، حيث تلتف صديقات العروس لتخضيب يدي العروس بالحناء ، ووداعها من خلال أبيات شعرية شعبية ، تعكس حالة الحزن التي تنتاب العروس بسبب وداع بيت أهلها ، والانتقال الى بيت زوجها ، وهذا الأمر يسمى في البادية السورية بالطواج .

بعد ذلك يجهز العريس من قبل أصدقائه وسط الأغاني والأهازيج الشعبية استعداداً لليلة الزفاف ، وفي هذه الأثناء يقوم والد العروس بإيصالها إلى الهودج ، حيث ترفع على الأكتاف ، وتزف إلى العريس محاطين بوالدي العروس والعريس والمدعوين .

وبعد أن ينفضّ السمر؛ يأخذ الجميع في التهام ما لذ وطاب من الطعام .

ومن عادات أهل البادية في سورية استقبال الضيوف بالقهوة الأصيلة؛ التي يتم تحميصها أمام الجالسين ، وتدق في المهباش إلى أن تصبح ناعمة ، وفي هذه الأثناء يكون «الطباخ» يغلي الماء على النار ، ثم توضع القهوة حتى تغلي ، ويؤتى بعد ذلك بالهيل ليوضع في المهباش ، ويدق كذلك حتى يصبح ناعماً ، بعدها يوضع في القهوة لمدة خمس دقائق؛ لتكون القهوة جاهزة للحضور.

بـدو الأردن:

يعتبر عرس بدو الأردن تعبيراً حياً لرومانسية الصحراء الجميلة ، حيث يتواصل العرس لمدة سبع ليال من الفرح والسمر ، ومن أشهر ما يتميز به العرس عند بدو الأردن تلك العادة المتأصلة المتمثلة في النقد باللوز ، وشد الشعر ، ومن ثم اللغز الذي تقدمه العروس إلى المتقدم لخطبتها ، حيث يكون الجواب عليه من قبل العريس شرطاً لإتمام الخطبة.

وعادة (النقادات) شهيرة عند أهل بدو الأردن ، حيث تذهب أم العريس مع النساء من أهله لزيارة العروس ، وتبدأ بنقد العروس وتفحصها ، ويتلخص ذلك بأن تقدم لها شيئاً من المأكولات مثل اللوز والبندق وما شابه ذلك ، والقصد من هذا المعنى تفحص قوة أسنانها ، كما تقوم أيضاً بشدّ شعرها؛ لتتأكد من قوته ومتانته بطريقة ذكية خفيفة الحركة.

وفي هذه الأثناء يكون العريس منتظراً في بيته متلهفاً عودة أمه لإخباره برأيها؛ الذي إن جاء على هواه طار فرحاً ليذهب بأمر والده لمناداة أعمامه وأقاربه للتشاور حول «الجاهة» مع والده ، ومن ثم يتفقون جميعاً على التوجه إلى بيت العروس؛ ليتم استقبالهم وضيافتهم بتقديم فنجان قهوة إلى كبير الجاهة؛ الذي يضع الفنجان أمامه دون أن يشرب منه.

كدليل على أن له حاجة عند أهل ذلك البيت ، فيسألونه: ما هي حاجتك؟ فيطلب يد ابنتهم إلى العريس ، عندئذ يقوم والد العروس بمشورة ابنته ، فتوافق بشرط أن يجيب العروس عن لغز تطرحه على العريس ، فإن أجابه فهو لها ، وهي له.

عـرس بـدو اليمن:

تتنوع مظاهر الاحتفال عند أعراس بدو اليمن ، وذلك لتعدد قبائل البدو ، وهناك في عرس بادية صعدة يراقب العريس فتاة أحلامه بين المراعي وينابيع المياه؛ حتى يرق لها قلبه ، فيتجه على الفور لأبيه مبدياً له رغبته في الزواج من الفتاة التي اختارها ، فإذا اقتنع الأب بها وبأهلها وحسبها ونسبها ، يذهب بصحبة بعض أفراد وأعيان القبيلة لخطبتها ، عندها يشاور والد العروس ابنته ، ويأخذ رأي أمها في العريس المتقدم ، فإذا تمت الموافقة يتم تحديد المهر والشرط ، وهو عادة ما يكون من الإبل والغنم والذهب والفضة.

وتبدأ مراسم العرس بيوم الحناء؛ الذي يسبق العرس بيومين ، وفيه يتم تجهيز الحناء والخضاب «النقش الأسود» ، ويتم تجميل يدي العروس.

وخلال مراسم الحناء تقوم الفتيات بالرقص والغناء تعبيراً عن فرحهن ، وتقدم التهاني للعريس بالغناء:

ساعة الرحمن ذلحين
والشياطين غافلين
يا قمر هذا الزمان من أجلش
لأجل يسلى خاطرش
سارعة يا من كامل
وانقشي يد الحمام

وبخصوص اليوم السابق للعرس للنساء ، ويتم فيه زف العروس بين النساء وإظهار العروس بكامل زينتها بين النساء ، حيث من المعروف في اليمن أن الفتاة لا تتزين وهي عازبة ، فالزينة على الوجه لا تبدأ إلا منذ زفاف الفتاة.

كما يخصص يوم آخر من العرس لاحتفالات الرجال ، وذلك عندما يأتي أهل العروس ضيوفاً على أهل العريس ، يتم إنشاد بعض الأبيات بصورة زامل (الغناء والترحيب دون موسيقا).

عرس بدو السودان:

تتميز أعراس بدو السودان بالبساطة مثلها مثل أهل ذلك البلد؛ الذي يتميز شعبه بهذه الصفة. ويشتهر عن البادية السودانية أنه يتم خطبة الابن والابنة منذ الصغر، وذلك بناء على رغبة أهل العروس والعريس، وينتظران حتى يكبران، عندما يذهب والد العريس وأهله لطلب يد العروس من أبيها رسمياً رغم أن الرد بالموافقة معروف، ويكون كالتالي: (البنت بنتكم والولد ولدكم والله يبارك) عندها يقرأ الجميع الفاتحة، ويتم الاتفاق على المهر، ويتحدد يوم الزفاف؛ الذي لا يتجاوز أسبوعاً أو أسبوعين من قراءة الفاتحة.

إنها بساطة مثل بساطة جريان مياه النيل في غير أوقات الفيضان، ومودة مثل مودة الأهل والجيران، وتكاتفهم في مواجهة قسوة الطبيعة، وفيضان النيل.

ويتميز عرس بدو السودان ببساطة طقوسه، إلا أنه غني في معانيه، يجسد الحب والوفاء للتراث، والشجاعة، والجود، والكرم.

ويعتبر السودان قارة شاسعة للبدو، تختلف فيه أعراس أهل الوسط عن أهل الشمال والجنوب، فهي بسيطة جداً، فعادة ما يكون أهل العروسين أقرباء أو جيران، ومن الممكن أن تتم الخطبة منذ الصغر.

وبعد الموافقة في الكبر يتم تحديد الموعد، ويتم الإعداد للعروس، وتجهيز ما تم الاتفاق عليه؛ ليعود العريس في اليوم المحدد للزفاف في زفة على الأقدام، ترتفع فيها سيوف الشجعان مصحوبة بالأغاني والرقصات الشعبية والأشعار والزغاريد السودانية الجميلة. ويتزامن مع هذه الزفة زفة أخرى للعروس وأهلها لتلتقي الزفتان، وتندمجان في زفة واحدة، وكأنها مسيرة للتعبير عن مشاركة الجميع السعادة الزوجية.

عرس البادية الموريتانية:

غالباً ما يتم التعرف على العروس عند بادية موريتانية من خلال طريقتين:

الأولى: تتمثل في معرفة الشاب بأن له ابنة عم، حتى وإن لم يرها من قبل، فعلى الفور يذهب لطلب يدها؛ لأنها الأولى بالزواج.

والطريقة الثانية: هي أن يشاهد الشاب الفتاة وهي خارجة للتنزه مع صديقتها في ساعة الغروب خلال ذهابهما للوديان والآبار ، فإذا رق لها قلبه ذهب على الفور إلى والدتها ، أو أحد أقربائها لطلب يدها دون أن يخبر والديه؛ لأن القرار قراره هو ، فإذا حظي بموافقة أم العروس يحدد موعداً يأتي فيه هو وأهله لخطبتها.

وفي ذلك اليوم يذهب أهل العريس إلى بيت العروس ، وتتم الموافقة وتحديد موعد الزواج ، وعندما يأتي موعد عقد القران يتم تحديد المهر؛ الذي هو عبارة عن ربع دينار ، وللرجل حرية أن يعطي عروسه ما يشاء من المال.

وبعد عقد القران يقوم العريس بتجهيز بيت خاص للزفة؛ التي تعرف عند بادية موريتانيا باسم «التروا‌ح» ، وفي هذا اليوم تقوم صديقات العروس بتزيينها ، وتخضيب يديها ورجليها ، وذلك في بيت خالها ، أو عمتها ، أو عند أحد أقاربها.

وفي الليل يتم زف العروس إلى المكان المخصص للعروس مرتدية ملحفة سوداء ، وعليها شال أبيض على الوجه؛ للدلالة على أنها ما زالت بكراً ، بينما يرتدي العريس ثوباً أبيض ، وعليه شال أسود من نفس ثوب العروس.

وقبل أن يصطحب العريس عروسه إلى التروا‌ح ، تقام الولائم والغناء والرقص.

عرس بدو ليبيا:

يبدأ بمشاهدة العريس لفتاة أحلامه عند أحد آبار المياه البعيدة ، فإذا رق لها قلبه ، واختارها شريكة لحياته سارع إلى أحد أصدقائه ليخبره أنه يريد الزواج من فلانة ، وذلك بدلاً من أن يذهب إلى أبيه أو أمه أو أحداً من أهله؛ مما يعكس خجله في الحديث عن هذا الأمر وسط أهله ، وتقوم أم صديقه بالوساطة بينه وبين والدته ، حيث تفاتحها هي في أمر زواجه بدلاً منه.

ومن ثم تقوم والدته بمفاتحة والده في الأمر؛ الذي يقوم بدوره بالذهاب والسؤال عن أهل الفتاة التي اختارها ابنه ، وفي صلاة الجمعة يخبر والد

العريس والد العروس أنه سوف يزوره في يوم كذا ، فيرحب به وبمقدمه دون أن يعرف سبب الزيارة .

وعند مجيء ذلك اليوم يذهب والد العريس مع الأهل من الرجال إلى بيت العروس ، ويتم الترحيب بهم ، حتى يفاتح والد العروس في الموضوع الذي جاؤوا من أجله ، وهو طلب يد ابنته إلى ابنه ، يطلب والد العروس فترة من الوقت ليستشير فيها أهله ، ويحدد موعداً آخر ، فإذا تمت الموافقة على الموعد الجديد ، يذهب والد العريس ليخبر أهله ، فتتعالى الزغاريد ، وتطلق الأهازيج والأغاني والرقصات بهدف إعلام الجيران أن لديهم عرساً .

وفي لقاء آخر يجمع أهل العريس من الرجال والنساء ، يقوم الرجال بالتفاوض حول المهر والشرط ، بينما تقوم النساء بالتعرف على العروس .

وتبدأ مراسم العرس لمدة ثمانية أيام وسبع ليال ، تقام خلالها الأفراح كل ليلة .

* * *

عبد الله الهمامي

تعتبر البادية وحياة البادية ـ رغم بساطتها فى بعض الأمور ، وقسوتها فى أمور أخرى ـ منشأ الأنبياء والحكماء ، وملجأ للصالحين والزهاد والعباد ، فمن جهة كونها منشأ الأنبياء والحكماء ، يُروى عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «نعم كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة» رواه البخاري.

ومفهوم أن رعي الغنم لا يكون إلا في البوادي ، ومن جهة كون البادية ملجأ وملاذاً للصالحين والزهاد والعباد ، فيتأكد هذا المعنى بالأحاديث النبوية التالية:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رجل: أي الناس أفضل يا رسول الله؟ قال: «مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله». قال: ثم من؟ قال: «رجل معتزل في شعب من الشعاب يعبد ربه». وفي رواية: «يتقي الله ، ويدع الناس من شره» متفق عليه.

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن» رواه البخاري.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال: «من خير معاش الناس لهم؛ رجل ممسك عنان فرسه في سبيل الله ، يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعة طار عليه يبتغي القتل أو الموت مظانه ، أو رجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة ، ويعبد ربه حتى يأتيه اليقين ، ليس من الناس إلا في خير» رواه مسلم.

وحياة البداوة فى تاريخ الإنسانية أقدم من حياة الحضر ، وفي ذلك يقول العلامة ابن خلدون في مقدمته تحت عنوان: (البدو أقدم من الحضر وسابق عليه): إن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم وعوائدهم ، وإن

الحضر هم المعتنون بحاجات الترف في أحوالهم وعوائدهم ، ثم يقول: فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة).

أما عن صفات البدو أنفسهم؛ فأهمها القرب إلى الخير والشجاعة ، إلى جانب الكرم والجودة والأمانة ، وفي هذه المعاني يقول ابن خلدون في مقدمته تحت عنوان: (أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضر):

إن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى؛ كانت مهيأة لقبول ما يرد عليها ، وينطبع فيها من خير أو شر ، فإذا سبق أحد الخلقين إلى النفس تبعد عن الآخر ، ويصعب عليها اكتسابه ، فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عادات الخير ، وحصلت له ملكتها بعد عن الشر ، وصعب عليه طريقه ، وكذلك صاحب الشر إذا سبقت إلى نفسه عادات الخير ، وحصلت له ملكتها ، بعد عن الشر ، وصعب عليه طريقه ، وكذلك صاحب الشر إذا سبقت إلى نفسه عادات الشر بعد عن الخير ، وصعب عليه طريقه.

وأهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملذات ، وعادات الترف ، والإقبال على الدنيا ، والعكوف على شهواتهم منها ، تتلون نفوسهم بكثير من مذمومات الأخلاق والشر والبدو ، وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثل أهل الحضر ، إلا أن هذا الإقبال يكون في المقدار الضروري لا في الترف ، ولا شيء من أسباب الشهوات والملذات؛ ولأنهم أقرب إلى الفطرة الأولى ، فهم أبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات والعادات المذمومة والقبيحة. ويقول ابن خلدون في مقدمته تحت عنوان: أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضر:

والسبب في ذلك أن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة ، وانغمسوا في نعيم الترف ، ووكلوا أمورهم في المدافعة عن أحوالهم وأنفسهم إلى واليهم ، والحاكم الذي يسوسهم ، والحامية التي تولت حراستهم ، فهم آمنون قد ألقوا السلاح ، وتوالت على ذلك أجيال.

وأما أهل البدو فلتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم في الضواحي بعيداً عن الحامية ، وانتباذهم عن الأسرار والأبواب.

وهم قائمون بالمدافعة عن أنفسهم ، لا يوكلونها لسواهم ، فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتفردون في القفر والبيداء مدلين ببأسهم ، واثقين بأنفسهم ، وقد صار لهم البأس خلقاً ، والشجاعة سجية ، يرجعون إليها متى دعاهم داع ، أو استفزهم صارخ . وأهل الحضر إذا خالطوا البدو في بادية ، أو صاحبوهم في معرفة النواحي والجهات وموارد المياه والسبل والطرق ، تعلموا منهم ذلك .

ولفضائل البادية والبداوة والبدو ؛ كان الخلفاء والأمراء في عصور الحضارة الإسلامية يدفعون بأبنائهم إلى البادية ؛ لاكتساب صفات الشجاعة والفروسية ، وحتى تشتد سواعدهم ، وتقوى عزائمهم وتأهيلهم لتحمل المشاق والمسؤوليات الجسام .

كما كان الآباء الذين يريدون لأبنائهم أن يكونوا من الشعراء يرسلون أبناءهم إلى البادية ؛ لتعلم اللغة ، ولتستقيم ألسنتهم ، وتصح مترادفاتهم ، وتصفو قرائحهم .

وبالنسبة لبعض الأقوال الشرعية التي وردت في ذم التعرب ، وهو سكنى البادية ، فقد أشار إليها العالم الفقيه عبد الرحمن بن خلدون ، معتبراً أنها ليست دليلاً على مذمة (البداوة) ، والتي عبر عنها بالتعرب ، وساق ابن خلدون أدلة كثيرة منقولة ومعقولة تؤكد عدم مذمة البداوة والبدو ، وأشار إلى أن النهي عن التعرب أو سكنى البادية كان مرتبطاً بوقت معين ، وظروف معينة ، وهي ظروف وجوب الهجرة على المسلمين ، وملازمة المدينة المنورة مع النبي ﷺ .

* * *

قالت بدو

للشاعر طلال السعيد عضو مجلس الأمة الكويتي السابق

وقالت بدو
وصدت وقالتها بقرف
بنت الأكابر والترف
متكبرة. متعالية
يعني بدوي يقعد طرف

قالت بدو
والمعنى دون المستوى
ماحنا وياها سوى
إحنا بنظرها من نكون؟
ريشة يطيرها الهوى

مفهومها حنّا عدد
رقم ولا أكثر بعد
يعني مجرد تكملة
ولا فهي أصل البلد

قالت بدو
تعني صفر على الشمال
هذا على أحسن احتمال
تصدر حكم ، ما تلتفت
تحكم ولا تترك مجال

قالت بدو
متصورتني باستحي
وأترك مكاني وانتحي
وتفاجأت ، تغيرت ، تلعثمت
ما تدري أني بافتخر
ولي الفخر!!

حنّا بدو
حنّا عمى عين العدو
حنّا البداوة وضعنا
وأهل الوفا هم ربعنا
حنّا نتفاخر بأصلنا
يا بنت هذا طبعنا

ماهي بداوة تلفزيون
ولا مسلسل أردني
بس بدوي بالميكرفون
ولا هد سيفه ينثني
ولا بدو بيت السدو

حنا البدو
حنا بداوتنا الأصل
بالقمة حنّا مو أقل
حنّا بداوتنا تراث
من جيل لجيل أنتقل
حنا معاني سامية
نروي السيوف الضامية
نرد المنايا ما نهاب

لو هي سعاير حاميه

حنّا بدو
حنّا البداوة عيدنا
ما ناكل إلا صيدنا
ما نعيش عالة مجتمع
نموت. ما نمد إيدنا

حنّا البدو
حنّا البداوة بدمّنا
ما نسمي أحدٍ عمّنا
حتى ولو منهو يكون
لو هو زعل ما همّنا

حنّا بدو
حنّا البداوة عمرنا
ماحد بيصبر صبرنا
لأنها مصنع للرجال
نمشي وتمشي بأمرنا

حنّا البدو
حنّا البداوة أصلنا
حنّا البداوة فصلنا
حنّا بدو متماسكين
وهذي نتيجة وصلنا

يا بنت ياللي تضحكين
قلتي: ابدوي تستهزئين؟
غرج لباسج الأجنبي

والمشكلة ما تعرفين
أن البدو أصل العرب
تبغين ها لكلمة طرب
صارت نشب

يا آنسة
يا عانسة
يا ضايعة ومستانسة
يا تارسة وجهج صبغ
يا تارسة عينج شدو
حنّا البدو
ولو كان قلتيها بقرف
لنا الشرف
إنّا بدو
حنّا بدو
حنّا بداوتنا شيم
دين وقيم
معنى كبير
ما أظن مثلك يعرفه
لو تدعين المعرفة
شي عسير
ما أظن مثلك ياصله
صعبة ولاهي حاصلة

كلمة بدو!!
تعني التمسك بالجذور
ماهو التخلف والجهل

ولا بعد حب الظهور
ولا التنكر للأهل

كلمة بدو
تعني الشمم
فعل وكرم
مبدأ حضارات الأمم
حنّا القمم
نارٍ على رأس العلم
يشهد لنا سيف وقلم
وإن كان ما عندك خبر
لنا الفخر

لو عشنا ببيوتٍ شَعر . .
عيشة ألم . .
عيشة فقر . .
عيشة تعلمنا الصبر
ما نقترض لجل السفر
ونحسّب أيام السفر
ما نفترض
ونعيش واقعنا بحذر
وبالضيق نرخص بالعمر
نشرب من الماي الهماج
ونكحل نواظرنا بعجاج
وغسيلنا حفنة رمل
هي الدوا
واهي العلاج
عيشة رضا

ما هي نكد!!
ما فيها تعقيد أبد
ساعات ما نلقى ذرا
يكفي نلتحف بالنجوم
وفراشنا رمل الثرى
وسراجنا نور القمر
لا من ظهر

وننام من عقب العشا
ونصحى قبل وقت الفجر
نؤمن بقضانا والقدر
ما هو كسل
ولا نعيش بلا أمل
نملك طموح
علم وأمل
ونرعى الإبل
ونرعى الغنم
ونعزف من الونَّه نغم
ونتابع أخبار المطر
وندوّر الروض الخَضَر
ونسري ورا
برقٍ سرى
ولا نتراجع للورى
ونبحث عن المرعى العشيب
ومن شعيب إلى شعيب
ما نستقر
عنواننا كل الديار

تجوالنا ليل ونهار

نعيش عيشة هادية
وهذي حياة البادية
سنة الربيع ، سنة دهر
ورغم الفقر
نخاف من قولة أفا
ونتعب على قولة نعم
ونعيش عاليين الهمم
من فضل ربي ما نخون
نرعى الذمم
ونركض ونتعب ما نمل

ماحنا مثلك لا شغل ولا عمل
ما غير بس أكلٍ ونوم
ومن الشحم ضاقت عباتج والهدوم
يا أسمن أنواع الحريم
يا عايشة على الريجيم
يا آنسة
يا عانسة
يا ضايعة ومستانسة
يا تارسة وجهك صبغ
يا تارسة عينج شدو
حنّا البدو
ولو كان قلتيها بقرف
لنا الشرف

إنّا بدو

يالليي تقولين ابدوي
أنا ابدوي
ولي الفخر إني ابدوي
عزمي قوي
ما أخون
ما أبوق الخوي
يبدأ نهاري بالصلاة
وأصارع أمواج الحياة
ما ضاقت الدنيا أبد
ولا ني من أصحاب الحسد
أرفع أيديني للسما
وأطلب من الله وأستخير
ما أقول يمكن ربما
ولا يصير . أو ما يصير

محافظ على الخمس الفروض
واضح ولا أحب الغموض
ولا أتلون وألتوي
لإني ابدوي
متمسك بأصالتي
ولا أغير لهجتي

أنا ابدوي
في فزعتي
وفي قومتي
وبقعدتي
وفي مشيتي
وفجلستي

وفي كلمتي
وبنخوتي
وحتى عقالي ولبستي
ولو قلتي عني فوضوي
ما ضرني
بالحيل يا بنت ابدوي

ويسرني أعرف . من انتي؟
ومن أنا؟
والفرق واضح بيننا

تدرين وأدري من أكون؟
ويكفينا نعرف بعضنا

إنتي مثل عمر الزهور
مالك عمر
مالك سنين
شهرين ويجيك الجفاف
وتذبلين
وتصبح ألوانج باهتة
وأنا جذوري ثابتة

ماخذ من الصحرا الهدو
وإن كان هذا يسعدج
حطي على راسك يدج
هالمرة لا قلتي بدو
يا تارسه وجهك صبغ
يا آنسة
يا عانسة

يا ضايعة ومستانسة
يا تارسة وجهك صبغ
يا تارسة عينك شدو
حنّا البدو
ولو كان قلتيها بقرف
لنا الشرف
إنّا بدو

* * *

القبائل المتفرعة من قبيلة طيئ

يقول أبو تمام:

لكلٍّ من بني حَوَّاءَ عُذْرٌ ولا عُذْرٌ لطائيٍّ لئيمِ
أحقُّ الناس بالكرم امرؤ لم يزل يأوي إلى أَصْلٍ كريمِ

وطيئ إحدى أعرق قبائل العرب، والتي تنتسب إلى طيئ بن أدد الكهلاني، ثم اليعربي القحطاني، ومنها الجواد حاتم الطائي، القائل:

أماوي إن المالَ غادٍ ورائح ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ

ومنها الأمير أوس بن لأم الطائي، ومنها الصحابيان الجليلان، والسيدان الشهيران: عدي بن حاتم الطائي، وزيد الخيل الطائي (زيد الخير بعد الإسلام)، ومنها الشاعران العباسيان المشهوران: أبوتمام والبحتري، ومنها الشاعر الشهير السموءل الطائي (على أحد الأقوال) صاحب القصيدة المشهورة التي منها:

إذا المرء لم يدنسْ من اللؤم عرضه فكلُّ رداء يرتديه جميلُ
تعيِّرنا أنا قليل عديدُنا فقلت لها إن الكرام قليلُ
وما قلّ من كانت بقاياه مثلنا شباب تسامى للعلى وكهولُ
وما ضرَّنا أنا قليلٌ وجارنا عزيز وجارُ الأكثرين ذليلُ

وهي قبيلة غنية عن التعريف.

ومن القبائل المتفرعة من قبيلة طيئ في الحاضر بنو لأم، وشمر، وبنو صخر، وبنو نبهان، وبنو فضل بن ربيعة.

أما بنو لأم:

فهم بنو لأم بن عمرو الطائي:

قبيلة كريمة، احتفظت باسمها القديم، ولا زالت تنتسب لجدها لأم بن عمرو

الطائي ، وبنو لأم فيهم أمارة جديلة طيئ ، فطيئ لها بطنان : الغوث وجديلة .

ومعنى لأم : السهم الذي يستخدم في الرماية .

ومنهم الأمير أوس بن لأم الطائي ، صاحب القصة المشهورة مع ملك المناذرة .

وكان بنو لأم يسكنون جبل طيئ ، ثم حدروا إلى نجد وملكوها سنين ، وكانت لهم صولات وجولات مع بني خالد ، وعنزة ، والدواسر ، وأخيراً مع شمر الذين قتلوا أحد أشهر شيوخها : وديد بن عروج ، والتي تقول زوجته في رثائه :

لا واحبيبي طاح يوم الملاقاة بنحور غلبا فوق قب الأصايل
لا واحبيبي طير شلوى تعشاها قطاعة المهجة سناعيس حايل

وكانت بنو لأم هي القبيلة المسيطرة على نجد لأكثر من ٤٠٠ سنة ، فقد ورثوا بنو هلال في منازلهم ، ومع بداية الدولة السعودية تحضر أكثرهم في نجد والأحساء ، وهاجر بعضهم إلى العراق . ومشيخة بنو لأم سابقاً في حمولة آل عروج .

ومن بطون بني لأم في نجد :

الفضول:

ومن مشايخهم ابن غزي ، وابن جاسر ، وغيرهم ، وهناك حمايل كثيرة في نجد والأحساء والكويت تنتمي لهذه القبيلة الكريمة ، وهم من أشهر بطون القبيلة ، ومنهم آل دبوس ، وآل طالب في الحوطة ، وآل إبراهيم ، وآل يحيى ، وآل الشيخ (أهل ملهم) ، والقوامين ، وآل عودة ، وغيرهم من الأسر الكريمة التي يعذرني أبناؤها ، فهذا ما يحضرني الآن ، ومنهم من دخل مع قبائل أخرى مثل الذرفان مع شمر ، وغيرهم .

الكثران:

ومن مشايخهم ابن مذود ، وغيره ، وهم يسكنون مع بني عمهم الفضول في نفس المناطق تقريباً ، وكان لهم حضور لا ينكر في غزوات الدولة السعودية

الأولى ، ومنهم آل مظهر ، وآل باني أهالي مسكة وضرية ، ومنهم الكثران أهل الحريق والمزاحمية ، والجذالين في الأفلاج ، وآل سند ، وآل دعيج ، والعجاجات ، (وغيرهم من الأسر الكريمة التي يعذرني أبناؤها ، فهذا ما يحضرني الآن). ومنهم من دخل مع قبائل أخرى مثل الغنية مع بني خالد.

آل مغيرة:

كانت أكبر البطون في السابق ، وقد ملكوا الوشم وأعلى نجد في السابق ، ومنهم اشترى بنو زيد القحاطين شقراء والشعراء وغيرها ، ومن أشهر شيوخهم عجل بن حنيتم المغيري اللامي ، وقصره معروف في الشعراء في عالية نجد.

ومنهم آل كليب في الحوطة ، وآل مغيرة أمراء وشيقر ، وآل زيد في مرات وضرما ، ومنهم مؤلف كتاب المنتخب ، (وغيرهم من الأسر الكريمة التي يعذرني أبناؤها ، فهذا ما يحضرني الآن). ومنهم من دخل مع قبائل أخرى مثل فخذ المغايرة من قبيلة عتيبة.

ولا تزال بنو لأم حاضرة في مناطق وجودها ، فمنها الأمراء والعلماء والوزراء ، ومنها دكاترة في الجامعات في كل العلوم ، ومسؤولون ، وتجار.

أما شمر:

فهي غنية عن التعريف ، وهم ينتسبون إلى شمر الطائي ، ويسكنون الجبل؛ الذي سمي باسمهم فيما بعد بجبل شمر ، وهي قبيلة كبيرة ، منتشرة في نجد والعراق والشام والكويت ، ومن مشايخها المعروفين: آل جرباء ، وآل شريم ، وآل جبرين ، وآل طوالة. ومن الأسر المتحضرة آل علي و آل رشيد أمراء حائل على مدى ٤٠٠سنة تقريباً ، وقد امتدت إمارة آل رشيد حتى شملت نجداً كله ، ومنهم آل سبهان في حائل.

وأما بنو صخر:

وهي قبيلة معروفة تنسب إلى طيئ ، لها شهرة في شمال المملكة والأردن ، وكانت في السابق لها صولات وجولات في دومة الجندل وما حولها ، وشيوخهم هم آل فايز الكرام.

وأما بنو نبهان:

فهو بطن قديم من بطون طيئ ، وكانوا شجعاناً كراماً ، فهم من قتل الفارس المغوار الشجاع عنترة العبسي ، وهم موجودون الآن في العراق ، وبعضهم تحالف مع شمر .

وأما آل فضل بن ربيعة:

فهؤلاء من أشهر العرب في الشام ، وكانت لهم إمارة عظيمة في الشام ، هم وآل الجراح ، وممن ينتسب لهم الشاعر المعروف عمر أبو ريشة .

أخي الكريم أتمنى أن أكون وفقت في الرد على تساؤلك .

* * *

لقاء في حضرة الصحراء

لقيته وقد لفح الهجير وجنتيه ، وعبثت ذرات الرمال بذؤابتيه ، فحولت حنطة وجهه إلى سمرة داكنة ، لكنها أبقت بريقاً في سواد عينيه ، أنحف عوده المسير والسموم والرمال ، حتى غدا هيكلاً منجرد العود ، إلا أن الصحراء منحته صلابة القناة ، وشكيمة العود والعمود.

حدثنا عن البداية والانتماء قال: أنا نسب ينتمي إلى أرومة عربية ، عاربة ، يمانية الجذر من صلب قحطان ، موطني الأساس بيضاء اليمن ، إلى أن جاءت هجرة خراب (سد مأرب) ، فاندفع الناس سيولاً إلى جزيرة العرب ، ونزلنا نجداً ، وتحديداً بموقع يقال له (بئر هداج) أو (قليب جبر) ، ثم غادرنا إلى الشمال ، إلى أن انتهى بي المطاف في الجزيرة السورية ، على ضفاف نهر يقال له (الخابور) ما بين الفراتين. لازلت أباهي وأفاخر بأنني أحد أحفاد (عمرو بن معدي كرب الزبيدي) فارس الجاهلية والإسلام.

حدِّثنا كيف تعرفت إلى الصحراء؟ قال: حين أطلقت أول صرخة لآخر طلقة من طلقات المخاض ، قذفتني من ظلمة وضيق الرحم ، إلى وهج ونور الصحراء ، وسعة الأفق والفضاء ، شعرت للوهلة الأولى بالحرية والانعتاق. يومها تعرفت على الصحراء ، وأدمنت سُكْانها. تعرفت عليها حلاً ترحالاً ، راجلاً ومردوفاً وخيالاً. بدوياً يبحث عن العشب والمياه للشياه ، أدمنت سكانها هروباً منها إليها. روحاً وفكراً. كونها تمثل بالنسبة لي التوق العربي الأقوى ، والسياج المنيع الذي هزم رومل (ثعلب الصحراء) ، وموفور الحظ القائد الإنكليزي مونتغمري ، أما عن الفرق بين الصحراء وهذا المكان أجاب قائلاً: الصحراء. لا يفصلني عنها جدار كهذا الجدار القريب الذي يحجزني عن كل ما بعده ، بيد أن جدار الصحراء أفق واسع فسيح ، حين تنظر إليه من كوة هذا السجن (المدينة) إلى فسحته السماوية تتنسم الهواء الطلق ، والمكان

الرحيب ، والقمر المنير ليلاً ، والفلوات الغزلانية .

أما عن أسماء من تخرجوا من مدرسة الصحراء ، قال: خرجت محمداً ﷺ رسولاً للهدى والإنسانية أجمع . وخرّجت حذام وزرقاء اليمامة اللتين كانتا بعيدتي النظر ، ثاقبتي البصر ، إذ تريان على مسافة بضعة أميال . ثم خرجت المتنبي فمنحته نفساً طويلاً ، وهمة واسعة تطاول الجوزاء . وخرجت حاتم الطائي فأعطته الكرم ، وسعة الصدر ، والحلم . وخرجت عنترة العبسي صاحب العفة والشجاعة . وخرجت أبا فراس الحمداني فأعطته الصبر والمصابرة على الشدائد والأهوال .

سؤال: ماذا تساوي الصحراء لديك؟ أجاب: الصحراء عندي ثالوث أقدس: فهي الصحراء التي لو حكت كل ذرة رمل فيها لقالت: (غمست بدم شهيد) .

ثانياً: الجمل سفينة الصحراء ، ومضرب الأمثال في الاصطبار على تحمل المشاق والأسفار .

ثالثاً: وهو الأهم . البدوي: إنسانها العاشق الملتصق بها روحاً وجسداً ، حتى يكادا يذوبان ببعضهما بعض ، ثالوث متماسك ، مكين لعشرة صاحبه .

سؤال: ماذا تقول لك بعض الأمكنة في الصحراء؟ أجاب: حين مررت بصحراء تدمر . تذكرت زنوبيا ملكة البر ، وجيوشها الجرارة التي وقفت في وجه أعتى غزاة الشرق ، وتذكرت طرق القوافل العربية بين العراق وبلاد الشام وطريق الحرير ما بين الشرقين الأقصى والأدنى ، وعصور ازدهار التجارة ، وعز الدولة العربية ، أما حين مررت بصحراء بلاد الشام ما بين سورية والعراق ، فتذكرت المتنبي أحمد بن الحسين . وهو يقطع البراري والقفار ، من العراق إلى بلاد الشام ، ثم إلى مصر الإخشيدية ، وحيداً فريداً ، لم يصاحبه في رحلته تلك سوى همة تطاول الجوزاء ، ويراع يناوش الحكام والبلغاء ، وحصان أرهقته همة صاحبه ، وظل يكابر مكابرة صاحبه ، لكنه لم يخلع صاحبه أبداً .

سؤال: ما قولك في العالم المحيط بك ، عالم الإسمنت والآلة؟ أجاب: كل الذي أريد أن أقوله: إن صحرائي هي نقطة الصفر بالنسبة لي ، كما أنني أبدأ منها رحلة الألف ميل ، وحين يكون الطوفان على عالم الإسمنت والآلة ، فإني منها وإليها. فالجمل راحلتي ، وأحطاب الشيح والقيصوم ، وعرار نجد دفء رئتي. والحداء أغنيتي الخالدة الأبدية.

سؤال: ما قولك في سنيّ المحل والجفاف هذه لو بعت شياهك لتستريح ، وتأخذ قسطاً من الراحة بعد تعب وجهد وعناء وسموم الرمال؛ التي تسفح وجهك ، فتكوي بحرارتها وجنتيك؟!

أجابني قائلاً: قد أتفق معك يا صاحبي ، فأبيع الشياه ، ولكن كيف لي: هجران صاحب أدفأني بصوفه ووبره ، وأطعمني لبنه ، وآنسني في وحدتي بثغائه ، إن ثغاء القطيع بالنسبة لي جوقتي الموسيقية الأبدية؛ التي تمثل عندي أرقى سيمفونية يعزفها القطيع ، فتردد أصداؤها أودية وشعاب الصحراء المترامية الأطراف. كذلك كيف لي أن أترك وأهجر صاحباً وفياً. بل هو مضرب الأمثال في الوفاء لطالما بقي حارساً أميناً لي ولشياهي. إنها عشرة عمر ، وزمن مع هذا الكلب الأليف الوفي. ألا ترى معي أنه رمز الوفاء من بين كل المخلوقات؟!! ألا ترى معي أنه حتى بعض الناس قد تخلوا عن وفائهم ، وبعض قيمهم السامية النبيلة؟!؟.

الوفاء. تلك البقية الباقية من بعض مُثلنا وشمائلنا. الوفاء الذي إن سلخته عن جسدي. فلن تستطيع قوى الأرض قاطبةً خلعه من روحي وكياني ووجداني.

وإني أعد صحرائي بأني لن أخلع وفائي
كما لا أخلع انتمائي

* * *

جهز بن شرار

عندما تجتمع الفروسية والزعامة والشعر في شخص ، فأيّ سيرة جميلة سنقرأ ، وأي أخبار سنسمع سوى أحاديث البطولة والشجاعة ، وهذا بالضبط ما نتلقاه ونحن نفتش في سيرة (جهز بن شرار) الفارس والزعيم والشاعر .

هو (جهز بن فازع بن شرار) شيخ ميمون من بني عبد الله ، من قبيلة مطير ، ويرجع هذا البطن إلى بني عبد الله بن غطفان ، تلك القبيلة؛ التي ظهر منها بعض الصحابة ، ومشاهير الشخصيات في الجاهلية ، وصدر الإسلام .

عاش جهز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي وبدايات القرن العشرين؛ حيث إنه توفي في الأثلة ، عن عمر مديد سنة ١٣٥٩هـ (١٩٤٠م) ، ورسمت قصائده ومناسباتها الملامح الرئيسية لما نعرفه عن سيرته .

في صباه تحدث إحدى المعارك ، ولا يجد جهز فرساً يركبها سوى إحدى أفراس أبيه؛ التي أعطاها لشخص يدعى (كديميس) ، ويغضب جهز لفوات الفرصة عليه في القتال ، والذود عن قبيلته ، فيكتب قصيدة طالباً من فرسان القبيلة المعادية أن يقتلوا كديميس ، وبالفعل يقومون بذلك إكراماً لخاطره ، ويرسلون الفرس إلى جهز ، فيا لها من أخلاق وكرم ونبل من الطرفين قل نظيره ، ومن تلك القصيدة :

عسى فقيدة قوم (فازع) كديميس ... يضرب برمحٍ بين الأضلاع هاوي
أما أنت يا مثّال وإلا أنت يا نعيس ... تلقّفوا له عندكم بالحراوي
حيث إنكم فريّس وعيال فريّس ... أهل مهار الخيل ما أنتم شواوي

ويكبر جهز وفعاله ، ويصبح عقيداً للغزوات ، ويستمر الشعر يرافقه ، ونسمع قوله :

إليا تعلينا على أكوارٍ حزاب ... هجنٍ يبوجنّ الديار الخليّة
لي جالهن مع أيمن النير مضراب ... وما حدرت شرمة إلى الشبرميّة

كم ذود مصلاحٍ نحرك له أسباب وحنّا إلى شا الله نشتّت نويّه
إن جيت أعدّ أكواننا عدّ وحساب كوايـنٍ بفعول ما هي خفيّة

ومن حداء الخيل نقرأ لجهز بن شرار:

يا صايحٍ جانا قبال الليل عدايله شولٍ حراب
شلنا على عوص النضا والخيل كله رجا اللي طالبه ما خاب
لعيون مندق الثمر والهيل واللي حضر منّا كفى الغيّاب

وله أيضاً هذه الحداة:

ملحٍ عليهن الوسوم (لباب) فوق أرقابها
يوم الحرايب والزحوم أنا أحمد اللي جابها

وكان جهز بن شرار في شعره كثيراً ما يصف الوقائع والغزوات التي يقوم بها ، ولكنه عفيف اللسان لا يشتم ولا يذم ، بل يعطي خصومه ما يستحقون من المدح؛ فها هو يقول عن أعدائه الذين حاربهم:

شيوخ الضحى صبّابة الشاذلية أيضاً إلى جت للفعايل مديحين
ما أذمّهم والله رقيبٍ عليّه معييّ الله والقبايل معيّين

ومن القصص التي تروى عن جهز بن شرار أنه ذهب مرة للسوق في إحدى المدن لشراء القهوة ، فوجد المحلات قد أغلقت لراحة الظهر ، وتجول قليلاً لعله يجد مجلساً مفتوحاً يرتاح فيه إلى أن يحل العصر ، وتفتح المحلات مرة أخرى ، فلم يجد باباً مفتوحاً ، وهنا تذكر حي العوالي بالمدينة المنورة ، حيث منازل أصدقائه من قبيلة حرب ، والذين تعودوا فتح أبوابهم للضيوف حتى لا يحتاج أحد لمجرد طرق الباب قبل الدخول ، وأمام هذه المقارنة قال جهز:

دارٍ بها مرّ الفناجيل غالي مالي شبوحٍ يوم أنا في وطنها
يا ليتني سيّرت صوب (العوالي) اللي ترحّب بالمسايير أهلها
شرّايةٍ للكيف لو كان غالي ولا صكّوا البيبان عمّن دهلها

وفي أواخر عمره اتجه جهز بن شرار في شعره نحو الزهد ، وطلب المغفرة من رب العالمين ، ونلمس في شعره بهذه المرحلة؛ كما كان هذا الفارس

المغوار يحمل الإيمان العميق في قلبه، ونقرأ له قصيدة يوجهها لابنه (صنيتان):

دنياً فرحها من كرهها قريبي ... هنيّ من لا أشقاه همّه عن الغيب
طرايف الدنيا تحضر وتغيبي ... لو ساعفت بوّاقةٍ للأصاحيب
صنيتان يا بني كان لك بان عيبي ... استر عليّ إن كان فيّه عذاريب
ياما جرا لي في شبابي وشيبي ... من قطعة الفرجة على شمّخ النيب
وقحص المهار مشعثرات السبيبي ... جرايرٍ يشبع بها الطير والذيب

وله في الشكوى من الشيب:

أقفت يا بو فيحان وأقفى بها الشيب ... الشيب جاني دوب ماني باودّه
الشيب أشوفه مرّثٍ بي عذاريب ... يبذّ عدّاده إلى جا يعدّه
الشيب يردي المرجلة لو لقى طيب ... يلزم صحيبه لين عنها يردّه[1]

فركب فرسه ولحق بالقوم، وأخذ (قوت) عنوة منهم، وهي في هودج على جملها، وسار بها قاصداً قومه.

وفي الطريق قالت قوت: (أخاف يا فهيد إذا تزوجتني على الرغم من أهلي أن يعيّر العرب أولادنا بأنهم أولاد (قلاعة)، فالرأي أن تردني وتسوق (الجاهة) إلى أبي فيزوجك برضاه، وأنا أعدك وعد حب صادق أنني لن أرضى بأحد غيرك قريناً لي) فاقتنع بوجاهة رأيها، وردها إلى أهلها.

فلما دخل الظعن رماه عمها (وطفان) برمحه غدراً فقتله، فحزنت عليه (قوت) حزناً شديداً، ثم أخذت تندبه، وترثيه بالأشعار، وقد انقطعت عن الطعام والشراب إلى أن ماتت.

ومن قولها فيه:

يا طيور حومة يا طوال الصناقير ... أوصيكم عن فهيد لا تنقدنّه
يا كم عوده طوّح الرمح تطويح ... وأعطى اللحم لعشوشكم تنقلنّه

ومن قصيدة أخرى:

---

(١) نشر هذا الموضوع في العدد (١٠٩) من مجلة (المختلف).

يا عمّي يا وطفان ما بي خلافي أبكـي صبـيٍّ تـدفـق السمـن يمنـاه
يا عمّي يا وطفان ما بي خفافي أبكـي صبـيٍّ يـذر الخيـل طـريـاه
يـا ونّتـي ونّـة ثـلاث الهـرافـي اللـي جلـد حيـرانهنّـه مبـوّاه
يـا ونّتـي ونّـة عجـوزٍ كبيـرة(!!) شافت ولدها سبّق الخيل تنحاه[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (١١٩) من مجلة (المختلف).

غيبة مارق

من قصص البادية القديمة ما حدث لمارق بن عروج من شيوخ بني لأم القبيلة الطائية ، يرويها الشاعر منديل الفهيد؛ فيقول:

(ضافه اثنان كان عليهما طلب دم لقبيلة ما ، ولكن الضيف يحميه مضيفه حتى يصل للقبيلة المجاورة ، وعندما ذهبا بعد الغداء لحق بهما الغرماء ، وقتلوهما ، فخفروا ذمة مارق بهذه الفعلة.

وعلم مارق بذلك ، فتخفى مترصداً لمن قتل ضيوفه؛ فقتل منهم سبعة رجال بأوقات متفرقة ، وعندما صاح عليه الرؤساء بالأمان نزل لهم من الجبل الذي كان يترصد من فوقه ، ورضي بحكم الدية ، وهو الجلاء عن قومه سنة واحدة عن كل قتيل ، فجلى مارق بن عوج سبع سنوات عاشها في كنف قبيلة أخرى بعد أن أخفى اسمه الحقيقي ، وسمى نفسه (ريمان) ، وظهر بهيئة المسكين الذي لا هيبة له.

وذات مرة قال أحد الأشخاص ساخراً منه:

هنـيّ قلـبِ دالـهِ مثـل ريمـان ... مـا همّـه إلا الخـربطـة والـدوادي
يـدلـه ويـأكـل جـالـسٍ بيـن نسـوان ... متمـركـي بيـن الحطـب والهـوادي

وهنا ثار مارق غضباً ، ورأى أن الأمر لم يعد يسمه بالانتظار والصبر؛ فرد معرفاً بنفسه قائلاً:

عـزّ الله إنّـك بيـن ربعـك وطـربـان ... تجيـب مـن بـالـك لحـونٍ جـدادي
ما طبّ قلبك مثل ما صاب ريمان ... جـرحـي إلـى زادت ليـاليـه زادي
من عقب ماني (مارقٍ) صرت ريمان ... أنـا سمـي المـوت سقـم المعـادي

ومن قصائد مارق التي يوضح فيها ما حدث له في قومه هذه الأبيات:

كـلٍّ ينـام ونـاظـري سهـران ... النـوم مـا والله عليـه أشفيـت

ذبحت أنا سبعة من الشجعان ذبحتهم بالثار ما ذليت
كلّه لعينا ذبحة الضيفان ذبحوا وتالي سورهم بالبيت

ويذكر الفهيد في موضع آخر من مراسلاته سبباً آخر لكشف مارق عن شخصيته ، وهو أن فتاة قالت له: (ردّ الغنم يا عوج ساق) استخفافاً به ، ولما أغار الأعداء على قوم الفتاة لحق مارق بهم ، وقتل منهم الكثير ، واسترجع المنهوبات كلها وحده ، وقال مخاطباً تلك الفتاة التي كانت معجبة بشاب وسيم هرب وقت الغارة:

يا بنت ياللي غرّها زين عشّاق وراه ما فكّك ولو كان به زين؟
تقول: ردّ الضان يا اعيوج الساق وأنا حليّ مسولعات السراحين
يا ما ثنيت الساق من فوق الأوساق عسّاس بدوٍ عقب الامحال منحين[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصة في العدد (١٠٣) من مجلة (المختلف).

الزوجة المدخنة

(ابن جلق) شاعر عاش في الزبير خلال الفترة التي كان بها الشاعر المعروف محمد بن لعبون مقيماً في تلك البلدة ، وربطت بين الرجلين صداقة حميمة؛ كما هو واضح من قصيدة ابن لعبون: (ما طرق فرق الورق يابن جلق).

ويروى أن ابن جلق الذي كان صائغاً غاب فترة عن بلدته ، ولما عاد وجد زوجته تشرب الدخان!! ، فقال مخاطباً إياها:

لعل روحي يا اتلع الجيد تفداك ... أوحشتني في شربك النارجيلة
شرب التتن ما هوب زين لشرواك ... نكرٍ وياذي بالثنايا الصقيلة
من عقب ما كنّ اللوالو ثناياك ... يكسيه بالصفرة وتاتي كليلة
يا زين ترضى حين ما مزّ من فاك ... عقب الشهد يازي مذاقه: سبيلة
أو زاد ترضى نور صافي محيّاك ... يكسيه دخّان التتن المخيلة!!

فردت عليه الزوجة معتذرة من أن تدخينها كان بسبب غيابه الذي أضناها:

يا زوج ما واللي للإطباق سمّاك ... باعث جميع الخلق منشي المخيلة
آليت ميرايقن بربّك ومولاك ... الواحد اللي نرتجي مدّ نيله
مالي شفاةٍ بالغلاوين لولاك ... أنت الذي يا شوق أزويتني له
أبا أتسلّى به إلى حين ملقاك ... وإلا التتن ما هو بعندي نفيلة[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصة في العدد (١٢٣) من مجلة (المختلف).

راعي الأجرب

شعر : الإمام تركي بن عبد الله آل سعود

يُعدّ الإمام تركي مؤسس الدولة السعودية الثانية ، المعروف بالشجاعة والديانة والشهامة ، وهو من أسرة مباركة ، شهد لها التاريخ بالمجد والسؤدد .

قال هذه القصيدة يتوجد فيها على ابن عمه مشاري بن سعود ، وأرسلها تركي لمشاري الموجود أسيراً في مصر عند إبراهيم باشا سنة ١٢٣٥هـ ، وهي من القصائد المعدودة في الحكمة والحماسة :

طار الكرى عن موق عيني وفرّا ... وقزيت من نومي طرا لي طواري
وأبديت من جاش الحشا ما تدرّا ... وأسهرت من حولي بكثر الهذاري
خطٍّ لفاني زاد قلبي بحرّا ... من شاكيٍ ضيم النيا والعزاري
سريا قلم وأكتب على ما تورا ... أزكى سلامٍ لابن عمي (مشاري)
شيخٍ على درب الشجاعة مضرّا ... من لابةٍ يوم الملاقا ضواري
يامًا سهرنا حاكمٍ ما يطرّا ... واليوم دنيا ضاع فيها افتكاري
أشكي لمن يبكي له الجود طرا ... ضرّاب هامات العدا ما يداري
يا حيف يا خطو الشجاع المضرا ... في مصر مملوكٍ لحمر العتاري
من الزاد غادٍ له سنامٍ وسرا ... من الذل شبعان ومن العز عاري
وش عاد لو تلبس حريرٍ يجرّا ... ومتوّجٍ تاج الذهب بالزراري
فـ دنياك يابن العم هذي مغرا ... ولا خير في دنيا تورّي النكاري
تسقيك حلوٍ ثم تسقيك مرّا ... ولذاتها بين البرايا عواري
اكفخ بجنحان السعد لا تدرا ... فالعمر ما ياقاه كثر المداري
ما في يد المخلوق نفعٍ وضرا ... ما قدر الباري على العبد جاري
وأسلم وسلّم لي على من تورا ... وأذكر لهم حالي وما كان جاري
إن سايلوا عني فحالي تسرا ... قبقب شراع العز لو كنت داري

يـــوم إن كـــلٍّ مـــن خـــويّـــه تبـــرا حطّيت (الأجرب) لي خويٍ مباري
نعـم الـرفيـق إلـى سطـا ثـم جـرا يـودع منـاعيـر النشـامـى حبـاري
رميـــت عنـــي بـــرقـــع الـــذل بَـــرا ولا خير فيمن لا يدوس المحاري
يبقـى الفخـر وأنـا بقبـري معـرا وأفعال (تركي) مثل شمس النهاري
أحصنت نجدٍ عقب ما هي تطرا مصيـونـةٍ عـن حـرّ لفـخ المـذاري
ونـــزلتهـــا غصـــبٍ بخيـــرٍ وشـــرا وجمعـت شمـلٍ بـالقـرايـا وقـاري
والشـرع فيهـا قـد مشـى واستمـرا ويقرأ بنا درس الضحى كل قاري
زال الهـــوى والغـــيّ عنهـــا وفَـــرّا ويقضي بها القاضي بليّا مصاري
وإن سلـت عمّـن قـال لـي لا تـزرا نجـدٍ غـدت بـابٍ بليّـا سـواري
ومـن أمّـن الجـانـي كفـى مـا تحـرا وتـازي حـريمـه بـالقـرايـا وقـاري
وأجهدت في طلب العلا لين قرا وطاب الكرى مع لابسات الخزاري
ومن غاص غبّات البحر جاب درا ويحمد مصابيح السرى كل ساري
وأنا أحمد اللي جاب لي ما أتحرا وأذهـب غبـار الـذل عنّـي وطـاري
والعمـــر مـــا يـــزداد مثقـــال ذرّا عمر الفتى والرزق في كفّ باري
وصـلاة ربـي عـد مـا خـطّ بـالـرا على النبي ما طاف بالبيت عاري[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (٩٦) من مجلة (المختلف).

العبيّة

شعر: شالح بن هدلان

قصيدة لشالح بن هدلان الذي سبق التعريف به في الفصل الأول ، وقالها شالح خلال زيارته لبستان صديق له من أهالي (الحوطة) يدعى (فواز) ، وكان الأخير قد عرض على شالح خيار نخله ملكاً له إن هو قبل ترك البادية والإقامة بين هذه البساتين ، فكان رد شالح هو الرفض القاطع ، موضحاً أسبابه المقنعة الآتية:

والله يـ لـــولا بنـــت العبيّـــة ... إنّ اتحضـرا فـ البلـد عنـد فـواز
شبّهتهـا والشيـخ يقهـر كميّـه ... أدميـةٍ عـدّت علـى خشـم محـواز
والسـاق نـاعـورٍ تعـاقـب دليّـه ... عليـه ورد البـدو غـاديـنٍ أركـاز
والله يـ لـولا الـرب يـزرا عليّـه ... لاقول: (نيرة)، والرمك غيرها: أبياز
يـا زينهـا بـالجـوخ والقـرمـزيـة ... إلـى زبـر جمـعٍ ورا جمـعٍ أركـاز
تلحـق بمسطـورٍ سـريـع الهـويـة ... يضرب بحد الرمح ما هو بهواز
أردّهـا لعيـون جـالـي الثنيـة ... غروٍ صغيرٍ كلّ ما جا الخبر فاز
لـزمٍ علينـا فـكّ راعـي الـرديّـه ... بشلفا وريعٍ من هوت فيه ما ناز
فعلٍ لبوي ، وفعل جدي ، وليّه ... مـاكـر حـرارٍ مـا شـرك فيهـن البـاز
هـل فـرسـةٍ مـن معـاد بقعـا صبيّـة ... لي جا النذر نرسي، ولاحن بنزّاز[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (١٠٨) من مجلة (المختلف).

طوارق هوانا

شعر : نمر بن عدوان

من القصائد التي لم تنشر من قبل للشاعر نمر بن عدوان ، وهي في الشكوى من الحب ، ولعلها قبل وفاة زوجته وضحى التي اشتهر بمرثياته لها :

سارت خشارق في طوارق هوانا ... تحوف زفراته لواهب لواميع
ليلة ثمانٍ في توالي رمضانا ... غايب قمرها والكواكب توابيع
في جنح ليلٍ راحت الروح وأنا ... لا قلت روحي ، ياخذ الوجد توليع
تمنيت روحي ياخذونه أعدانا ... خلف المخلّى في وجيه المفازيع
يرد ورا المطروح ساعة نخانا ... في وجه صبيانٍ سكارى مداريع
وإلا بغاراتٍ لنا يوم كانا ... والنفس ياخذها سبايب توالي
خذها حبيبٍ بالمودة سلانا ... لا في غلاه أخذ ولا أشري ولا أبيع
قد خمّ قلبي خمّة الخيبطانا ... كدريّةٍ هفّت مع ذاوبة الريع
قلبي هبيل وبالخلايق شقانا ... يا شاري القلب المشقّى وأنا أبيع
قلبٍ بقلب ، وزود منّا ثمانا ... وضحٍ عليهن مثل غتر المصانيع
يا لايمي يبلاك رافع سمانا ... بسبعٍ بسبع الله سبع التسابيع[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (١٠٤) من مجلة (المختلف).

ماني وأنا بندر

شعر : بندر بن سرور

يعد بندر بن سرور (١٩٤١ ـ ١٩٨٥م) واحداً من الشعراء النبطيين المميزين في هذا القرن ، وقد ترك تراثاً شفهياً يمتاز بالجودة وقوة الأسلوب ، وهاتان القصيدتان من أشهر قصائده ، راحت كثير من أبياتهما مضرباً للمثل ، وقد كتب بندر أولاهما في بداية حياته ، ثم نسج على نفس وزنها وقافيتها القصيدة الثانية ؛ مما جعل الكثيرين يظنونها قصيدة واحدة :

(١)

يـا الله يـا جـالـي الأمـور المهمّـة ... تجلى وهج قلبٍ برى حال راعيه
البـرّ دجتـه والبحـر رحـت يمّـه ... وأدرج سبب حظٍّ على الله مساعيه
يوم إنّ ولد اللاش رزقه على أمّه ... رزقي على اللي ميّت القشع يحييه
مـانـي وأنـا بنـدر ببيّـاع دمّـه ... خسـران يـا بيّـاع دمّـه وشـاريـه
اللـي يبيّـع لابسـات الأزمّـة ... ثـورٍ يبـا بيـض العمـاهيـج تغنيـه
خطـو البخيـل اللـي يكبّـر معمّـه ... يقـرأ الكتـاب وواجـب الله يخليـه
إمّـا هـرج لـك فـي رفيقـه بنمّـة ... وإلا عطـى وأمٍّ تضيّـع هقـاويـه

• • •

(٢)

يـا مـلّ قلـبٍ كـلّ مـا مـات همّـه ... دارت دواليـب الـدهـر لـيـن تحييـه
أحـدٍ ينـام وحـطّ رأسـه بكمّـه ... واحـدٍ تخـمّ النـوم عينـه وتخطيـه
واحـدٍ يحـاول بـالـردى بنـت عمّـه ... واحـدٍ يحـاول ستـر عـذراً عـوانيـه
أنشـدك يـاللـي كـلّ شـيٍّ تتمّـه ... تقـرأ الكتـاب وكـل فـرضٍ تصلّيـه

ويـش القليـب اللـي عميـقٍ مجمّـه ما سرّ غرسه ماه عطشى سوانيه
سـمّ السبـب يـا عـارفٍ عنـه سمّـه سمّ السبب يا عارفه قبل أسمّيه[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العد (١٠٢) من مجلة (المختلف).

عرضة نجدية

شعر: عبد الرحمن بن صفيان

تظل هذه العرضة نصاً مدهش الرؤى ، قادراً على تلخيص التاريخ الطويل؛ لتوحيد الجزيرة العربية على يد الملك عبد العزيز آل سعود في أبيات قليلة:

نحمد الله جت على ما تمنّى ... من وليّ العرش جزل الوهايب
خبّر اللي طامعٍ في وطنّا ... دونها نثني إلى جت طلايب
وأجد اللي قبلكم قد تمنّى ... حربنا لي راح عايف وتايب
يا هبيل الرأي وين أنت وأنا ... تحسب أن الحرب نهب القرايب
لي مشى البيرق فـ زيزومه أنا ... حن هل العادات وأهل الحرايب
كان ما نجهل على اللي جهلنا ... ما سكنّا الدار يوم الجلايب
ديرة الإسلام حامينهنا ... قاصرينٍ دونها كلّ شارب[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (٩٠) من مجلة (المختلف).

الشيخة

شعر: مقحم النجدي

هناك أكثر من قصيدة سميت بـ (الشيخة) في التراث النبطي ، وقد تكون هذه أكثرها شهرة لما تحتويه من حِكَم ومعانٍ بليغة:

يا الله يا المطلوب يا والي الأقدار ... إنت الذي مدّات جودك لطيفة
يا الله يا المعبود عاون هل الكار ... تحلّ شطّاتٍ عليهم كليفة
اللي مجالسهم بها بنّ وبهار ... ونجرٍ يصوّت للهجافا رجيفه
مكارمٍ للضيف أصيلات وبكار ... ومفطّحاتٍ في صحونٍ نظيفة
يا مزنةٍ غرا من الوسم مبدار ... اللي جذبنا من بعيدٍ رفيفه
تومر علي كلّ المفالي بالأمطار ... تصبح بها خدّان قومي مريفة
غب الحيا فاحت بها ريه الأزهار ... تخالف النوّار مثل القطيفة
ترعى بها قطعاننا سرّ وجهار ... ترعى زماليق الفياض النظيفة
قطعاننا ما يرتعن دمنة الدار ... في ظل مروين الغلب والرهيفة
ترعى بضف الغوش بقصاف الأعمار ... تقطف زهر مرباعها مع مصيفه
في ضفّة الله ثم (جبرٍ وجبّار) ... خيّالةٍ يوم الملاقا عنيفة
ترعى بها وضحا من الذود معطار ... غبوقة الخطار عجلٍ عطيفة
يبني عليها بنية اللبن لجدار ... عقب الضعف راحت ردومٍ منيفة
ما هي حكايا مسردٍ عقب ما نار ... اللي نكس وأطراف رمحه نظيفة
هذي حكايا مجرّبين بالأقدار ... حريبنا لو هو بعيدٍ نخيفه
ألين من الماهود وأقطع من النار ... وحريبنا يرجع فشيلٍ معيفه
إن سوهجوا عنها قليلين الأبصار ... من دونها نروي الحدود الرهيفة
الصبر مفتاح الفرج عند الأذكار ... ومن لا صبر تصبح حواله كسيفة
خطو الولد مثل البليهي إلى ثار ... زودٍ على حمله نقل حمل أليفه

وخطو الولد يبهش على موتة النار ... مع العرب يشبه لخطو الهديفة
وإلى بخصته ما سوى ربع دينار ... صفرٍ على عودٍ تضبّه كتيفه
وخطو الولد يا مال قصاف الأعمار ... لا نافعٍ نفسه ولا منه خيفة
وخطو الولد مثل النداوي إلّي طار ... صيده سمانٍ ما يصيد الضعيفة
حنّا كما المشخص عن الصرف ما بار ... بالوزن يرجح والمصاري خفيفة
حنا نرافي زلّة الجار لو بار ... نضحك حجاجه بالعلوم اللطيفة
نرفى خماله رفية العش بالغار ... ونودع له النفس القويّة ضعيفة
ولا نبدي الخافي إلى صار ما صار ... يفل قصير البيت لو بان حيفه
أحدٍ على جاره بختري ونوار ... واحدٍ على جاره صفاةٍ محيفة
الجار لابدّه مقفّى عن الجار ... وكلٍّ بجيرانه يعدّ الوصيفة
نكرم سبال الضيف حقٍّ وتعبار ... لي من ولد العفن شحّ برغيفه
لابدّها ترجع تواريخ وأذكار ... وتبقي لدسمين الشواري وظيفة
يالله ياللي يمّه الحجّ زوّار ... ياللي عبيده كلّ يومٍ تضيفه
عساك تفرجها على كلّ محتار ... يهمٍّ وهوجاسٍ تزايد نكيفه
وصلاة ربّي أعداد ما اخضرّ الأشجار ... على نبيٍّ له شريعة شريفة[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (٩٢) من مجلة (المختلف).

طرب وهواجيس

شعر: تركي بن حميد

قصيدة طبقت شهرتها الآفاق؛ حتى عدت منارة من منارات شعر الحكمة في تراثنا النبطي ، وشاعرها غنيّ عن التعريف ، فهو واحد من أهم شعراء القصيدة النبطية على امتداد تاريخها ، وهو الشيخ تركي بن صنهات بن حميد العتيبة ، المتوفى سنة ١٢٨٠هـ.

نومك طرب وأنا بنومي هواجيس ... ما سهّرك بالليل كثر الهمومي
أسهر إلى نامت عيون الهداريس ... وبالليل أراعي ساهرات النجومي
قالوا جهلت ، وقلت جهلٍ بلا قيس ... الجاهل اللي ما يعرف اليمومي
أشوف عدلات الليالي مقابيس ... ولا أحدٍ من الدنيا عظامه سلومي
تضحك وتخفي كل خفيّ الهناديس ... تفطر لها يومٍ ويومٍ تصومي
اعمل وتلقا ، وافهم العلم بالقيس ... دنياك لو زانت تراها نقومي
والعز فوق معسكرات السواديس ... إلى قصدت اللي بالاشيا رحومي
قبٍّ تنازى بالنشاما كراديس ... والطير في روجاتهنّه يحومي
إلى توافق مشْور السوّ وإبليس ... تبرّ منه وعزّ ربّي يدومي
بالليل أصالي حاميات المحاميس ... والصبح ألاوي كل قبّاً قحومي
أربع سنين ودمع عيني أماريس ... العين تسهر كنّ فيها هزومي
وإلى ركبت معالجات المضاريس ... يبرد على قلبي لهيب السمومي
صوابنا بالميل غمقٍ إلى قيس ... وطريحنا في مثبره ما يقومي
إن جن بنا مثل النعام الأماريس ... لي خفّ عجلٍ مع رقاق الحزومي
استلحق اللي يطلبون النواميس ... اللي من الأقصين وأدنى اللحومي
لا خير في كثر الحكا والتماليس ... هرجٍ بلا فعل يجي به وهومي
لومي على اللي ينقلون العبابيس ... وأهل الفرنج وكل رامي لحومي

إن جن بالميدان مثل الدواويس ... وطار الغطا عن قانيات الرقومي
عرجٍ بأهلهن كنّهنّ القرانيس ... على الطريح مصوباتٍ كظومي
إلى سمك عجّ الرمك بالملابيس ... المسعد اللي حظ ربعه يقومي
حتى يزين لنا المثل والتوانيس ... والكيف طاب لمن يفك القحومي
من لا يدوس من قبل ما ديس ... عليه داسوه العيال القرومي
ومن لا يقلط شذرة السيف والكيس ... يبدي عليه من الليالي ثلومي
والقصر ما يصلح على غير تأسيس ... ومن لا تعلم ما تسرّ العلومي
ومن لا خذا الدنيا بميزٍ وتقييس ... مثل الذي يصبح بليلٍ يعومي
كلّ القلم من كتبنا للقراطيس ... وركابنا من كثر الأقران تومي
الشيخ من يعطي الفقارى المفاليس ... يبدل الساعة بعزٍّ يقومي
والحرّ لي دبّت عليه النواميس ... يشهر وعن دار المذلة يشومي
وإلى اكترب من بعض الأشيا نسانيس ... إعزم ولابدّ الفرج بالعزومي
باب الفرج لبسك نظيف الملابيس ... ينجيك بأيام الكرب والزحومي
أوجس بقلبي مثل دقّ النحاحيس ... الله يلوم اللي لحالي يلومي
يجلي صدا قلب ضبيح المهاريس ... لي قام شرّاب القهاوي يعومي
ودلال فوق النار دايم مجاليس ... إكرامهن حقٌّ علينا لزومي
من صنعة الصبّة وخمس التخاميس ... بريّةٍ يعمل بها كل يومي
وبهارهن هيلٍ بليا حواسيس ... كيفٍ يعدّى للنشاما القرومي
عدّه لحمّاي العياد المراويس ... وإلا الحصان اللي بقينة وهومي
وصلاة ربي عدّ رمل الطعاميس ... على شفيع الخلق يوم اللمومي[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (٩٣) من مجلة (المختلف).

يا لزير. يا لزحار

شعر: خضير الصعيليك

واحدة من أروع قصائد المدح في تراثنا النبطي لغة وبلاغة ، ولا غرو فهي في الثناء على (أبي خوذة) الشيخ عبد الكريم بن صفوق الجربا ، المعروف بكرمه البالغ:

يا شيخ أنا جيتك على الفطّر الشيب ... قـزانّ مـن دار المحبيـن دبّـاب
دبـا علـيّ ودبّ منـي بتقـريـب ... قلّ المواشي يا ذرا كلّ من هاب
مـن دارنـا جينـا لـدارك مغـاريـب ... يمـوم نجـمٍ لا تغيّـر ولا غـاب
متخيّـرك يـا منقـع الجـود والطيـب ... لا خيّـب الله لـلأجـاويـد طـلّاب
سـلام مـن قلـبٍ محبٍّ بـلا ريـب ... له يستتاب الشاب ويشبّ من شاب
يا لجوهر الناريز ، يا لعطر، يا لطيب ... يا لصعل، يا لصهال، يا حصان الأصلاب
يا لزير ، يا لزحّار، يا لنمر، يا لذيب ... يا لليث، يا للايوث، يا لشبل، يا لداب
يا لضاري الضرغام، عطب المضاريب ... يا لفرز ، يا مغراص ضدّه والأجناب
يا لنادر الهليع ، عقاب المراقيب ... يـا نـافـلٍ جيلـه بعيـديـن وأقـراب
نطّـأح طـابـور العسـاكـر إلـى هيـب ... ستر العذاري لي غشى الزمل ضبضاب
عيبك إلى من قالوا الناس بك عيب ... بالسيف لا رقاب المناعير قصّاب
وعيبك إلى من قالوا الناس بل عيب ... للسمن فوق مفطّح الحيل صباب
وذبح الغنم والكوم حرش العراقيب ... وعطا المهار وبذل مالٍ بلا حساب
وبك شارةٍ كبّ الفراد المحانيب ... وبـذل الطعـام وللتنـافيـل كسّـاب
نمـراً تجـرّه للعـدا والأجـانيـب ... تفجا بها غرّات ضدّك بالأسباب
ومن عقب ذا بالعون ما بك عذاريب ... أحلى من السكر على كبد شرّاب
جيناك فوق الهجن شيب المحاقيب ... لمشاهدك يا شوق وضّاح الأنياب
الحرّ يضرب بالكفوف المعاطيب ... والتبغ قنّاصه من الصيد ما جاب

وأنت الذي تافي بكلّ المواجيب ... كنك (هديب الشام) بالحمل عتّاب
تثني لأبو صلفيق ما به تكاذيب ... شيخ الصخا معطى طويلات الأرقاب
يا ما عطيت اللي يجونك طلاليب ... كم واحدٍ جا لك من الوقت منصاب
وفرّجت همّه في كبار المواهيب ... من عليمٍ يزمي كما يزمي (الزاب)
عزّ الله إنّك طيّب وتفعل الطيب ... والطيب يجني منك يا زاكي الأنساب
ولا هو كثيرٍ يا مهدّي الأصاعيب ... أفعالكم يعدّه اللي بالأصلاب[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (٩٥) من مجلة (المختلف).

الحبيب الجنوبي

شعر : حمد المغلوث

كتب حمد المغلوث (سبقت ترجمته في الفصل الأول) هذه القصيدة مخاطباً الشيخ علي الخليفة الصباح ، وقد تغنى بها على الربابة الفنان عبد الله الفضالة :

باح العزا من الحبيب الجنوبي ... يا على كنّ العقل بالكفّ مجذوب
يا علي تذكار أريش العين دوبي ... زوله يزّول لي وأنا عنه محجوب
أبكي على فرقاه والعي وأهوبي ... والدمع من عيني على الخد مسكوب
من حرّ نار الولف مزّعت ثوبي ... وطوّحت بالونة على كل نبنوب
عقب الستر كلّ الخلايق دروا بي ... والسدّ ثار من الحشا ثورة الطوب
يا علي لي نسنس نسيم الهبوبي ... نودٍ من الشرقي برى حالي النوب
سلّال سل الحال من كثر لوبي ... لا هم لا فرقا ولأني بمطبوب
إلاّ بلاي فراق من سدّ نوبي ... عن كلّ معشوقٍ من البيض رعبوب
يا علي يا فرز الوغا يا مَحْبوبي ... وش أنت شايف يا حجا كل مكروب؟
عيّى يطيب لي الكرى مع شروبي ... كن الحشا يصلى على حرّ لاهوب
ليت الركايب يا علي ما مشوا بي ... من ديرة المحبوب والرزق مكتوب
ياليت ربّي ما سعى في ركوبي ... ليت السنع معتاق والدر مقضوب
واليوم يا غافر عظيم الذنوبي ... أسألك يا المطلوب يا خير مطلوب
تجمع بشملي مع حبيبٍ عجوبي ... محبوب ما غيره من الناس محبوب
اللي كما بدرٍ قرب للغيوبي ... أو شمعدانٍ في دجى الليل مشبوب
أصفر عفر ، والكفّ منه مخضوبي ... ومجمّله ربي ولا فيه عذروب
إلا الوفا ما هو مكور كذوبي ... ومغفّلٍ ما يعطي العلم مقلوب
عزّ الله إنّه ثقّل الحمل صوبي ... بالحب وأدعاني شقيٍّ ومتعوب

هو ريف روحي يا علي لو حكوا بي ... مصدود عن عذل العواذل ومحجوب
ما أطيع أنا العذّال لو برّقوا بي ... ولا أكفّ عن وصله ولا أسلي ولا أتوب
ما أسمع ولا أوحي عن حبيبي ولو بي ... صبرٍ فلا حاربت زادٍ ومشروب
ما أطيق أنا الفرقا رقاقٍ جنوبي ... وقلبي ضعيف ودايم الدوم متعوب
يوم الليالي عن حبيبي رموا بي ... غديت مكتوف الجناحين مصيوب
مثل الفقير اللي غريبٍ عزوبي ... مستاجعٍ ماله حدٍ يقضى النوب
أو شبه حيدٍ للسراة مغصوبي ... حمله ثقيل وصار بالخفّ شاذوب
وإلا كما طفلٍ يتيمٍ يحوبي ... من قلّة الوالي ورا الباب مذبوب
هذي سواتي عقب فرقا الجنوبي ... اللي هجرني ما لفي منه مكتوب
هو يحسب أنّ البيض عقبه غدوا بي ... وأنا بصوب وعن هوى البيض في صوب
وين أسلي اللي لي ذكرته يذوبي ... عقلي ، وهو متغطرفٍ يسحب الثوب
غروٍ من البيض العذارى محسوبي ... ترف الحشا ومعزّلٍ تقل مسيوب
كنّ الردايف لا اقتفاها الهبوبي ... صيوان حكّامٍ بالأطناب مضروب
وعيونه الخرسات سودٍ سطوا بي ... ونهود مثل التين والعنق مسلوب
يا علي وين أسلى الهوى وين أتوبي ... وين أقدر التجليد والعقل منهوب
يا علي خلّوني حزينٍ ألوبي ... لوب الحمام اللي على رأس نبنوب
غير الوصل ماشي يبرّد لهوبي ... وصلّوا على المختار ما افترّ دالوب[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (٩٩) من مجلة (المختلف).

حيّ اللي شراها لي

شعر: فراج بن ريفة القرقاح

قصيدة من نوادر الشعر النبطي بجودة معانيها ، وقوة أبياتها؛ لشاعر رغم قلة القصائد التي بحوزتنا له؛ إلا أنه يعد بحق من رموز الشعر النبطي على مر العصور ، وقد توفي في منتصف القرن الثاني عشر الهجري ، وهذه الأبيات الجميلة دليلنا على ذلك:

قال ابن ريفه: بدا في المرقب العالي ... بأعلى المراقيب تومي به هبايبها
ما يدهله كون صافي الريش والوالي ... وإلا الولع يوم يفنك في عجايبها
هيّضني الرجم وأنا من أولٍ سالي ... لهم على القلب ديرانٍ شطيت بها
يا مرقبٍ جاك من الأمطار همّالي ... نصوب مزنٍ من المنشى يهلّ بها
لهم علينا شدوق الثفن لي سالي ... وعطفة طريبٍ إلى زافت جوانبها
لمّا غدا الفيض كنّه زرع عمالي ... سيله من القدم للبطنان ناهبها
كم مرّةٍ قد نزلنا عشبه المالي ... ببيوتنا اللي وزا المجرم يلوذ بها
نبني بيوتٍ بعرّافٍ وجهّالي ... وأن جا النذر من حفيفٍ ما نزهبها
عسى هل الشين ما يبقى لهم تالي ... وأهل السلوك الردي يا رب تذهبها
واللي جليلٍ وللشطّات حمّالي ... ارفع نواصيه يا ربّي وقطّبها
أنا من الخبرة اللي شورهم عالي ... وأمّا هل البخل بأمر الله نجنّبها
يا راكبٍ من على اللي مشيها أرمالي ... مأمونةٍ يرفع الهلان غاربها
تزها السفايف وتزها الخرج وحبالي ... ومجرّبٍ لي سرى في الليل صالبها
حيّ الطويلة وحيّ اللي شراها لي ... من واحدٍ جابها في السوق جالبها
شريتها في الدهر يوم أرخص الغالي ... بمية وخمسين ما يهمل بغايبها
حديدها واذكر الله كنه ريالي ... وكن الحيايا تطوّى في مقاضبها
بنتٍ وغرها زبادٍ عند دلالي ... وإلا طموحٍ هواها من يلاعبها

واضرب بها الوعل لي منّه تهيأ لي ... أو حنيــة كبيــر الــرأس شــايبهــا
لي ثأر بارودها إلي العود متالي ... منهــا الــريــايــا مقطعــةٍ نشــايبهــا
واطمر بها عند ربعي وأمنع التالي ... لي هاب ولد الردي ما عاد يزهبها
عط الطويلة عريب الجدّ والخالي ... ولــد الــردي لا تخلّــونــه يــزولبهــا
وإلــى لفــونــا مــن المقنــاص زعّــالــي ... أحدٍ مـدح بنـدقـه واحـدٍ يعـذر بهـا
بشّرتهم بالعشا من عقب مقيالي ... والقايدة من مردّ الكوع ضاربها
وأسرح بها في السرح ما نيب كسّالي ... وكــم سـرحـةٍ فـرقـت منهـا ربـايبهـا
يا الله وأنا طالبك عطني هوى بالي ... حمـراً مـن الجيـش طفّـاحٍ جنـايبهـا
لي روّح الجيش حاديه أشهب اللالي ... لي هي تورّد وسيعٍ صدر راكبها
اللي على كورها واللي بالحبالي ... واحد على عيزها واللي بغاربها
لي روّحت مع تخاتيخ الخلا الخالي ... كــن الــذيــابــه تنهّــش مــن جنــايبهــا
فــاستغفــر الله اللــي فــوقنــا عــالــي ... حطّيت في حفرة رزّوا نصايبها[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (١٠١) من مجلة (المختلف).

سراج البيت

شعر: سليمان بن شريم

كم نحن في هذا الزمن بحاجة لنصيحة ترشدنا للخلق القويم ، وهذه نصيحة من شاعر عرف بكرم السجايا ، توجه بها لولده ، وللأجيال المتلاحقة ، فلنستمع لما يقول:

يا ملّ عينٍ في محاجيرها شوك ... والقلب به عن لذّة النوم دكّاك
لي دكّ في قلبي من الهمّ داكوك ... جاوبت طربان الحمايم والأدياك
عزّي لحالك يا (عزيّز) وأنا أبوك ... كان الزمان اللي وطاني توطّاك
أمشي وكنّي يا عزيّز بتابوك ... في حبس جبّارٍ تحت حكم الأتراك
على عشيرٍ دونه الباب مصكوك ... ما غير أمرّه وأتعدّاه منّاك
وقعدت أنا في تالي الوقت مملوك ... دورة زمانٍ بين جالك وتعدّاك
افهم وصاتي يا عزيّز وأنا أبوك ... دامك صغير وغاية العلم يقراك
تراه ما ينفعك عمّك ولا أخوك ... لي صار ما تقضي لزومك بيمناك
وربعك إلى بان الخلل فيك عافوك ... أقرب قريبٍ لك من الناس يشناك
وإن كثر مالك صدّقوا لك وطاعوك ... وإن قلّ ما بيديك شانت سجاياك
لو تطلب الما عندهم كان ما أسقوك ... ابعد مزارك عن وطنهم ومرباك
وإن طاب حظّك صدّقوا لك وزاروك ... وإن بار كلٍّ ما يبي غير فرقاك
وإلى اعترض لك من صروف النيا صوك ... كلٍّ تبرّي منك ما هوب وياك
وهرّاجة المجلس إلى جيت ورّوك ... منازلٍ تطرب نظيرك بدنياك
واللي يجي من رفقته ريب وشكوك ... احذر عنه بالحال ليّاك ليّاك
وإلى جفوك أهل الوطن واستخفّوك ... إشلع غريسك ثمّ هدّم ركاياك
وعطهم مجازاهم إلى منّهم جوك ... وأغلق ضميرك لا تعلّم بقصياك
تراك لو تمشي على الرجل صعلوك ... أحسن من اللي تلتجي له وياطاك

خدمتك شيخٍ كنّك العبد (مبروك) يـأمـرك فيمـا يشتهـي ثـمّ ينهـاك
وترى الملوك اليا صفوا لك وحبّوك أصغـر خـدمهـم ينتقـم لـك وينفـاك
وإلى جفوك أهل الوظيفة وعافوك خفّـت مـوازينـك وكـلٍّ تهقـواك
إلـى قضـوا منـك اللـوازم وخلّـوك تفرّقوا وأنت احتمل كلّ ما جاك
كنّـك سـراج البيـت للنـور شبّـوك وإلى قضى الوارد حدا الربيع طفّاك
وإلا كمـا ليمـونـة الحمـض مصّـوك وإلى قضى منها الطعم طوّحوه ذاك
وأعـرف تـراك مبـرقـعٍ منـه مشبـوك وحدّرك في حبل الندامة ولا أرقاك
إن طبت ما حبّوك وإنْ جرت زاروك وتقضـي حيـاتـك نـاقـلٍ داك بـرادك
واصحى لخلاّن الرخا لو تغالوك إعرف ترى أطيبهم إلى احتجت يجفاك
كنّك خويّ (مقيط) دهووك وأغووك حقّك عطاك رشاك وأقفى وخلاك
واحذر عن العيلة ترى الحق مدروك مثل العمل يدركك ما منه فكّاك
وإن كان عدوانك على الضيق حدوّك فأخصم طلابتهم بعجفاك وأقداك
وإن كانهم في واضح الحقّ ماشوك نـاظـر مطـاليـع الفـرح قبـل مبـداك
وإن طاوعوا لإبليس ثمّ استهانوك فاصبر على البلوى ودفنك رزاياك
وزرهـم تـراك اليـا تـوانيـت زاروك إن ما بديت بصاحب السوّ يبداك
إن كانهم ما طاوعوا لك وعافوك اضرب على الكايد ليا عميت أرياك
لو هذّبوا لك بالمصايب وضدّوك مل سذبحونك قبل تدني منایاك
واحلم عن الجاهل ترى الحلم مبروك وقم للضعف اللي من الضيم ينخاك
وادمح خطا جيران بيتك إلى أذوك ترى القصير وحرمة الجار بحماك
عطهـم جميـعٍ حقّهـم لـو تنـاسـوك في كلّ ما يصلح بدينك ودنياك
وقم للرجال إلى عنوا لك وضافوك أغلى كرامتهم: حجاجك وبشراك
وأعرف ترى مالك من الضيف مشروك لولاه يطلب حاجته فيه ما جاك[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (١٠٣) من مجلة (المختلف).

يا كليب. شبّ النار

شعر: دغيم الظلماوي

أرسل لنا القارئ فنر صالح الظلماوي من عرعر النص الكامل لقصيدة (يا كليب) المعروفة في وصف القهوة للشاعر القديم دغيم الظلماوي.

يا كليب شبّ النار. يا كليب شبّه ... عليك شبّه ، والحطب لك يجابي
قلّط لها يا كليب منجزل خبّه ... وشبّه إلي منه غفا كل هابي
حنّا علينا جيب ماها وحبّه ... وعليك تقليط الدلال العذابي
اغدق ليا شبّيتها ثم قبّه ... تدعي لها ربعٍ سراةٍ غيابي
لوهم بعيدٍ شوف ضوّه ينبّه ... ولو هم قريبينٍ بنبح الكلابي
بنسريّةٍ يا كليب يا شين غبّه ... ليا نسنست لكنّها سمّ دابي
متلطّمين وناطحين مهبّه ... متكتفين وسوقهم بالعقابي
خطو الولد يا حيف ما ينحسب به ... معيرةٍ على غضير الشبابي
وش عاد لو يلبس زبونٍ وجبّة ... يصير منهم من حساب الزهابي
الوالمة يا كليب عجّل بصبّه ... والرزق عند اللي ينشي السحابي
صبّه لقرمٍ صرفته ما حسب به ... يوم البخيل مكنهب الوجه هابي
وثنّه لمصدورٍ ليا جاه نبّه ... يرخص بعمره والدخن له ضبابي
وعده عن اللي ما يداري المسبة ... اللي يدوّر بالقصير الغيابي
احرص على جمره من إحراق حبه ... لمّا تشوف العرق بالحب ذابي
ودقّه بنجرٍ تالي الليل نبه ... يشادي لذيبٍ يا عوى برأس نابي
ودقّ البهار وبهّره ثم صبه ... تصبغ على الفنجال مثل الخضابي
ومن يوجعه رأسه ترى الهيل طبه ... وليا تقهوا غاية الكيف طابي
نذبح لهم كبشٍ عريض الملبّه ... ومن مذبح السكين حسّ الركابي
كم كبش مصلاحٍ لرأسه نجبّه ... ولو زودوا فيه الثمن ما نهابي

مـع الشتـال مـزيّـنٍ طبـخ حبـه والعـذر مـع هـذا وزيـن الجـوابـي
ونبدي لهم يا كليب هرج المحبة يـا جنـب الهيّيـن عـريـض العـلابـي
وبهرجٍ أحلى من شخاليل (جبّه) وأحلى من السمن الجديد العرابي
يـا ربّ نـاخـذ تـالـي العمـر عبـه مـن قبـل مـا ينسـف علينـا التـرابـي
الصبـر زيـن وراعـي الصبـر غبـه يرقي بروس مشمرخات الهضابي
ومن لا صبر يا كليب في حكم ربه هـذاك يـوم البعـث مـالـه ثـوابـي[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (٩٧) من مجلة (المختلف).

ذبحة الشيخ

شعر: عواد بن شبيبة

الرثاء من أصدق أنواع الشعر ، فالموت ليس مجالاً لتزييف العواطف ، حيث تخرج المعاني ندية بدموع الحزن الصافية. و(عواد بن شبيبة) شاعر قديم وصلتنا له قصيدة نظمها في رثاء ممدوح بن سطام آل شعلان من شيوخ (الرولة) يقول فيها:

يـا عيـن كفّـي دمعتـك يـا قميحـة ... ما عاد لك من باقي السهر مصلوح
بـرقٍ يلـوح وشـاق عينـي لميحـة ... بخشوم غرٍّ بالسما بسّ له. ضوح
عسى الحيا يسقي جناب السطيحة ... يسقـي شغـايـا وادٍ فيـه (ممـدوح)
شيـخ الشيـوخ اللـي لـربعـه منيحـة ... ما هو من اللي شيخته بس للروح
مجـرّب كـلّ سمـع فـي مـديحـه ... اللـي لجمعـات الطـوابيـر ذابـوح
مضـاربـه بـأهـل السبـايـا مبيحـه ... من غالطه بالطيب غادي ومفضوح
عـزّي لمـن مثلـي همـومـه مشيحـة ... وقلبه على سردال الأبطال مجروح
القلـب عيّـا لا يطيـع النصيحـة ... جاوبت قمريّ الحمايم على النوح
ليتي حضرت الشيخ. وأنطح نطيحة ... أو ليتني مع ذبحة الشيخ. مذبوح[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (٤٨) من مجلة (المختلف).

البارحة يوم الخلايق

شعر: محمد بن مسلم

اختلف في هذه القصيدة بين نسبتها إلى نمر بن عدوان ، وهو الأشهر لدى العامة ، وبين محمد بن مسلم شاعر الأحساء ، وهو ما ورد لدى بعض الكتاب المهمين كعبد الله الحاتم وابن يحيى ، وقد بحث الزميل بدر الحمد في كتابه (قالت الصحراء) في هذا الموضوع ، ورجح نسبتها إلى ابن مسلم بدلالات قوية تتسم بالمنطقية ، وأياً كان صاحب هذه القصيدة؛ فإنها مرثية حزينة تتناقلها الأجيال ، وتنفطر لها أفئدة سامعيها:

البارحة يوم الخلايق نياما ... بيّحت من كثر البكا كل مكنون
قمت أتوجد وأنثر الما على ما ... من موق عيني دمعها قبل مخزون
لي ونّةٍ من سمعها ما يناما ... كنّي صويبٍ بين الأضلاع مطعون
وإلا فهي ونّة كسير السلاما ... خلّوه ربعه للمعادين مديون
في ساعةٍ قلّ الرجا والمحاما ... فيها ، وربعه شافهم يوم يقفون
وإلا فونّة راعبيّ الحماما ... غادٍ ذكرها والقوانيص يرمون
تسمع لها بين الجرايد حطاما ... من نوحها تدعى المواليف يبكون
وإلاّ خلوجٍ ساعفت للهياما ... على حوارٍ ضايع في ضحى الكون
وحوارها الراعي نحر له شماما ... وأمّه تطالع يوم ذكوّه بعيون
يروم أرزمت والخلج حوله حياما ... ترزّموا معها وقاموا يحنّون
وإلاّ رضيعٍ جرّعوه الفطاما ... أمّه غدت قبل أربعينه يتمون
على عشيرٍ شرب كأس الحياما ... صرفٍ بتقديرٍ من الله مأذون
جاه القضا من بعد شهر الصياما ... صافي الجبين بثاني العيد مدفون
كسوه من عرض الخرق ثوب خاما ... وقاموا عليه من الترايب يهلّون

راحوا بها حروة صلات اليماما ... عند الدفن قاموا لها الله يدعون
برضاه والجنة وحسن الختاما ... ودموع عيني فوق خدّي يهلون
حطّوه في قبرٍ عساه الهياما ... في مهمهٍ من غرب الأموات مسكون
يا حفرةٍ يسقي ثراك الغماما ... مزنٍ من الرحمة عليها يصبون
جعل البختري والنفل والخزاما ... ينبت على قبرٍ غدا فيه مدفون
مرحوم ياللي ما مشى بالملاما ... جيران بيته راح ما منه يشكون
يا وسع عذري وإن هجرت المناما ... ورافقت من عقب العقل كلّ مجنون
من طيب خيم اللي ذكرته ولاما ... ومحاسنٍ ما عنهن الناس يدرون
أخذت أنا وياه سبعة أعواما ... مع مثلهن في كيفيةٍ ما لها لون
والله كنّه يا عرب نصف عاما ... يا عونة الله صرف الأيام وش لون؟
وأكبر همومي من غويشٍ يتاما ... إن شفتهم قدّام وجهي يبكون
إن قلت لا تبكون ، قالوا علاما ... نبكي ويبكي مثلنا كل محزون
قلت السبب تبكون؟ قالوا يتاما ... قلت اليتيم إياي وأنتم تسجون
مع العيال وكلّ جرحٍ يلاما ... إلا جروحٍ بالحشا ما يطيبون
جرحي عميقٍ مثل كسر السلاما ... إلى مكن عنه الأطبا يعجزون
قمت أشتكي حالي لربٍ عداما ... جوني على فرقا خليلي يعزّون
قالوا تجوّز وانس لاما بلاما ... ترى العذارى عن بعضهم يسدّون
قلت: إنها لي وافقت بالولاما ... يا ناس ما بي غيرها.. لا تشيرون
ما ظنّتي تلقون مثله حراما ... أيضاً ولا فيهن على السدّ مأمون
أخاف أنا من غاديات الذماما ... اللي على ضيم الدهر ما يتاقون
أو خبلةٍ ما عقلها بالتماما ... أو نذلةٍ ممهمونةٍ بنت ممهون
أخاف أنا آقع لي بعقرب هداما ... تضحك وهي تلدغ على الكبد بالهون
توذي عيالي بالنزر والكلاما ... وأنا تجرّعني من المرّ بصحون
والله يا لولا ذا الغويش اليتامى ... خوفي من أسبابٍ عليهم يضيعون
لأقول كل البيض عقبه حراما ... وأصبر كما يصبر على الحبس مسجون
ولاذقت عقبه لا طعام ولا ما ... ولا منامٍ والخلايق ينامون

عليــه منّــي كــلّ يــومٍ ســلامــا عدّة حجيج البيت واللي يطوفون
وصلّـوا علـى سيّـد جميـع الأنـامـا على النبي ياللي حضرتوا تصلون[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (٥٦) من مجلة (المختلف).

زين المعاني

شعر: مرشد البذال

قصيدة للشاعر الكويتي المعروف مرشد بن سعد البذال، المتوفى سنة ١٩٩٠م، وقد جمع فيه صنوفاً من الحكمة في قالب من جزالة الألفاظ، وجودة السبك.

قال الذي زين المعاني قطفها ... أمثال مبداهن عن الشك مفرود
أمثال عنهن قاصر العرف يفها ... من حيث درب العرف طلعات وصعود
لو كل من قال المثايل عسفها ... ما صار نقصٍ بالمعاني ولا زود
والبندق العوجا تجنّب هدفها ... لي صار منظرها عن القطر مصدود
وغاية جميع الخلق محدٍ عرفها ... رضا جميع الخلق ما هو بموجود
لاشك تدّي كل نفسٍ نصفها ... ترى كلام العدل يظهر له شهود
من رابع العاقل لنفسه صرفها ... عن تيهةٍ يشقى بها ما بها فود
أسمح عن اللي تيهته ما عرفها ... يمكن يرد اليا لقي الدرب مسدود
لومي على اللي تيهته قبل شفها ... ومن العيا كنّه عن الرشد مطرود
نفسه على شين المماشي حذفها ... أصبح ذميمٍ لوه من نسل محمود
لا يفتخر بأفعال ناسٍ وصفها ... له الفخر كأنه وقف ماقف العود
ما كل أجاويدٍ تبعها خلفها ... لابد ما يخلف حمد سيرة حمود
كم واحدٍ يمّة جدوده نسفها ... على الشمال ورد مع دربه ورود
ضرب دروبٍ ما نشد عن كلفها ... وكدّر سماه وصار بالجهل مزيود
نفسه خطا غيره لعب في شرفها ... أصبح بخيتٍ لابسٍ ثوب مقرود
كم واحدٍ ربعه يعدّل عجفها ... من نشوته صاروا مشاكيل وفهود
عنهم مهمّات الأفاعي كتفها ... ما حد يجيهم بطش والحق مريود
لومي على راع مماشٍ حرفها ... عن درب أبوه ودرب جدّه هل الجود

أقـول لـه دنيـا بـلا مـدح عفهـا ... تـرى تـلايـا الجسـم للقـاع والـدود
أنتـم بشـر نـاسٍ تقـدّم سلفهـا ... مرحانها تسفي خلايا من الرود
هـذي مبـانيهـا وهـذي غـرفهـا ... بقـي العمـار وبـاني القصـر مفقـود
وغيـره بيـوتٍ للفـداوى رففهـا ... مثل الجبال السمر وألوانها سود
محلى حلاها عقب سيرة صلفها ... في خايعٍ نبته لها أرقاب عاصود
كـم فيضـةٍ زيـن المبـانـي كنفهـا ... بيـوتهـا لِلخيـل عـن مـرتـع الـذود
قـبٍّ مطـاليـب المقفّـي نحفهـا ... ياما نضح منها العرق نضحة الجود
لـي مـنّ كسّـاب الـزعيمـة خطفهـا ... صاح الصياح وجاوبه حسّ بارود
كـلٍّ ركبهـا مـا نشـد عـن كلفهـا ... جنّك على الداعي مع الحزم جلعود
كـم أبلـجٍ عنـه الجبـانـة كشفهـا ... خلّى بجيش القوم حاوي ومردود
وكـم أبلـجٍ نفسـه حيـاهـا قصفهـا ... أصبح فؤاد أمّه من الحزن ملهود
هـذي سلـوم اللـي تقـافـت صففهـا ... يـوم الهـوا عـدلٍ لـركّـابـة القـود
واليـوم تـرحـم حـالهـا مـن ضعفهـا ... مـا كنّهـم شيفـوا بمـربـاع وعـدود
مضمـا البكـار اللـي تنفـض شعفهـا ... لـو تـأصلـه عيّنـت بـه ربـق وهنـود
قل لي علام الوقت هذا صدفها ... وأقول لك هذا آخر الوقت مشهود
محـدٍ تصـاريـف الـزمـان أكتشفهـا ... تغيّـرت سلـمٍ علـى الخلـق مقـدود
دنيـاك بـالقفـلات يضـرب صلفهـا ... لمحة بصر ما له سنا برق ورعود
غـدّارةٍ لـو أضحكتـك بطـرفهـا ... تراك عقب الضحك ببكاك ماعود
إن أقبلـت قـامـت تمشّـط زلفهـا ... هنوف عرسٍ طيبها المسك والعود
وإن أدبرت شفت الكدر من حرفها ... تمسي تسيد، وتصبح الصبح مسيود[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (١١٢) من مجلة (المختلف).

تقاسيم الرجال وتواصيف النساء

شعر: راكان بن أميم

قصيدة تكتنز بالحكمة والنظرة الثاقبة للأمور ، وهي من فرائد هذا الشعر في تراثنا العامي لشاعر قديم ، لا نملك الكثير من المعلومات عنه:

أفكرت إلى نور الديار أرجالها ... هم نورها ، وثغورها ، وجمالها
هم سترها إلى لفوا أهل النضا ... لي جنّ من فجٍّ تسوج أحبالها
يثنى عليها لأجل خطو الخيّر ... ويكسونها بالذمّ لجل أنذالها
إن كان هم فيها كسوها بالثنا ... وإلا كسوها بالملام أرذالها
أدخل على الله من ملامة معسر ... لي عاد ماله حيلةٍ يحتالها
ما يستحقّ الذم كود (أمتلّك) ... تقصر يده والمرجلة ما نالها
بالناس من حط الصخا له قسمة ... خذا السمين وكبّ عنه أهزالها
وبهم من خذا الرأي وقفّى رايح ... ياما يسدّد من دروب أخمالها
وبالناس من حطّ الشجاعة مغنم ... نعم بمن يصبر على غربالها
وبالناس من حطّ النميمة مقسم ... خذا الرذالة كلّها بحثالها
أما الشجاعة: قسمتينٍ شاعن ... عليا وسفلى ، وأخبرك بأحوالها
القسمة العليا: شجاعٍ على العدى ... يرخص ذبيل الروح عند أقتالها
والقسمة السفلى: شجاعٍ على الدنا ... شلفا قصيرة في نحر نقّالها
هذا فلا تجزع عليه أليا ذهب ... نفسه على الرب الكريم زوالها
هذي تواصيف الرجال أبديتها ... وأمّا الديار أخبرك أنا بأحوالها
قس الديار على الوقار براحة ... مستبطينٍ في جودها وخمالها
قيّس بفهمك لا تقيس بغيرك ... ولا يغرّك كلمةٍ من قالها
إن كان حكّام الديار فهودها ... وأسودها ، وأكبارها عقّالها
فلا تبدّلها بمنزل غيرها ... العزّ تهيأ له وهو يهيأ لها

وإن كـان حكـأم الـديـا قـرودهـا ... ونجـوسهـا ، وأخسـاسهـا عقّـالهـا
أقـول بـدّلهـا بمنـزل غيـرهـا ... ولا تسبّـع فـي يـدي نـزّالهـا
دع ذا وقـافيهـا ثـلاثـة خصـايـل ... خصـايـلٍ يمـدح بهـا فعّـالهـا
الأوّلـة: فكّـة ذويـد الصـاحـب ... مـن الحفيـف وصـايـرٍ عقّـالهـا
والثـانيـة: تـوجيهتـه فـي كـلّ زلّـة ... طمـرتهـا وأقفـى بهـا مـن جـالهـا
والثـالثـة: عـزٌّ لجـارٍ نـازل ... ولـو عيـالـه مكثـريـن خمـالهـا
هـذي تقـاسيـم الـرجـال أفهـم لهـا ... وأما الحريم أنا أخبرك بأشكالها
منهـن: دالهـة الفـؤاد مطيعـة ... وجـهٍ سميـحٍ دلّهـا ودلالهـا
ومنهـن: عذراً عن الدنس محميّة ... عنـد المحـاضـر يقلطـون رجـالهـا
ومنهـن: مصبـاح البيـوت عفيفـة ... زيـن علـى عقـلٍ وصـار حـلالهـا
ومنهـن: عفـرا زينـةٍ مشهـورة ... مـاقـت ونـادى زينهـا لخمـالهـا
ومنهـن: مكملـة العبـاة بـرجلهـا ... تعـدي ومـرٍّ بـالحكـي يعـدا لهـا
ومنهـن: فـاقعـة النظـر لغـويّـة ... مخلـوقـةٍ مـن (لا) وخلقـة لالهـا
ومنهـن: عـوبـا شينـةٍ ملـويّـة ... قطـه بشـوف أقفـايهـا وأقبـالهـا
ومنهـن: دويبقـة فـويـرة منـزل ... تخـشّ عنـد النـاس قـوت عيـالهـا
اختـر علـى مـا لاق لـك يـالسـامـع ... ومن هو برك للحمل شال أثقالها
والختم صلّوا للنبي يا للي حضر ... عـدّ النبـات وعـدّ وبـل خيـالهـا[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (١٢٣) من مجلة (المختلف).

الدار

شعر: فهد بورسلي

قصيدة للشاعر الكويتي فهد بن راشد بورسلي، المتوفى سنة ١٩٦٠م، وفيها يتوجه بالعتاب إلى الوطن؛ الذي يظل القلب الحنون على أبنائه مهما قست الظروف.

الدار جارت ما عليها شافه ... والحرّ فيها شايفٍ ما عافه
بالك تكاثر صدّها وإن صدّت ... عاداتها عقب القبول نكّافة
دارٍ لغير عيالها مشكورة ... وإلا ابنها تلعن أبو أسلافه
دارٍ يعيش بها الغريب منعّم ... وتعيش فيها (أم أحمد العكّافة)
دارٍ أوصّفها عجوزٍ شمطا ... همّازةٍ منّاعةٍ حلّافة
تغذي عيال الناس وتداويهم ... وعيالها لعيونهم خطّافة
آسف على الطيّب تردّى حاله ... وإلا الردي ما من عليه حسافة
مثل الحمامة فرخها بالبيضة ... وعند طيَرانه تنكره وتعافه
ما دامنا شتّى بفلكٍ واحد ... ذاب الشراع وضاعت الغرّافة
هذا جزانا زين سوّت فينا ... خل الغرق ما يوهل النزّافة
نصبر غصب أو طيب هذه قسمة ... لو نلحس التمرة ورا الخصّافة
أنا أعرفها زين ما أستنكرها ... اللي يوصّفها تضيع أوصافه
هذي (عذاري) الجار ما ينكرها ... تسقي البعيد ولا ترشّ الحافة
حنّا تقاطعنا وشلنا نفوسنا ... والزود خلّانا على ميهافه
والحسد والبغضا وقلّ الرحمة ... ما واحدٍ منّا سعى بإنصافه
نجني الثمر من كلّ علمٍ وافي ... ولا نجني الثمرة من الصفصافة
من داخل الداخل وبار بجنسه ... كلٍّ على أكتافه يشيل أحتافه[1]

---

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (٧٦) من مجلة (المختلف).

يا عين

شعر: عبد الله بن سبيّل

هو الشاعر عبد الله بن حمود بن سعد بن سبيّل الباهلي. ولد في (نفي)، وتولى إمارتها أيام الملك عبد العزيز حتى وفاته سنة ١٣٥٢هـ، ويعد واحداً من أشهر شعراء النبط، وأكثرهم حضوراً في الذاكرة الشعبية.

وفي هذه القصيدة يتوجد ابن سبيل على العشائر البدوية؛ التي كانت تجاور (نفي) حين رحيلها عنهم أيام الربيع للبحث عن المراعي المعشبة، وهي من أروع قصائده.

يا عين وين أحبابك اللي تودّين ... اللي إلى طاب الوطن ربّعوا به
أهل البيوت اللي على الجو طوفين ... عدٍّ خلا ما كنّهم وقّفوا به
منزالهم تذري عليه المعاطين ... تذري عليه من الذواري هبوبه
عهدي بهم باقي من السبع ثنتين ... قبل الشتا والقيظ زلّ امحسوبه
قلّت جهامتهم من الجوّ قسمين ... الزمل حدّر والظعن سنّدوا به
يبغون مصفارٍ من النير ويمين ... الله لا يجزي طروشٍ حكوا به
قالوا من الوسمي نباته إلى الحين ... ومن تالي الكنّة تملّت دعوبه
شيّالة الكايد على العسر واللين ... وإلى وطاهم موجبٍ رحّبوا به
زاد الشتا معهم بليا مواعين ... وإن شافوا الضيف المطرّف عدوا به
وإلى تريّض يذبحون الخرافين ... ومن زاد بيت الله تفرّش عصوبه
وإلى عطوا يعطون روس البعارين ... وإن فات منهم شيّ من حسّبوا به
يربون مالٍ فاختته الحوارين ... يشدي تراطين العجم يوم جوبه
وإلى تعلّوا فوق مثل الشاهين ... صاروا على بعض القبايل عقوبة
لي تلّها الراكب غدا الحبل ثنوين ... مثل المعشّر رأسها عند ثوبه
عقب النكايف كنّهنّ السراحين ... ما قيل يسعل قينها وانظروا به

وإن قيل عند أقطيّهن يا هل الدين فالمرمس اللي من قديمٍ دعوا به
ردّوا عليهم ردةٍ تعجب العين كلٍّ يبا النوماس قدام أمحبوبه
هذا طريح وذا شنيع الأكاوين واللي تعدّته السهوم أرجلوا به
ولحدودهم بمطرّق الحد حامين وقبب تبدّا في برايز كسوبه
كم عزّلوا ذيدان بدوٍ عزيزين لو مالهم سبّارهم وأرثعوا به
ولحقوا بعيدين المساريح عجلين وقالوا لرعيان الأخيذ: أبشروا به
وتوقّفوا مثل المظاهير مرزين بالماقف اللي بايعوا واشتروا به[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (٩١) من مجلة (المختلف).

من حاير

شعر: عبد الله بن ربيعة

من قصائد ابن ربيعة في الشكوى من فراق أسرته المقيمة في الكويت ، و(عبد الله بن محمد الربيعة) شاعر معروف من شعراء الطبقة الأولى في التاريخ النبطي ، وهو من أسرة آل وطبان أبناء عم آل سعود ، وقد توفي في بلدة الزبير سنة ١٢٧٣هـ ، وكان من المعاصرين لابن لعبون ، وبينهما جرت بعض الرديات ، ويقوم الزميل إبراهيم الخالدي حالياً بتحقيق ديوان ابن ربيعة تمهيداً لنشره:

من حايرٍ ياوي عدوّه لحاله ... بين الجلا والعسر والكبر وعيال
متسمّتٍ يوري الجلد والجمالة ... ومسمّرٍ بين التمآني والآمال
عن هاجسه والزود قصرت حباله ... بايع حياته من قسا الوقت بخلال
هذي ثلاث سنين ما انساح باله ... مهما شبا جرف الرجا طاح بالجال
يطنا ومهما شاف لجّة عياله ... ذبّ الطنا من هامة الرأس بنعال
يتلي الظعن حافي ولا له زماله ... وأشيب عينينه إلى سرّب اللال
يا مبلغٍ ريف المقاوي رسالة ... مضمونها: بانخاك يا حامي التال
يا ولد من كلٍّ قصر عن فعاله ... ما مات من خلف لنا شبل الأشبال
ماأنت بـ صغير السن بك قول ذا له ... أويّ والله ياهل الخيل خيّال
يذكر فريد ذابه الدهر ، ما له ... عونٍ سوى الله ثمّ رجواك خيال
رجوى الحوالة كلّفتنا جمالة ... العام من شوال لي دور شوال
بين الكويت وبين نازح شماله ... حفْيت ركابي بين الأقفا والإقبال
يالخال شوفات القطيعة جرى له ... تقطع رحمك بشور من لا لهم تال
جالي شمال وجيت أرجى نواله ... خالك لقى بطوالة الخيل خيال
حاشاك يا من ريف عيني نواله ... تبيعني في رأي حاسد وعذّال

كـان النـزيـل بسـاحتـك لـه نـزالـة إلـى شبـا سلّـم صعـد عـالـي العـال
بيـن الـرحـم بيـن اللحـم والثنـا لـه متوسّطٍ ما لك على الخال مدخال
لايـذ بشهلـولٍ عـن الضيـم جـالـه ريـف وذرى مـن للثقيـلات حمّـال
عنـدي إلـى كـلٍّ تـرهّـى بمـالـه ذخيرتي (فيصل) إلى كمّل المال
وأسلـم ودم ختـامهـا بـالجمـالـة بس الثنا يبقى وما شفت زوّال[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (٧٦) من مجلة (المختلف).

الله يسقي داركم

شعر: راكان بن حثلين

هو الشيخ راكان بن فلاح بن مانع آل حثلين شيخ قبيلة العجمان المشهور (سبقت ترجمته في الفصل الأول)، وهذه إحدى قصائده التي قالها في منفاه بتركيا:

يـالله يـا عـلّام كـايـن ومـا كـان ... يـا واحـدٍ كـلّ أمتـه يـرتجـونـه
تفرج لمن هو بين الأتراك منهان ... من غبن قاصر دارهم لي مهونة
ودّي بشوف ديار مروين الأسنان ... أهـل الشهـامـة والـوفـا والمعـونـة
أفعـالهـم مـا هيـب زورٍ وبهتـان ... فعـلٍ شهيـرٍ والعـرب يـذكـرونـه
الله يسقـي داركـم يـا (عجيّـان) ... وبـلٍ مـن المنشـا تكـاشـف مـزونـة
أسـود عـريـضٍ ريّـضٍ لـه تحنحـان ... كـنّ الهنـادي سلّلـه فـي ركـونـه
من حومة النقيان لي حدّ صوّان ... تسبـل همـاليـه ويسـودّ لـونـه
ويسقي من العرفا ليا جوّ سوقان ... والصلب حيث أن لابتي يدهلونه
ديرة بني عمٍّ على الخيل فرسان ... والضيف لي جا دارهم يكرمونه
حـامينهـا بقـديمـي صنـع نجـران ... شـلّاع مـا يبـرنّ الأطبـاب كـونـه
وحدبٍ تقصّ الرأس من حدّ الأمتان ... يقضـي بهـا الـديّـان بـاقـي ديـونـه
بإيمان القوم لي أحتمي الهوش فرسان ... والضـدّ لـو هـو نـازحٍ يـا صلـونـه
جـلّابـةٍ للـروح لـي ثـار دخّـان ... والـروح لـوّه غـالـيٍ يـرخصـونـه
كم شيخ قومٍ طوّحوا به بالإيمان ... خلّـوه مـن الميـدان يطـرخ زبـونـه
ومن زان حنّا له على الزين خلّان ... بـا مـن وحنّـا بـالعهـد مـا نخـونـه
وليـا نـوانـا بـالقـوامـات خسـران ... يبطـي سهيـرٍ مـا تغمّـض عيـونـه
وصـلاة ربّـي عـدّ هتّـاف الأمـزان ... لمحمّـد اللـي منهجـه يتبعـونـه[1]

---

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (٧٧) من مجلة (المختلف).

باب المودّة

شعر : محمد العرفج

تعد هذه القصيدة من عيون شعر الغزل في تراثنا النبطي ، وهي تمتاز بسهولة ألفاظها ، وعذوبة أحاسيسها ، وشاعرها تولى حكم بريدة عدة مرات ، آخرها كان سنة ١٢٤٣هـ ، كما عيّن أميراً على الجوف ، وله مراسلات شعرية مع شعراء من أمثال ابن ربيعة والقاضي ، وقد قتل أمام بيته سنة ١٢٥٧هـ:

يـا مـلّ قلـبٍ بيّـح الـولـف سـدّه ... وإن جيت أسلّي خاطري ما تهيّا
شاب الهوى وانحلّ جسمي وهدّه ... بيّنتنـــي لعـــداي واشمـــتّ فيّـــا
يا قلب يا للي شيّب الرأس حدّه ... بـالـك تكـون لمـن جفـالـك أرقبيّا
يا قلب من قاضى جميلك بصدّه ... لا تقبلـه لـو كـان حسـن التـزيّـا
عن ذاك باب الوصل يا قلب سدّه ... شـم للعـلا واشمـخ لنجـم الثـريـا
الصـاحـب اللـي هـجّ بـاب المـودّة ... لـك مـا صفـا لحـذاك يـا قلـب عيّا
سلطان حور الدور أنا إن قلت خدّه ... بـدرٍ تجلّـى مـا زرى أحـدٍ عليّـا
ضافي الجعد غض النهد يوم أشدّه ... غصـنٍ تـدلّـى وانهصـر فـي يـديّـا
مـا لـي فـدا لـه لـو لـي أمـوال جـدّه ... حيثـه لـي الجـا مـن حـدا والـديّـه
وإن غـاب عنّـي يـزاد حـالـي بـودّه ... ألاعـي الـورقـا ونـومـي شـويّـا
وافـي حشـاه إنسـان شـدّ الأشـدّة ... وسلّاني عـن رفقـة أخـو كـلّ حيّـا
لا لا وربّ البيـت مـا ريـت قـدّه ... والـزيـن مـن عـذب الثمـان أشـرفيّـا
إن نقـض مجـدولـه وكـدّه وردّه ... وأقبـل يغطـرف لـي بهـون وغيّـا
شـدّيـت وسطـه والتـوى عنـد حـدّه ... وأرويـت مـن سكّـر نبـاتـه ضميّـا
وادعيـت خـدّه مـا ينـول المخـدّة ... ومـن السكـر بـي مـا عـن الله كميّـا
لـولا نهيـده شـدّ ثـوبـه وقـده ... ومحيـزمٍ بـالـوسـط زاويـه زيّـا
مـع مبسـمٍ ولعيستيـنٍ بخـدّه ... وأذبيلتيـنٍ كـان أنـا أقـول: ذيّـا

عفرٍ غريب الدلّ مجمول بدّه غروٍ على زمّة شبابه ظبيّا
أرجي من اللي ترجي الناس مدّه محيي النما بالما رجا كلّ حيّا
يجعل صفاة قلوبنا مجرهدّة يا واحدٍ ترجي بلطفك خفيّا[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (١٠٠) من مجلة (المختلف).

القلوب الهبايل

شعر: عليا الهلالية

بينما كان أبو زيد الهلالي يقاتل البربر في المغرب العربي.. وصلت لزوجته عليا (إخباريّة ما) أثارت غيرتها(!!) فأرسلت إليه هذه القصيدة تعاتبه:

يا ركب يا للي من عقيلٍ تقللوا ... على ضمّرٍ شروى الحنايا نحايل
أبا أوصيكم وصاةٍ ما تنثقّل ركابكم ... خفيفة على راعي الثنا والجمايل
واليا لفيتوا لأهلكم عقب غربة ... متغبّطينٍ في بطون الحلايل
فقولوا لبو زيد إن بغاني بغيته ... وإن دور البدلا لقينا البدايل
كم من رجوس الحجل تبلى بعاقه ... وكم عاقةٍ تبلى بوافي الخصايل
أنجبت أخضر ما يزرّر ثيابه ... هبيل يلعب بالقلوب الهبايل
والله لولا البحر بيني وبينه ... جيته على وضحى من الهجن حايل
أبا زيد غرّات الصبا لا تغرّك ... ترى الهجن خيرٍ بالسرى والقوايل
بالشتا دورٍ من الهجن سمرغية ... وبالقيظ دورٍ من مكبار الشمايل
غزاليّة المقدم جماليّة القفا ... عليكم بها يا راكبين الرحايل
أبا زيد لو أنّ النساء تركب النضا ... جيتك على وجنا من الهجن حايل
لكن صريخ الكور حدري وفوقها ... صريخ القطا في محكمات الحبايل
أبا زيد تنساني وتنسى جمايلي ... الله وأكبر يا نكور الجمايل
نسيت يوم إن عرقات الأرطى بيننا ... يوم إن جعدي فوق متنيك مايل
أبا زيد تنسى يوم ترشح لذبّلي ... كما يرشح العطشان باقي البلايل
قولوا لأبا زيدٍ ترى الوادي امتلا ... وكل وادٍ من علاويه سايل
يبيعون ما باعوا ويشرون ما شروا ... ولا غبنٍ إلا بالنضا والحلايل[1]

* * *

(١) نشرت هذه القصيدة في العدد (٤٨) من مجلة (المختلف).

رقصة (الدحة) التي اشتهر بها اهل الشمال

المصادر والمراجع

١ـ إبراهيم الشكري: البداوة في الكويت ـ مؤسسة دار الكتب للنشر والتوزيع ـ الكويت ـ ١٩٨١م.

٢ـ إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية.

٣ـ الأب أنستاس ماري الكرملي: لغة العرب ـ ١٩١١م.

٤ـ ابن خلدون: المقدمة.

٥ـ ابن عبد ربه: العقد الفريد.

٦ـ ابن منظور: لسان العرب.

٧ـ أبو علي القالي: الأمالي.

٨ـ أحمد أمين: ضحى الإسلام.

٩ـ أحمد وصفي زكريا: عشائر الشام ـ مطبعة دار الفكر ـ دمشق.

١٠ـ أشلي مونتاغيور: البدائية ـ ترجمة: الدكتور محمد عصفور ـ سلسلة عالم المعرفة ـ الكويت ـ مايو ـ ١٩٨٢م.

١١ـ الثعالبي: فقه اللغة ـ مصر.

١٢ـ الجاحظ: البيان والتبيين.

١٣ـ الخاقاني: الأدب الشعبي.

١٤ـ الزبيدي: تاج العروس.

١٥ـ السيد محمود شكري الألوسي البغدادي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ـ لبنان.

١٦ـ الصحارى: سلسلة المعارف رقم(١٩) ـ دار المعارف ـ مصر.

١٧ـ القبس: (صحيفة يومية كويتية) الأعداد ٤٣٢٠ و٤٤٦٤ و٤٩٥٣.

١٨ـ اللسان العربي ـ المجلد الخامس عشر ـ الجزء الأول: أبحاث ودراسات ـ ١٩٧٧م.

١٩ـ المعجم الوسيط: معجم اللغة العربية ـ ط٣ ـ مصر ـ ١٩٨٥م.

٢٠ـ المنجد في اللغة والأعلام.

٢١ـ بولس سيور البولسي: عوائد العرب ـ دار الرائد العربي ـ بيروت ـ لبنان.

٢٢ ـ بولس سلمان: خمسة أعوام في شرقي الأردن ـ مطبعة القديس ـ حريصا ـ ١٩٢٩م.

٢٣ـ د. توفيق برو: تاريخ العرب القديم ـ ط١ ـ دار الفكر ـ ١٩٨٤م.

٢٤ـ ثورموند شميدت وإيريك تورولينج: عالم البيئة ـ ترجمة: د. أمين رشيد حمدي ـ دار الكتاب المصري و دار الكتاب اللبناني.

٢٥ـ جورجي زيدان: العرب قبل الإسلام.

٢٦ـ جورجي زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي.

٢٧ـ حافظ وهبة: جزيرة العرب في القرن العشرين.

٢٨ـ حمد السعيدان: الموسوعة الكويتية.

٢٩ـ حسن قدوري: لعب وأغاني الأطفال.

٣٠ـ حسن الباش: الأغنية الشعبية الفلسطينية ـ ١٩٧٩م.

٣١ـ د. زين الدين عبد المقصود: النظام الإيديولوجي ـ عدد ٣٤ ـ ١٩٨٢م.

٣٢ـ د. زين الدين عبد المقصود: مشكلة التصحر في العالم الإسلامي. نشرة دورية رقم ٢١ ، الجمعية الجغرافية الكويتية ـ ١٩٨٠م.

٣٣ـ سالم اليماني: سيناء ـ مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٥م.

٣٤ـ شعوبي إبراهيم: المقامات ـ بغداد ـ مطبعة أسعد ـ ١٩٦٣م.

٣٥ـ د. صالح أحمد العلي: محاضرات في تاريخ العرب.

٣٦ـ صلاح مصطفى الفوال: البداوة العربية والتنمية ـ مكتبة القاهرة الحديثة ـ ط١ ـ القاهرة ـ ١٩٦٧م.

٣٧ـ ظافر القاسمي: الحياة الاجتماعية عند العرب ـ دار النفائس ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٩٧٨م.

٣٨ـ عارف العارف: القضاء بين البدو ـ مطبعة بيت المقدس ـ ١٩٣٣م.

٣٩ـ عباس العزاوي: عشائر العراق ـ مطبعة بغداد ـ ١٩٣٧م.

٤٠ـ عباس كاظم مراد: أسماء الناس ـ بغداد ـ دار الحرية للطباعة ـ ١٩٨٤م.

٤١ـ عبد الجبار الراوي: البادية ـ مطبعة العاني ـ بغداد ـ ١٩٤٩م.

٤٢ـ عبد الكريم العلاف: الطرب عند العرب ـ مطبعة أسعد ـ بغداد.

٤٣ـ عبد الكريم العلاف: الموال البغدادي ـ مطبعة المعارف ـ بغداد ـ ١٩٦٤م.

٤٤ـ عبد الله الدرويش: الفن السامري ـ ١٩٨٣م.

٤٥ـ عبد الله الدرويش: الفنون الشعبية ـ ١٩٨٥م.

٤٦ـ عبد الله الدرويش: ديوان الزهيري.

٤٧ـ عبد الله العتيبي: مجلة البيان ـ العدد ١٦٩ ـ ١٩٨٠م.

٤٨ـ عبد الله العتيبي: مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٣١ ـ ١٩٨٢م.

٤٩ـ عبد الله بن محمد بن رداس ـ شاعرات من البادية ـ دار اليمامة ـ الرياض.

٥٠ـ عبد الله بن خميس: الشوارد ـ دار اليمامة ـ الرياض ـ ١٩٧٧م.

٥١ـ عبد الله بن خميس: مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية، العدد ٢٣ ـ ١٩٨٠م.

٥٢ـ عبد الله الحاتم: خيار ما يلتقط من شعراء النبط ـ ١٩٨١م.

٥٣ـ عبد القادر زكار: المختار من التراث العربي ـ منشورات وزارة الثقافة ـ ١٩٨٢م.

٥٤ـ عبد الله زكريا الأنصاري: الشعر الشعبي بين العامية والفصحى.

٥٥ـ عبد الوهاب منصور: قبائل المغرب.

٥٦ـ علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام ـ مكتبة النهضة المصرية ـ مصر.

٥٧ـ عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان ـ ١٩٧٣م.

٥٨ـ فاروق الكيلاني: شريعة العشائر في الوطن العربي ـ مطبعة الخلاص ـ عمان ـ ١٩٧٤م.

٥٩ـ فريق المزهر آل فرعون (الشيخ): القضاء العشائري ـ مطبعة النجاح ـ بغداد ـ ١٩٤١م.

٦٠ـ د. فيليب حتي: العرب تاريخ موجز ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٦٥ م.

٦١ـ كارل رسوان: الخيام السود.

٦٢ـ كلوت بك: لمحة عامة إلى مصر.

٦٣ـ د. لويس كامل ملكية: قراءات في علم النفس الاجتماعي ـ الدار القومية للطباعة والنشر ـ مصر ـ ١٩٦٥م.

٦٤ـ مجلة العرب ـ دار اليمامة ـ الرياض.

٦٥ـ مجلة الكويت: العدد ٢٩ ـ شهر يناير ـ ١٩٨٥م.

٦٦ـ مجلة الكويت: العدد ٣٦ ـ شهر أغسطس ـ ١٩٨٥م.

٦٧ـ مجيد لطيف القيسي ـ البناء ـ مطبعة أسعد ـ بغداد.

٦٨ـ محمد أبو حسان: تراث البدو القضائي ـ منشورات دار الثقافة والفنون ـ ١٩٧١م.
٦٩ـ محمد المرزوقي: مع البدو في حلهم وترحالهم ـ الدار العربية للكتاب ـ تونس ـ ١٩٨٠ م.
٧٠ـ محمد السيد غلاب: البيئة والمجتمع ـ مكتبة الأنجلو المصرية ـ ١٩٦٠م.
٧١ـ منديل الفهيد: من آدابنا الشعبية.
٧٢ـ محمد سعيد إسبر ومحمد أبو علي: الخليل ـ معجم في علم العروض ـ دار العودة ـ بيروت ١٩٨٢م.
٧٣ـ محمد عبده محجوب: مقدمة لدراسة المجتمعات البدوية ـ وكالة المطبوعات الكويتية ـ ١٩٧٤م.
٧٤ـ د. محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث.
٧٥ـ محمد فريد وجدي: المصحف المفسر ـ مطابع مؤسسة الشعب ـ القاهرة.
٧٦ـ محيي الدين صابر: نحو علم اجتماع بدوي.
٧٧ـ مختار الصحاح: معجم لغة.
٧٨ـ مرآة الأمة: مجلة أسبوعية كويتية ـ العدد ٧٠٣.
٧٩ـ مصطفى محمد حسنين: نظام المسؤولية عند العشائر العراقية.
٨٠ ـ مصطفى محمد حسنين: علم الاجتماع البدوي.
٨١ ـ مكي الجميل: البدو والقبائل الرحالة.
٨٢ ـ مونكومري وات (البدو) ـ دائرة المعارف الإسلامية ـ دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ـ ١٩٨١م.
٨٣ ـ هند أحمد النقيب: التنمية الاجتماعية وأثرها في توطين البدو في الكويت ، ذات السلاسل ـ الكويت ـ ١٩٨١م.
٨٤ ـ ياقوت الحموي: معجم البلدان.
٨٥ ـ خلف بن حديد: البدو والبادية.

* * *

المحتـــوى

لا تسألوني ٥
أضواء على حياة البادية ٧
صفة البادية ٩
البدو في السعودية ومصر وسورية ١٦
الحياة ١٦
تقاليد البدو ١٦
إكرام الضيف ١٦
قص الأثر ١٧
الصيد ١٧
الزواج عند البدو ١٧
رمي الوجه ١٨
القرآن الكريم ١٨
الطفل والمرأة والعادات ١٩
أقسام المجتمع السكاني ١٩
عمل المرأة مضاعف ٢٠
مأساة الولادة ٢٠
تأثير الصحراء على الطفل ٢١
تسمية الطفل ٢٢
أفراح الطهور ٢٢

النذور وقص الشعر ٢٣
سالفة وقصيدة عن حب البدو وحياة البادية ٢٥
البدانة والنحافة في الموروث الشعبي ٢٧
السليل (قصة مذكرات) ٣٢
المربية (المرضعة) ٤٠
الخطف بالرضا عند البدو ٤٢
العرس ٤٥
أعمال البدو (الرعي ، الصيد ، الغزو ، التجارة) ٤٧
الرعي ٤٧
الغنم ٤٨
الخيل ٤٩
الإبل ٥٢
الصيد ٥٧
التجارة ٥٩
بيوت البدو ٦٠
داخل البيت ٦٦
حلال البدو أو منازلهم ٦٨
لباس رجال البدو ٦٩
لباس النساء ٧١
حالة المرأة في البادية ٧٣
صحة البدو ٧٦
الزواج ٧٩
الطلاق ٨١
قضاء الوقت واللهو عند البدو ٨٤
شرب القهوة عند البدو ٨٦
طعام البدو ٨٧
قِرى الضيف ٩٤

أسلحة البدو ٩٦
الرحيل ٩٦
مكانة القهوة ١٠٠
كلمة الأستاذ صالح هواش المسلط في الصلح ما بين الباشات وآل عدوان ١٠٨
عادات وتقاليد البادية العربية ١١١
عرس بادية الإمارات ١١١
عرس البادية التونسية ١١٢
العرس السوري ١١٣
بدو الأردن ١١٤
عرس بدو اليمن ١١٥
عرس بدو السودان ١١٦
عرس البادية الموريتانية ١١٦
عرس بدو ليبيا ١١٧
عبد الله الهمامي ١١٩
قالت بدو ١٢٢
القبائل المتفرعة من قبيلة طيئ ١٣٢
بنو لأم ١٣٢
الفضول ١٣٣
الكثران ١٣٣
آل مغيرة ١٣٤
شمر ١٣٤
بنو صخر ١٣٤
بنو نبهان ١٣٥
آل فضل بن ربيعة ١٣٥
لقاء في حضرة الصحراء ١٣٦
جهز بن شرار ١٣٩
غيبة مارق ١٤٣

الزوجة المدخنة ١٤٥
راعي الأجرب ١٤٦
العبيّة ١٤٨
طوارق هوانا ١٤٩
ماني وأنا بندر ١٥٠
عرضة نجدية ١٥٢
الشيخة ١٥٣
طرب وهواجيش ١٥٥
يا لزير يا لزحار ١٥٧
الحبيب الجنوبي ١٥٩
حيّ اللي شراها لي ١٦١
سراج البيت ١٦٣
يا كليب شبّ النار ١٦٥
ذبحة الشيخ ١٦٧
البارحة يوم الخلايق ١٦٨
زين المعاني ١٧١
تقاسيم الرجال وتواصيف النساء ١٧٣
الدار ١٧٥
يا عين ١٧٦
من حاير ١٧٨
الله يسقي داركم ١٨٠
باب المودة ١٨١
القلوب الهبايل ١٨٣
المصادر والمراجع ٢١٤
فهرس الموضوعات ٢١٩

* * *